التجميل عنـــــد قدماء المصريين

سوف أحاول فى تلك النظرة العابرة أن أعرض صوراً من حياة الناس فى مصر القديمة عرضاً سريعاً لاعسر فيه ولا جمود ، أقدمه سهلا مبسطاً لمحبي الفنون لينير لهم الطريق إلى معرفة طرف من حضارة ذلك الشعب الكريم الذى أحبه الله فرفعه وجعله إمام شعوب الدنيا حينما كان يتيه العالم فى ظلمات من الجهل والضلال ، وليعلم أبناء ذلك الجيل أن نيلهم العظيم ساهم فى تقديم أول حضارة عرفها الإنسان وقد شهد التاريخ بثبوتها وصبرها على الشدائد والمحن وخلودها مع الزمن .

إن المصريين القدماء فهموا الحياة أحسن الفهم ، وقد دفعهم فناء الحياة الدنيا إلى التفكير فى الآخرة ، كما دعاهم هذا الفناء إلى التعلق بها . من أجل ذلك لم يكن ما أودعوه دور الآخرة من متاع الدنيا وزخرفها إلا نتيجة حبهم لها . والقبر لم يكن إلا صورة صادقة لما يقوم فى حياة الناس العامة والخاصة ، فملئت صفحات القبور بالرسوم والصور الدنيوية إلى جانب تصوير الحياة الأخروية ، وحفظت بها التماثيل والدمى وأدوات الزينة والتجميل وغيرها .

سنرى أيها القارىء الكريم فى تلك الصور الحية من مخلفات المصريين القدماء ما كان يشيع فى حياتهم من الاهتمام بالكماليات ، وذلك إلى جانب الأعمال العظيمة التى قاموا بها . سنعرف أن النحات المصرى حينما قام بنحت أدوات الزينة أراد أن يقدم صوراً من تفكيره واتجاهاته وتصرفه واقتباسه مما يدور حوله من نبات وحيوان وطير ، يتخذ من أشكالها قوارير وأوانى وأوعية تضم كحل العيون أو العطور أو المساحيق .

كان للمرأة المصرية القديمة ما للرجل من حقوق وعليها ما عليه من واجبات ، لم تكن مهصورة الجناح ، وكثيراً ما عمل الرجل على إدخال السرور على زوجه ، فقدم لها أطيب العطور ، وتفانى فى إسعادها فهذا بتاح حتب يقول لولده حينما يوصيه بالمرأة « والعطر خير دواء لجسدها » .

لم تخل مخلفات عصر التأسيس والدولة القديمة من تسجيل مناظر الزينة وأدواتها ، وما تكاد حياة الناس فى الأيام الأخيرة من الدولة القديمة تنطلق من

عقال الحشمة وتنغمس فى اللهو والترف ، حتى أخذوا يرفعون النقاب عن كل شيء ، فسجلوا ما استتر من حياتهم على جدران المقابر . وما أن جاءت الدولة الحديثة حتى تفنن الناس فى إخراج الكماليات الخاصة بالزينة من صناديق وقوارير وأوانى ومغارف ومراود وإبر ومرايا من خشب وعاج ونحاس وبرونز وذهب وفضة ومختلف أنواع الحجارة .

نشأت منذ مطلع التاريخ دور للصناعة كانت كعبتها (منف) ، وانتشرت تحت رعاية إلهها (بتاح) ، وعده المصريون رباً للفنون ، وقد ازدهرت فيها على الأخص— صناعة الصائغين والأدوات الدقيقة منذ أيام الدولة الحديثة .

لم يقصد الفنان فى مصر القديمة أن يودع فنه الجميل هذاالخزائن ، بل أراد أن يمتع نفسه به ،فما صور الناس وتماثيلهم إلا أدلةواضحة على أنهم كانوا يظهرون فى أكمل زينة رجلا كان أم إمرأة ، فقد تساوى الإثنان فى التزين بالعقود والأقراط والأساور والخواتم ، وفى كحل العيون واستخدام بعض العطور وأدوات التجميل .

بلغت صناعة أدوات الزينة وغيرها من التحف الأخرىأقصىماكان ينتظر لها من كمال أيام الدولة الحديثة ، فتعددت أشكالها فتارة نجدها قد حاكت بعض أنواع من الزهر ، وتارة بعص أنواع من الحيوان ، وتارة بعض أنواع من الطير .

سنرى من هذا العرض الخاطف. كيف بذل أبناء مصر الفرعونية من جهد وصبر رغم قلة ما أتيح لهم من وسائل القطع والنحت . ولا أحب أن أختم هذا التقديم قبل أن أقرر هنا أن شعبنا حقا شعب ممتاز .

مواد التجميل والعطور : (١) :

عرف الناس فى مصر منذ فجر التاريخ مواد التجميل من كحل وخضابات أو مساحيق أو زيوت معطرة . كل ذلك إدخرته لنا الأيام ليكون دليلا على اهتمام المصريين بحياتهم الخاصة .

---

(1) A. Lucas, Ancient Egyptian Materials and Industries, p. 99—118.

١ — الكحل:

أكثر أنواع الكحل انتشاراً (الملخيت Malachite) ، وهو خام أخضر من خامات النحاس ، وكذلك (الجالينا Galina) ، وهو خام أشهب قاتم من خامات الرصاص . وأولها كان الأقدم إذ عثر عليه منذ العصر (التاسى) ، إلا أن ثانيهما حل محله فى آخر الأمر وأصبح هو مادة الكحل الرئيسية فى الوادى كله .

وجد كلاهما فيما خلفه الناس فى مصر القديمة فى المقابر على أشكال مختلفة ، فقد عثر على قطع صغيرة من المادة الخام ، وكذلك على بقايامنهما على الأحجار أو اللوحات التى كان يسحق عليها .

وكثيراً ما كان يوضع (الملخيت والجالينا) خاما فى أكياس صغيرة من الكتان أو الجلد ، كما وجدا فى أصداف أو فى أوانى صغيرة ذات أشكال مختلفة . وكثيراً ما وجد الكحل على شكل كتل اتخذت أشكال الأوانى التى حفظت بها ، بل أحياناً ظهرت عليها بعض العلامات التى كانت بداخل هذه الأوعية . كل ذلك دليل على أن هذه المركبات كانت أصلا عجائن ثم جفت. على أننا لم نعرف حتى الآن المادة التى كان يمزج بها المسحوق الناعم لتكوين العجينة ، ومن المحتمل أنهم استخدموا الماء أو الصمغ أو هما معاً ، ومن الجائز أيضاً أنهم إستعملوا مادة دهنية فى تثبيت الكحل على الحواجب وحول العين .

وذكر بعض مؤرخى الرومان أن الكحل المصرى كان فى أيامهم مركباً من أسود الدخان (السناج) ، وذلك بإحراق نوع رخيص من الكتان أو قشر اللوز . ولا زال الكحل المصرى فى وقتنا هذا يصنع من (السناج) المنبعث من الزيوت المحروقة أو بعض أنواع من الأخشاب . أما عن طريقة استخدامه فمن المحتمل أن الكحل أولا كان يوضع حول العين بالإصبع ، ثم بواسطة عود صغير من الخشب أو العظم أو العاج أو المعدن ، يوضع طرفه فى مادة دهنية ثم يغمس فى المسحوق .

أحضر المصريون (الملخيت) من صحراء سيناء والصحراء الشرقية ، أما (الجالينا) فعثر عليه بالقرب من أسوان وعلى ساحل البحر الأحمر . كما أنهم

استوردوا كحل العين أيام الأسرة الثانية عشرة من آسيا(١) ، وأثبتت النصوص الهيروغليفية أنهم حصلوا عليه أيام الأسرة الثامنة عشرة من بلاد ما بين النهرين(٢) ، وكذلك من بلاد (بنت(٣) = الصومال ؟)

٢ — طلاءات الوجه :

ظهرت المرأة المصرية فى العصور القديمة كحيلة العين ، كما زينت وجنتها بمساحيق حمراء اللون . كذلك كانت تطلى الشفاه بمسحوق أو عجينة حمراء وكانت توضع هذه المادة على الشفاه إما بالإصبع أو بنوع من الفرجون الصغير. أما عن المادة التى كانت تستعمل فى هذا الشأن فهى أكسيد الحديد الأحمر وكان يوجد فى الطبيعة وهى المغرة الحمراء . ووجدت منها آثار على بعض اللوحات التى كانت تستخدم لسحن المساحيق الخاصة بالزينة .

كذلك عثر على مسحوق أبيض فى إناء صغير عام ١٩٤٥ (بتانيس) بالوجه البحرى وبعد أن حلل كيماويا عام ١٩٥٠ ثبت أنه من الحجر الجيرى خلط بمادة دهنية لتبقى فترة طويلة على الوجه . أما عن الإناء الذى عثر عليه فقد كان من الذهب لأحـــد القواد من الأسرة الحادية والعشرين واسمه (أون دباندز) . عثر عليه فى حفائر (دير المدينة(٤)) بالضفه الغربية للأقصر على أوانى زرقاء على هيئة صحـاف . وكانت تستعمل ضمن أدوات التجميل . ووجد على جزء من هذه الأوانى مواد صلبة . وقد أذيبت هذه المواد فخرجت رائحة قوية قريبة الشبه برائحة الجبن ، وصار الماء لبنيا .

وإذا ثبت ذلك، كان اللبن ضمن المواد التى إستخدمها المصريون القدماء فى التجميل ، بعد إضافة عقاقير أخرى ليصبح صالحاً للاستعمال الخاص بترطيب البشرة . وأن ما تستعمله السيدات فى عصرنا الحديث من كريم سائل . أو على هيئة عجائن لبنيه يضاف إليه اللبن ، قريب الشبه بما عثر عليه عند المصريين القدماء .

---

(1) J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt I, p. 281,

(2) J. H. Breasted, Ibid., II ,501.

(3) J. H. Breasted, Ibid., II, 265,272.

(4) B. Bruyére, Rapport sur Les Fouilles de Deir el Modineh (1934—1935) Deuxième Partie (Le Caire 1937) p. 84ph. 42.

٣ — العطور :

تتألف العطور فى مصر القديمة من مركبات الزيت والشحوم ، ومن الطبيعى فى جو حار كمصر أن توضع الزيوت والشحوم على الجلد والشعر ، وتلك عادة لازالت شائعة فى أيامنا هذه عند أهل النوبة وفى السودان وفى جهات أخرى من أفريقية .

والروائح العطرية السائلة الحديثة ، عبارة عن محاليل كحولية لخلاصات عطرية تستخرج من زهور النباتات أو ثمارها أو لحائها أو أوراقها أو بذورها ولا يمكن أن تكون أمثال هذه العطور قد عرفها المصريون القدماء ، لأن استخراجها يستوجب الحصول على الكحول الذى يذيبها ، وهذا لا بد له من عملية أساسية وهى التقطير . وقد أشار الكيمائيون الذين قاموا بدراسة تحاليل المركبات أن عملية التقطير الخاص بالكحول لم يكشف عنها إلا فى العصور المتأخرة .

وإذا ما تركنا الكحول جانبا وجدنا أن الزيت أو الدهن يصلح كل منهما فى استخلاص الروائح العطرية من الزهور ، وذلك بأن توضع بتلات الأزهار بين شرائح من الدهن الجامد أو تنقع فى الزيت ، وبعد عصر هذه البتلات بالوسائل التى سنعرض لها فيما بعد ، نحصل على الزيت المعطر أو الدهن المعطر .

وقد مارس أهل اليونان(١) فى القرن الثالث قبل الميلاد طريقة مماثلة ، فكانوا يستخدمون الزيت المصرى أو السورى ، فتنقع النباتات أو منتجاتها من زهور أو حبوب أو أوراق فى الزيت ثم تعصر ، وفى بعض الأحيان تغلى فى الزيت . وأشار مؤرخو اليونان والرومان بطيب رائحة العطور المصرية ، وأن بعضاً منها كان يحضر من عدة مواد ، وأن عطاراً من العطارين ظل يحوز عطوراً مصرية فى متجره ثمان سنوات ولم يصبها التلف طوال هذه الفترة . وذكر بعضهم أن مصر كانت تنتج أفخر أنواع العطور وأجودها(٢) .

---

(1) Theophrastus, Concerning Odours, VI : 28,30,31,

(2) Pliny, XIII : 2,6.

ومن أهم أنواع الزيوت التى كانت تستخدم فى مركبات العطور فى مصر القديمة : زيت اللوتس ، زيت اللوز المر metopiun ،وزيت الزيتون الفج Omphacium ، وحب الهال (الحبهان) وغيرها من الزيوت .

ومن الجائز أن أوراق الحناء كانت تستعمل فى مصر القديمة، كما يستخدمها بعض الناس فى أيامنا الحديثة على شكل عجائن لصبغ راحات الأيدى و بواطن الأقدام والأظافر والشعر . ومن المحقق أن الرومان قد استعملوا الحناء ، وقد عثر على أغصان الحناء فى الجبانة البطلمية بمنطقة (هواره) بالفيوم .

وليس هناك دليل قاطع على أن المصريين القدماء استخـــدموا العطور الحيوانية مثل العنبر والمسك، ولم تستخرج العطور فى مصر الفرعونية إلا من منتجات النبات من الراتنجات والأصباغ الراتنجية .

٤ — البخور :

استخدم المصريون القدماء البخور ، وقـد عثر على بعض مواقد للبخور أو رسوم لها . ولـكن لا نستطيع أن نتحقق عن أقدم تاريخ لاستخـدام البخور وغالباً ما يكون منذ أيام عصر التأسيس . وقد كشف عن مباخر من الدولة القديمة(١) . وقد عثر على بخور بقبر توت عنخ آمون ،(٢) وأشعل بعضه فانبعثت منه رائحة لطيفة . وأهم مواد البخور الكندر (اللبان الدكر) والمر .

الكندر (اللبان الدكر :)(Frankincense (Olibanum

هو عبارة عن راتنج صمغى على هيئة إفرازات من بعض الأشجار لها لون أسمر فاتح مائل إلى الاصفرار أو أحمر قاتم مائل إلى الصفرة ، وفى النادر ما يكون رمادى اللون أو أسود . والنوع الجيد من الكندر هو ذو اللون الأبيض والذى جاء ذكره فى برديه هاريس(٣) أما عن أهم الأشجار التى تنتج الكندر هى التى تنمو على الاخص فى بلاد الصومال والقسم الجنوبى من بلاد

(1) H. Frankfort, The Cemeteries of Abydos, J.E. A. XVI (1930), p. 217.

(2) Howard Carter, Tomb of Tut-ankh-Amen II, Appendix II p, 184.

(3) G. H. Breasted Op. Cit, IV, §§ 233,239,299,344,376.

العرب ، وهى شجرة صغيرة من صنف Boswellia ، وكذلك من شجرة تنمو فى شرقى السودان والحبشة تسمى Compmihora Peduneulata

ولما جاء البطالمة مصر أدخلوا زراعة شجرة الكندر التى تسمى Thus . ومن الجائز أن بعثه الملكة حتشبسوت التى ذهبت إلى بلاد (بنت) والتى رسمت على بعض حوائط معبدها بالدير البحرى سماها (نافيل) كندر(١) . وقد جاء بين الوثائق التى خلفها الرومان ذكر الضرائب التى كانت تفرض على الكندر الافريقى والعربى الذى يرد إلى البلاد(٢) .

المر :

يستخرج من أنواع مختلفة من الأشجار التى تنمو فى الصومال وجنوبى شبه الجزيرة العربية ، وهى التى تعرف باسم Balsamodendron Commiphora وكانت توجد على هيئة كتل حمراء مائلة إلى الإصفرار ، وجاء ذكره فى النصوص المصرية ابتداء من الأسرة الخامسة . ولم نتأكد حتى هذا التاريخ إن كان المصريون القدماء استخدموا (الجاوى) أو (الكافور) كبخور ، لأن هذه المواد تأتى من الشرق الأقصى الذى لم يكن يعرفه الفراعنة .

القنة :

راتنج صمغى له رائحة زكية ، وهو من نبات يطلق عليه Peucéanum وقد وردت إلى مصر أيام الأسرة الثامنة عشر من بلاد فارس ، ومن الراجح أنها هى البخور الأخضر الذى جاء ذكره فى النصوص الهيروغليفية(٣) إنما لم يعثر على نماذج من هذا النوع فى القبور المصرية .

اللادن :

هو راتنج حقيقى لاصمغى وهو عبارة عن كتل سمراء قاتمة مطاطة فى الغالب ، وهى تفرز من أوراق وأغصان الشجر المعروف تحت إسم Cistus

(1) E. Naville, The Temple of Deir el-Bahri, III, p. 12.

(2) H. Schoff, Notes to the Periplus of the Erythraean Sea p. 289.

(3) J. H. Breasted, op. cit., II, § 572.

الذى ينمو فى آسيا الصغرى و كريت وقبرص و بلاد اليونان وفلسطين و بعض مناطق البحر المتوسط .

بعض المواد الأخرى التى كانت تستخدم كبخور :

كان النطرون يستخدم كبخور ، إذ عثر فى قبر توت عنخ آمون على خليط من راتنج ونطرون ، وهناك احتمال إن هذا الخليط كان يستخدم كبخور . وقد عثر على الراتنج بكثرة فى قبور مصر القديمة من مختلف العصور وبعض أنواعه له رائحة والبعض بدون رائحة .

٥ — الأخشاب العطرية :

عثر فى قبر توت عنخ آمون على وعاء صغير من الفخار الأحمر يضم أجزاء من سيقان نباتات ، وكتب على الإناء (عطر) أو (مادة تستخدم فى التعطير). كما عثر على قطع صغيرة من الخشب زكية الرائحه من أيام الأسرة الحادية عشرة فى حفائر اللاهون ، إذ عثر على بعض قطع من خشب بين أدوات التجميل ، كانت تعطى رائحة زكية بعد سحنها والقائها فى الملابس .

كيفية استخراج العطور :

منظر (١) من أيام الدولة الوسطى ، وفيه ظهرت فتيات يقبضن على زهرات من لوتس ، بينما تقوم إثنتان منهن بعصر الأزهار بطريق البرم ، وذلك بوضعها داخل حقيبة من القماش المتين وفى طرفيها عصوان ، وقد أخذت كل من الفتاتين بالضغط على العصا لبرم الحقيبة المملوءة بزهور اللوتس ، فينساب الزيت العطرى من خلال القماش إلى قدر من القدور وضع على الأرض من أسفل الحقيبة . وهذه الطريقة شبيهة بطريقة عصر العنب لاستخراج النبيذ .

(شكل ١)(٢) يحتفظ متحف اللوفر بباريس بمنظر من العهد الصاوى ،

---

(1) F. Gaillaud, Recherches sur les Arts et Metiers (Les usages des anciens peuples de l'Egypte, de la Nubie et de L'Ethiopie (1831) pl. 15 a .

(2) G, Bènedite, La cueillette du Lis et La "Lirinon" dans Fondation Eugène Piot. T. xxv p. 1—28 pl. IV.

مثل فيه استخراج الزيت العطرى من زهور اللوتس . فإلى اليمين فتيات يقمن بجمع زهرات اللوتس من على سوقه ، وذلك بقطعه ووضعه فى سلال ، وأخرى تجمع بعض الزهر ، ورابعة تحمله فى سلة على رأسها ، ثم تقوم إثنتان من الفتيات بعصره بالطريقة سالفة الذكر وبرمه فى حقيبية من القماش المتين ، ثم استقبال السائل العطرى فى وعاء وضع على قاعدة أسفل الحقيبة . (وجدير بالذكر أن هذه الصورة فيها بعض التصرف إذ زيد الإطار الخارجى) .

(شكل ٢)(١) منظر على قبر من قبور طيبة من الدولة الحديثة يمثل صناعة الدهون الخاصة بالتخيل ، ويرى أربعة رجال يقومون بجرش أنواع مختلفة من النباتات العطرية ويسحنونها ، ورجل خامس يمزجها بدهن منصهر ، وبعد تبريدها يشكلها رجل سادس على شكل كرات ، ويقوم رجل سابع بترشيح سائل يؤخذ بطريق مصه بأنبوبة من إحدى الأوانى وذلك لمزجه بالمخلوط السابق . ويرى بعض الأوانى التى تضم بعض النباتات المستعملة أو الدهن العطرى المستحضر .

التجميل عند السيدات والرجال :

إهتم المصريون بنظافة أبدانهم ، فكانوا أكثر شعوب الشرق القريب فى تلك العصور السحيقة إهتماماً بنظافة الأجسام ، وكانت المرأة فى الشرق أكثر عناية بجمالها من المرأة الغربية فى تلك الأيام البعيدة ، بل إن الغرب تعلم وسائل النظافة من استخدام المساحيق والعطور والاستحمام وما إلى ذلك من الشرق ، ومن الشرق أخذ الغرب كل ما يتعلق بفن التجميل ، لكن انقلبت الآية الآن فأصبح الغرب فى هذا الميدان مدرسة للشرق .

أوجبت العقائد الدينية وطقوسها فى مصر الفرعونية استخدام الماء ، وظهر الناس فى رحاب الآلهة ودور العبادة بمظهر يليق وجلال صاحب الدار ، من أجل ذلك أخذوا زينتهم عند كل منزل من منازل الأرباب ، وفى الحفلات الدينية التى تكثر عند آل فرعون ، وكان لزاما على كبار الكهنة ورجال الدين

---

(1) Charles Singer, E. I, Holyard and A. R. Hall, A History of Technology. Volume I (Oxford 1954) fig. 190 p. 292.

أن يضعوا شعراً مستعاراً فى بعض المناسبات ، إلى غير ذلك مما يلزم المراسم الدينية . أما فى الحياة الخاصة فقد ظهر الرجال والنساء بمظهر حسن خصوصا فى الاحتفالات التى كانت تقام فى القصور ودور الأشراف ، فقد حفظت لنا الأيام الكثير من المناظر فيها يستقبل الضيفان من النسوة وهن فى أحسن زينة كذلك إعتنى الرجال بشعورهم فعرفوا قص شعر الرأس وحلاقة الذقن ونظافة البدن بوجه عام .

ومما يؤيد اهتمام الناس فى مصر القديمة بالنظافة ، أنه جاء فى بعض النصوص إشارات إلى كره المصريين للقذارة ، فهذا أحد الأدباء ينصح ولده بالآتى(١) :

« يقبح لولده فى تلك المهن التى يصطنعها الجهال من الناس ، فيصف له ما يصيب صانع النحاس من أذى النار ... ثم يقبح له صنعة النجار ... ثم ما يصيب البناء من تعب يضنيه حتى تكل ذراعاه وتتعب رجلاه من كثرة ما ما يعمل فى الحجارة والطين وأنه كثيراً ما يمرض من كثرة ما يناله من تعب ، يهمل جسده فلا يكاد يلتفت إلى تنظيفه ، ثم هو فوق ذلك قذر اللباس ... »

وجاء فى النصوص أيضاً أن المصريين كانوا يقومون بغسل أيديهم قبل الأكل وبعده ، وغسل الأيدى قبل الدخول إلى المنزل .

عرف التطهير الجنازى وكثر تمثيله على الآثار ، أما عن التطهير الدنيوى فلا نعرف من مناظره إلا القليل . فعلى إحدى جدران قبر الشريف (بتاح حتب) (٢) من الدولة القديمة بسقاره مثل الشريف جالسا على كرسيه وقد قام أحد الخدم على غسل وجهه (شكل ٣) ، بينما وقف الآخر يحمل منشفتان فى يديه ، وثالث بيده قطعه من حجر لتهذيب الأظافر ، والرابع يقوم على تنظيف قدميه وساقيه أو تدليكهما ، وإلى الخلف من الأمير وقف أحد الخدم يقوم بتجهيز الأدوات ، وإلى خلف الكرسى خادم بيده اليسرى قرد و كلاب من أجل تسلية الأمير أثناء عملية التطهير .

---

(١) الدكتور أحمد بدوى : فى موكب الشمس الجزء الثانى ص ١٦١ (القاهرة ١٩٥٠)

(2) R, E. Paget and A. Pirie, The tomb of Ptah-hotep. London 1898 pl.XXXV; J. Vandier, Manuel d'Archéologie Egyptienne, (Paris 1964), p. 171 et p. 172, Fig. G1.

أما مناظر التنظيف بالماء الخاص بالسيدات ، فقد مثلت إحدى السيدات من الدولة الحديثة(١) (شكل ٤) جاثية على ركبتيها عارية ، وأمامها خادمتان إحداهما تصب عليها الماء من إناء ، وإلى يمينها سيدة أخرى تقرب منها زهرة لتشم عبيرها ، وإلى اليسار البعيد إحدى الخادمات تحمل فى يسراها حقيبة ، أكبر الظن أنها كانت تضم ملابس خاصة بالأميرة .

قص شعر الرأس عند الرجال :

إهتم الرجال بقص شعر الرأس ، فعلى حائط أحد قبور بنى حسن(٢) مثل رجلان (شكل ٥) جاثيان أحدهما وهو الجالس إلى اليمين يقبض على ساق الحلاق الذى يضع يده على رأس الرجل الجاثى ، وبيسراه شفرة كانت تستخدم فى الحلاقة . أما الرجل الآخر فهو جاث أيضا مثل زميله وقد وقف الحلاق أمامه واضعاً يسراه على رأسه ويقوم بحلاقة الشعر بالشفرة التى فى يده .

كذلك إستخدم الرجال الشعر المستعار . أما عن اللحى ، فمن النادر أن نجد المصريين القدماء ملتحين ، بينما أعفى الاسيويون الأقدمون لحاهم . كذلك من النادر ان يرى المصريون بالشوارب مثل تمثال رع حتب بالمتحف المصرى .

اهتمام النساء فى مصر القديمة بالعناية بالبشرة:

إن جمال وجه المرأة فى ثلاثة أشياء ، فى العينين ولون البشرة والشعر . ومركز الفتنة فى وجه كل إمرأة يتركز فى عينيها الجميلتين ، ونضرة البشرة تمنح الوجه ضياءا وفتنة للأنظار ، كذلك للشفتين وتحديدها وتلوينهما فتنة وجاذبية . وكثيرا ما صورت السيدات فى مصر الفرعونية يقبضن على مرآة ، أو يأخذن بشىء من عطور الزينة من إحدى الخادمات . أما عن تزجيج الحواجب ورسمها وكذلك تهيئة الرموش بالكحل ، فان صور وتماثيل السيدات والرجال أيضاً خير دليل على إهتمام الناس فى مصر القديمة بتلك الناحية . وكذلك الأظافر وتنظيفها وتهذيبها ، فقد عثر على آلات

---

(1) J. G. Wilkinson, Manners and Gustoms of the Ancient Egyptions (London 1887) vol. IIl p. 389.

(2) Dr. Abd el Hamid Zayed, The Antiquties of El Minia, Fig.30

فسر الأستاذ فانديه فى كتابه عن المناظر والنقوش فى الحياة اليومية(١٩٦٤) والسابق الإشارة إليه ص ١٧٩ أن جزءاً من هذا المنظر يمثل عملية تهذيب أظافر القدمين (Le pédieure)

خاصة بكل هذه العمليات ، حتى الشفرات استخدمتها السيدات فى إزالة شعر الجسم ، فقد عثر فى قبر الملكة (حتب حرس) على شفرات ، مما يؤيد أن السيدات كن ينظفن أجسادهن بتلك الشفرات. أما شعر الرأس فقد وجدت الموميات الخاصة بالسيدات بشعورهن الطبيعى مسترسله ، وأحيانا بها لفات boucles أو مجدولة بجدائل بسيطه أو طويله رقيقة الشكل .

ويحتفظ المتحف البريطانى(١) بلندن (شكل ٦) على منظر لم نرشبيها له بين الآثار المصرية القديمة ، وهو يمثل إحدى السيدات ، تقبض بيسراها على مرآة ، وبيمينها قطعة من القماش لا بد أنها كانت تربت بها وجهها حتى يبقى (المكياج) فترة من الزمن ، كما تفعل سيداتنا الآن باستخدام ناثرة الزرور أى (البدارات) ولم يكن (المكياج) عند المرأة المصرية فى عهد الفراعنة سميكا ثقيلا ، بل كان عبارة عن طبقة رقيقة شفافه يظهر من تحتها لون الجلد الطبيعى ، كما هو واضح فى تمثال (نفرت) من الدولة القديمة والمحفوظ بالمتحف المصرى ، وغيرها من مناظر السيدات على صفحات قبور الأشراف فى مختلف العصور .

كذلك لونت الوجنات والشفاه بطلاء أحمر كما هو متبع الآن ، وقد عرفت المصرية فى عهودها البعيدة هذه تحديد الشفتين بواسطة الفرجون (فرشة صغيرة) ، وهى التى تعتبر الآن من أحدث المبتكرات فى فن تجميل الشفتين . وعلى برديه من البرديات المحفوظة بمتحف تورينو(٢)(شكل ٧) صورت إمرأة ووعاء أكبر الظن أنه وعاء العطور ، وبيمناها فرجون غمستها فى إناء ثم بدأت تحدد به شفتيها .

تصفيف الشعر عند السيدات:

فطنت المصرية منذ أيام الدولة القديمة أن الشعر بالنسبة للمرأة هو التاج الذى يضفى على منظرها العام الأبهة والبهاء ، وأنه لآيه الحيوية والشباب، من من أجل ذلك ظهرت المرأة فى مصر القديمة بتصفيقات للشعر جميله حتى أن

---

(1) E. S. Edward, A toilet scene on a funerary stela of the Middle Kingdom, dans J.E.A. vol. XXIII (1937) pl. xx p.165

(2) James. B. Pritchard, The Ancient Near East in pictures (U.S.A.) 1958 fig 14.

النساء فى هذا العصر من أهل الشرق والغرب تسابقن فى تقليدها ، وإعتبرن عملهن هذا ضمن المبتكرات الحديثة فى فن تصفيف الشعر ، والحقيقة غير ذلك فالآثار المصرية حافلة بكثير من تماثيل وصور لنساء وادى النيل بشعورهن الجميلة ،تنساب طورا على الظهر فى إرسترسال بديع ، وأحيانا ترتفع بخصلات الشعر من الخلف إلى أعلا ، وأحيانا يجتمع الشعر بخصلات فى الوسط ، وأحيانا أخرى تظهر على الجبهة بعض الخصلات أو مايسمونه (قصة) ، ويربط الشعر فى بعض الأحايين بعصابة . وقد لاءمت المصرية بين كل تصفيفة من هذه التصفيفات وتكوين الوجه . ظهر كل ذلك فى الشعر الطبيعى والصناعى الذى كان تستخدمه النساء فى عصر الفراعنة .(أشكال ٨، ٩، ١٠).

كيف كان يتم تصفيف الشعر عند السيدات :

لم تدخر لنا الأيام من مناظر المراحل التى كانت تتخذ فى عمليات تصفيف الشعر إلا إبتداء من الأسرة العاشرة أو الحادية عشرة .

وأقدم صورة تبين إحدى الخادمات تقوم بتصفيف الشعر ، هو منظر على تابوت من الأسرة العاشرة أو الحادية عشرة محفوظ بمتحف برلين(١). تظهر فيه صاحبة التابوت ، وخلفها من تقوم بتصفيف شعرها .

بالمتحف المصرى لوح مؤرخ من الأسرة الحادية عشرة ، مثلت فيه أمرأة خلف زوجها تحضنه ، ومن خلفها خادمتها تصفف لها شعرها .

بالمتحف المصرى منظر على تابوت الأمـير (كاويت) ، وقد مثلت فيه الأميرة تجلس على كرسى وفى يدها مرآة ، ومن خلفها مصففة الشعر تقبض على لفة (boucle) من اللفات بين أصابعها ، وأعلى ذلك دبوس به ثلاث لفات ، وأمام الأميرة جارية أخرى تقدم لها إناءاً به سائل ، وقد كتب ما يأتى (إلى روحك ياسيدتى ، ليتك تشربى ما أقدمه لك) وأغلب الظن ان السائل لبن ، إذ مثل على التابوت أحد الخدم يقوم بحلب البقرة .

---

(1) Gauthier-Laurent, Les scenes de coiffure Feminine dans L'Aneienne Egypte, dans Melange Maspero, Second Fasicule p. 673—696.

مثلت السيدة المسماه (كمست)(١) ، ومن خلفها خادمتان وقد صورت (كمست) هنا تمد يدها اليمنى إلى المائدة الموضوعة أمامها ، وبيسراها زهرة قربتها من أنفها لتشم عبيقها ، ولم يظهر بشعرها أى تفاصيل . أما عن مصففة الشعر التى مثلت خلفها فقد رفعت ذراعيها وبيدها خصلة كبيرة من الشعر . ومن خلف الجارية مصففة أخرى بيمينها إناء وبيسارها جناح طائر كان يستخدم كمروحة ، وذلك شبيه بما نلاحظه فى الأمكنة الخاصة بتصفيف الشعر .

بالمتحف المصرى مجموعة صغيرة من التماثيل تمثل سيدة وقد وضعت طفلها على فخذها ، ويديها على رأس الطفلة ، والملاحظ أنها مدت سبابة اليدين وأثبتت بقية الأصابع ، ويستدل من الحركات الخاصة بأصابع اليدين أن تلك الأم كانت تقوم بتصفيف شعر إبنتها ، وليس كما ذكر ماسبق ذكر من أن إمرأة كانت تقوم (بتفلية إبنتها) . إذ ليس من المعقول أن الفنان المصرى صاحب الذوق السليم كان يصور الناس من بنى وطنه على هذه الصورة ، حتى فى أيام إنطلاق الحريات لم يجرؤ فنانو إخناتون أن يصوروا الناس على هذه الهيئة التى لا يقبلها الذوق الراقى ، والمصريون كانوا يحسون بالجمال ويختارون المناظر التى تعبر عن رقة الشعور .

ويحتفظ متحف (المترو بوليتان(٢)) بمجموعة قريبة الشبه بالمجموعة المحفوظة بالمتحف المصرى ، وهى تمثل إحدى الخادمات تقوم بتصفيف شعر أم ترضع طفلها .

هناك منظر(٣) (شكل ١١) من عهد (تحتمس الثالث) أو (أمنوفيس الثانى) ، وجد على حائط قبر من قبور الأشراف بطيبة . وهذا المنظر كان داخل حجرة النوم ، وهنا تجلس السيدة على مقعد وقد ألقت رأسها إلى الخلف وهى تنظر فى مرآة تراقب عمل مصففة الشعر ، كذلك ظهرت وهى تتكىء على يدها اليمنى ، ومن الرسم يتضح أن المصففة كانت تستعمل مشطاً ، ذلك لأن الخطوط الرأسية الظاهرة تحت اليد اليمنى للمصففة تدل على ذلك

---

(1) Gauther-Laurent, op. cit., p. 677—678 Fig. 4.

(2) Hayes, The Scepter of Egypt (New York 1953) Part I p. 222 Fig 138.

(3) Gauthier-Laurent, op. cit, p. 682 Fig 2.

وهذا هو المثل الوحيد الذى أعرفه حتى آخر المكتشفات الحديثة الذى تظهر فيه المصففة وهى تعمل بالمشط .

هناك منظر مؤرخ من عهد إخناتون(١) ، تظهر فيه سيدتان جالستا فى بهو من الأبهاء، رفع على دعامة، قمتها على هيئة زهرة البردى ، وسيدة منهما تصفف للاخرى شعرها . وفى الناحية الأخرى من البهو تجلس سيدة أمام مائدة .

كما توجد مناظر تمثل تصفيف الشعر رسمت على البردى، فبالمتحف المصرى بردية رقم J.E. ٣١١٦٩، عليها منظر ظريف ، إذلم يمثل هذه المرة أشخاص حقيقيون وإنما أشكال حيوانية ، فالسيدة الأولى مثلت على هيئة فأره ، وقد صورت الخادمتان على هيئة قطتين ، الأولى تجلس على مقعد وتقرب من فم الفأرة كأساً ، وتقبض الفأرة على شيء أكبر الظن أنه مرآة ، وتقف القطة الأخرى وهى تمثل هنا مصففة الشعر خلف الفأرة ، وبين أذنيها دبوس طويل غالباً ما كان يستخدم فى تلك العملية .

بعد الذى قدمنا من مناظر لتصفيف الشعر ، وجد بعضها مصوراً على توابيت أو على قبور الموتى ، وبعضها على هيئة تماثيل صغيرة ، إلى غير ذلك مما لا يفسح المجال لذكره ، نستطيع أن نقول أن المرأة المصرية غالباً أنها كانت تصفف شعرها بنفسها ، وإنما كان يقوم على تصفيفه غيرها من خدمها أو إحدى وصيفاتها ، أو أن الأم كانت تقوم بتصفيف شعر إبنتها ، كما نلاحظ من هذه المناظر وغيرها مما لم يذكر. أن المرأة المصرية كانت كثيراً ما تترك شعرها ينساب فوق الظهر وعلى كتفيها ، كما كانت تقسمه إلى قسمين أو ثلاثة بخصلات ، أو تضفره على هيئة جدائل صغيرة تغطى الظهر والكتفين وأحياناً كانت تضيف إلى الشعر جدائل صناعية .

وقد عرفت مصففات الشعر تحت إسم(نشت) . فعلى لوحة محفوظة بالمتحف البريطانى صورة لثلاث خادمات يحملن صناديق خاصة بالشعر المستعار وبأيديهن حقائب وأمام الأولى لقبها (نشت)إنما لم يكن من المألوف عند المصريين القدماء

---

(١) Gauthier-Laurent, op. Cit., 683 Fig. 8

أن يكون هناك مصفف للشعر يقوم بتصفيفه للسيدات كما هو ملاحظ حالياً ، بل كانت هذه العملية خاصة بالسيدات يقمن به لبني جنسهن ، بينما يقوم الحلاق على عملية قص الشعر للرجال فقط . ومن بين ألقاب الأمراء في الدولة القديمة نجد مثلا (نى) وهو من كبار موظفي الحكومة في أيام الدولة القديمة ، في نهاية الأسرة الخامسة كان يلقب بمدير مصففي الشعر الملكي ، وكذلك كان يلقب أيضاً (رع ور) وهو من كبار موظفي الدولة في الدولة القديمة . وعثر على نقش بمعبد (نى أو سررع) يلقب فيه رجلين بمصففي الشعر الملكي .

وبمتحف (بروكلين) بالولايات المتحدة قطعة من الحجر (١) ، كانت أصلا ملونة باللون الأزرق تمثل مصففة الشعر « إيو أو إنتوى » وذلك بجدله . ويبدو لي أن هذه المصففة ربما كانت هي التي تقوم بتصفيف شعر الأميرة (كاويت) (انظر ص١٧) لأنه هناك شبه كبير بين الصورتين .

كذلك بمتحف بروكلين (٢) أثر آخر عليه تذبت نيها مصففة الشعر حنوت لسيدته التي لقبت « بالزوجة الملكية » شعرها وهي السيدة نفرو .

وقد ناقش Elizabeth Riefstall في مقاله هذا النطق الخاص لمصفف أو مصففة الشعر « إرت irt أو نشت » وقد ناقش المؤلف تأريخ الأثرين ، فوضعهما من أيام الأسرة الحادية عشرة .

وبالمتحف المذكور أيضاً أثر عليه نقش لغانيتين على رأسيهما شعر مستعار بأهداب بها خيط وضع فيه خرز ثبت في منتصف الرأس (من الجائز أنها كانت من الفضة) . وبمتحف المتروبوليتان ثلاث غانيات يضعن فوق رؤوسهن زينة تشبه ما وضعته هاتين الغانيتين (٣) .

---

(١) Brooklyn Museum Bulletin, XIII, 4 (1952),7—16.

(٢) Journal of Near Eastern Studies Volume XV (1956), 10—17 pl. IX; J. Vandier, Manuel d'Archéologie Egyptienne Tone IV p. 174 Fig 63 (Paris 1964).

(٣) Winlock, Erxcavotion at Deir el Bahri, p. 224, pl. 32.

ويمكن إضـــافة منظر آخر لتصفيف الشعر نشره(١) g. Vandier
وكذلك نشر E. A. Eisa بحث عن الشـعر المستعار(٢) ، وآخر نشره L. Keimer (٣) .

كيفية تصفيف الشعر والطريقة التي كانت تتبع :

من محاسن الصدف أننا وجدنا هذه العملية ممثلة على تابوت الأميرة (كاويت) المحفوظ بالمتحف ، وأكبر الظن أن الأمـيرة كانت تضع شعراً مستعاراً ، وكان من النوع القصير المسمى à la garçonn ، وقد مثل هذا بتسعة صفوف ، وظهرت مصففة الشعر وبيدها (لفه boucle) ، واستخدمت السبابة والإبهام وأخذت في رفع ثلاث لفـات boucles من الصفوف العليا للشعر المستعار (أنظر شكل ١٢) بواسطة دبوس وضع في الشعر المستعار ، وذلك لتضمن عملية تصفيف (اللفات) بشكل منظم ، ثم أخذت في تصفيف اللفات بحيث تغطى أنصاف اللفات السابقة الصف الذى انتهت العمل فيه . ويتوقف إتمام العملية والمدة التي تستغرقها على نوع اللفات ، فقد عرفت المصرية اللفات العادية وكانت أطرافها متوسطه وحلزونية ، ولفات ثابتة عبارة عن خصلات من الشعر مربوطة وملفوفة بلفة حلزونيه ، كذلك الجدائل الصغيرة . وصورت السيدات بالجدائل مسترسلة على الظهور والـكتفين وبها خطوط مائلة ، وهذه هي الطريقة التي صور بها المصريون الجدائل .

هذا وقد عثر على شعر مستعار وجد في قبور كثير من قدماء المصريين ، ومحفوظ بعضه بالمتحف المصرى أما صباغة الشعر المستعار أو الطبيعي ، فلوحظ

---

(١) J. Vandier. Moalla (1940) p. 288, pl. XLIII ("IFAOC", "Bibliothéque d'Etude." 1 XVIII)
وقد نشر أيضاً هذا المنظر في كتاب فانديه الأخير عن المناظر في الحياة اليومية والذى أشرنا إليه من قبل .

(٢) ASAE, XLVIII, 9—18.

(٣) BIE, XXXIV, (1953), 329—449.

فى بعض رسوم المقابر والتوابيت على شعر مستعار لون بلون وردى ، كما هو واضح على قبر الأميرة (مرس عنخ) من الأسرة الرابعة ، فقد لون الشعر المستعار لأمها (حتب حرس الثانية) بلون وردى . كذلك لون شعر الأميرة عاشيت على تابوتها بالمتحف المصرى (من الدولة الوسطى) بلون مائل إلى الإخضرار ، مما يدل على أن المصريات عرفن صباغة الشعر بهذه الألوان التى تعد حالياً من المبتكرات الحديثة فى التجميل .

الأدوات اللازمة للنظافة اليومية والتجميل

١ — أوعية صغيرة : كان يستعمل هذا الوعاء الصغير للاغتسال ، وكان يوضع به ماء بارد أو ساخن ، وهو عبارة عن إناء مسطح القاعدة له جوانب مرتفعة قليلا . وقد صنع من مختلف أنواع الحجارة والمعادن(١)

٢ — إناء للماء : وكانت عبارة عن أوانى بيضية الشكل، تصنع من الفخار والحجارة والمعدن، وهذا النوع من القدور عريق فى القدم ، فعثر عليه من عصر (التأسيس) ، ووجدت أباريق كانت توضع على موائد صنعت من حجر أو معدن ، ثم إستطالت رقبة الأباريق أيام الدولة الحديثة وأصبح لها أيدى

٣ — المناشف : صنعت من خيوط الكتان ، ووجدت مصورة على جدران التوابيت وعلى صفحات القبور، وكثيراً ما وجدت ممثلة إلى جوانب أوانى العطور، وبالمتحف المصرى توابيت كثيرة مثلت على صفحاتها هذه المناشف . ومن المحتمل أنها كانت تستخدم لتدليك الجسم قبل أو بعد الدهون العطرية وذلك إلى جانب إستعمالها فى تجفيف الوجه أو اليدين أو الجسم بعد الاغتسال بالماء، وفى بعض الأحايين وجدت مصورة بجانب الملابس . ومثلث هذه المناشف على هيئة أشرطة من القماش (أنظر ص ١٤ شكل ٣)(٢) . وفى أيام الدولة الحديثة صور الخدم يقدمون لأسيادهم المياه لغسل الوجه أو الفم ، وعلى أيديهم منشفة بيضاء تنتهى من إحدى طرفها بأهداب ، وأحياناً من غير أهداب ، كما عثر

---

1) M. Gustave Jequier, les Frises d'objets des Sarcophages du Moyem Empire p. 116—120.

2) Gustave Jequier, ibid p. 124, Fig. 330.

فوق بعض الموميات على مناشف بيضاء وحمراء ، ولوحظ فى بعض صور التوابيت منشفة لها أكمام وسيقان وتنتهى جميعها بأهداب ، وهذه المنشفة شبيهة بما نسميه (البورنس) .

٤ — المحك : عثر على رسوم لحجارة إسفنجية مصورة إلى جانب (الشفرات) وفى المنظر الخاص بتنظيف الشريف (بتاح حتب) (انظر شكل ٣) ، نرى أحد الخدم يقبض على قطعة مستطيلة الشكل أكبر الظن أنها كانت تستخدم فى تهذيب الأظافر أو حكها ، وهى من ضمن أدوات التظريف (أدوات المانيكر)

٥ — الشفرات : عثر على شفرات فى قبور السيدات والرجال ، فعلى قبر (حسى رع) بسقارة من الأسرة الثالثة رسم لصندوق صغير به ثمان شفرات متشابهة وأياديها من خشب الابنوس . كما عثر فى قبر الملكة (حتب حرس)(١) أم الملك خوفو على شفرات من ذهب ونحاس وظران ، مما يدل على أن النساء كن يستعملن الشفرات لإزالة الشعر . كذلك كان لهذه الشفرات حقائب ، وجدت مرسومة على جدران بعض التوابيت (شكل ١٣) وكانت تصنع غالباً من الجلد ، وكان يوضع فيها ثلاث أو أربع شفرات . وتطور شكل الشفرات أيام الدولة الحديثة ، فزودت بأيدى منحنية على هيئة قرن بالمتحف المصرى رقم J. E. ٦٣٦٨٦ ، كما وجدت بعض رسوم تمثل أدوات كانت تستخدم فى سن هذه الشفرات ، أو ما يسمونه فى لغة الصناعة (مسن) ، وكانت تصنع من حجارة شديدة الصلابة ، ومما يؤيد معرفة المصريين لهذه الأداة أن اسمها وجد مكتوباً باللغة المصرية القديمة بجوار الرسم(٢) .

٦ — الأمشاط : عرف الناس فى مصر القديمة منذ عصر ما قبل الأسرات الأمشاط إلا أننا لم نعثر على مناظر تمشيط الشعر بواسطة المشط حتى الآن إلا على مثل واحد سبق أن قمنا بوصفه (انظر ص ١٨ ، ص ١٩ شكل ١١) وقد صنعت الأمشاط من أنواع مختلفة من الخشب (ابنوس وسنط وغيره) ، كذلك من العاج والعظام

---

1) Bulletin of the Museum of Fine Arts, Boston, supplement to vol XXV.

2) Gustave Jequier, Les Frises d'Objets des Sarcophages du Moyen Empire p. 136. Figs 366 à 370.

كما وجدت أمشاط مسننة من ناحية واحدة وأخرى من ناحيتين ، كما كانت هناك أمشاط لتجميل الشعر .

٧ — دبابيس شعر الرأس :

عثر ببعض المقابر منذ عصر ما قبل الأسرات على دبابيس خاصة بشعر الرأس من مختلف أنواع المواد ، حجارة وعظم وعاج وأخشاب ومعادن . وبالمتحف المصرى ستة دبابيس خصصت لها قطعة من الخشب نحتت على هيئة سلحفاه ، يظهر على ظهرها ثقوب توضع بها الدبابيس ، خمسة منها تعلوها رؤوس كلاب آذانها مرسلة إلى أسفل أما السادس فأذناه مرتفعان (شكل ١٣) .

لم يعرف المصريون القدماء (الفرشة) الخاصة بالشعر ، لكن غالبا ما استعيض عنها بهذه الدبابيس التى كانت تستخدم فى حك الجلد دون أن تفك الجدائل ، وذلك دليل على أن الناس فى مصر القديمة فطنوا إلى أن تدليك جذور شعر الرأس يتيح له مزيداً من الحيوية والقوة .

٨ — المرايا :

على مرايا كثيرة من ذهب وفضة ونحاس ، وكانت أياديها أحياناً من خشب أو معادن أخرى مطعمة بالذهب أو بحجارة أخرى نصف كريمة مثل العقيق أو عجينة الزجاج . كذلك وجدت المرايا مصورة على التوابيت وصفحات القبور بجانب أوانى العطور ، ولم تكن المرايا قاصرة على النساء فقط بدليل وجودها مصورة على بعض المقاعد الخاصة بالرجال . أما عن أشكال صفحات المرايا ، فبعضها دائرى مفرطح والبعض كامل الدائرة صفحاتها لامعة ، فقد كان لونها أصفر أو مائل إلى الاحمرار أو وردى اللون أو أحمر داكن . كما عثر على مرايا جنازية صنعت من الخشب الملون بألوان مختلفة وأحياناً رسمت على بعضها عين ، وهذا كان على سبيل التمثيل الرمزى للرؤية . كذلك كانت توضع المرايا داخل حقائب من جلد أو قماش مطرز . وقد عثر على بعض أوعية للمرايا من الخشب مطعم بحجارة نصف كريمة ، وتضم مجموعة توت عنخ آمون بالمتحف المصرى أوعية خاصة بالمرايا من هذا النوع الأخير مثل رقم ٣٧٧ ، ٣٧٨ من دليل المتحف المصرى . كذلك انتقلت مناظر الرؤية فى المرآه إلى بلدان

الشرق القريب ، فيحتفظ متحف (أستانبول) بتركيا على منظر يمثل إمرأة وفى يدها مرآة شبيهة بتلك التى استعملها الناس فى مصر الفرعونية .

٩ — أدوات أخرى للزينة :

ا ـ عثر على أوان صغيرة مدببة من ذهب فى قبر الملكة (حتب حرس لأولى) أكبر الظن أنها كانت من أدوات التظريف ، إما كانت تستخدم لتنظيف الأظافر ، أو لقطع بعض الزوائد من الجلد المحيط بجذور الأظافر ، كما تفعل سيدات العصر الحديث . وعلى صفحات بعض التوابيت من الدولة الوسطى (١) والمحفوظ بعضها بالمتحف المصرى صور لحقائب شبيهة بحقائب الشفرات تحتوى على أدوات دقيقة مدببة ، ولولا وجود هذه الأدوات مصورة إلى جانب الشفرات لاعتقدنا أنها تمثل سهاماً أو نصالا لبعض سهام ، كذلك وجد الكثير منها مصوراً بين المرايا مما يؤيد أنها كانت تستعمل فى أعمال الزينة والتجميل .

ب ـ أدوات لسحن مواد التجميل : بين المناظر التى وجدت مصورة على صفحات بعض التوابيت (٢) منضدة مستديرة عليها قطعة مستديرة أيضاً كانت تستخدم فى سحن المواد الخاصة بالتجميل .

حـ ـ عرف المصريون المقص و (الملقاط) وعثر عليها فى المقابر وقد صنعا من النحاس والبرونز ، وفى العصر اليونانى الرومانى كشف عن مقصات شبيهة بتلك التى نستعملها الآن (٣) وكذلك (ملاقط) .

د ـ كذلك المراوح وقد كانت أيضاً من أدوات الزينة ، فقد عثر على مراوح ذات أياد عاجية مثل التى كشف عنها فى قبر توت عنخ آمون (أنظر دليل المتحف المصرى تحت رقم ٤٤٨ ، وكذلك أيدى لمراوح فقد ريشها مثل رقم $\frac{4}{12}$ $\frac{9}{23}$ ، J. E. 30/120 .)

---

1) M. Gustave Jequier, op. cit. p. 136, Figs. 366 à 374.

2) » » , » » p. 131, » 353 à 354.

3) See J. E. 27007, 69308, J. E. 29231, 29855 bis, Jequier. op. cit., Figs. 357 à 359 p. 132 à 134. A. S,A.E.T II,p.11.

المادة التى كانت تستخدم فى التنظيف :

من الصعب علينا معرفة اسم هذه المادة ، فهل هى الصابون أو مادة قريبة منه ، هذا وقد لوحظ على صفحات بعض التوابيت المحفوظة بالمتحف المصرى بعض الصور تمثل قطعاً ملونة باللون الأصفر أو الأزرق الباهت ، أما عن شكلها فأحياناً مربعة الشكل وأخرى مستطيلة ، كل ذلك وجد مصوراً إلى جانب الشفرات والمرايا (١)

وعثر أخيراً فى بعض التوابيت على بعض المواد الخاصة بالتنظيف ، وبعد فحصها وإذابتها فى الماء ظهرت فيها رغاوى شبيهة بتلك التى تخرج من الصابون. أما عن المادة التى كانت تستعمل فى إزالة الدهنيات التى توجد على الجسم أو الملابس فكانت غالباً ما تتكون من النطرون وبعض أنواع من الرماد أضيف إليها زيوت أخرى وبعض المواد الكيماوية . ومن المناظر الطريفة ، شكل يمثل قطعة مربعة الشكل وجدت مرسومة بجـــانب الابريق والأوانى المخصصة للتنظيف ، ومن الراجح إنها كانت تمثل شيئاً قريب الشبه بالصابون .

الأوانى الصغيرة التى تضم مستحضرات التجميل

تضم دور تحف الآثار المصرية بين مجموعاتها الكثير من هذه الأوعية التى حاول الفنان فى مصر القديمة أن يمثل مافيها مارآه فى الطبيعة من حيوان وطير ونبات . وإن حب المصريين للفنون وعشقهم الطبيعة وما فيها من جمال دفعهم إلى نقلها ليس فقط على صفحات القبور وإنما فى قصورهم ممثلة فى أوعية صغيرة أو تماثيل ، وهكذا يفعل الناس فى عصرنا الحديث إذ ينقلون مايرونه فى الطبيعة من فن ساحر وجمال فتان مصوراً أو ممثلاً ، ويجملون به غرفات الاستقبال أو غيرها من حجرات المنزل . سنرى معالم الطبيعة أو الحيوان أو الطير ممثلة فى هذه الأوانى التى بدأ الاهتمام بها لتكون أوعية تحفظ بها مستحضرات التجميل ، ثم تطور الأمر حتى أصبحت تحـــفاً فنية تصور الطبيعة السمحة ، وتظهر خصائص بعض الحيوانات أو الطيور وبعض غرائزها وما يظهـــر عليها حين الفتك والغارة ، كل ذلك دفع الكثير ممن يقومون بدراسة علم الحيوان أو الطير

---

1). Jequier, op. cit. p. 123, Fig 329.

القديم الذى إنقرض ، أن يعتمدوا فى كثير من أبحاثهم على بعض هذه القطع الفنية الرائعة من أدوات الزينة التى استطاع المصرى أن يظهر فيها الكثير من غرائز الحيوان أو الطير . من أجل ذلك سنحاول أن نقدم للقارىء الكريم طرفا من ملاحظات المصريين للحيوانات أو الطير ، وحسن إختيار المصرى لمناظر الطبيعة ، وتنوع هذه الأوانى . سنرى فى هذه القطع الفنية قوة الفن المصرى وصدقه وإحساسه الرقيق ، ودقته فى الإخراج ودراسته للفكرة قبل التنفيذ . ولن نستطيع أن نستعرض جميع تلك الأوانى ، وإنما سنكتفى بعرض نماذج فقط .

الأمثـــــلة

صندوق صغير خاص ببعض مستحضرات التجميل محفوظ بالمتحف المصرى على هيئة عجل من الخشب ، طوله حوالى ١١ سنتيمتراً ، عثر عليه (بالقرنة) ، وقد جوف جسد العجل ليضم بعض المساحيق ، أما ظهر الحيوان ورأسه فقد صنعا من قطعتين ليكونا غطاء الإناء .

إستطاع أن ينجح الفنان فى تمثيل وليد أحد الأبقار ، فصوره تصويراً صادقاً ، فهناك تناسق بين الرأس والجسم وبين الأرجل والأظلاف ، فهذا ثؤر الحيوان قد صور تصويراً معبراً ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد أن العجل كان ينادى أمه . كذلك فتحات الأنف ، والرأس واستدارتها ، والرقبة وانحناءتها الرقيقة الظاهره وما فيها من تجاعيد دقيقة ، والأذن واستقامتها ، كل ذلك يدل على دراسة عميقة لهذا الحيوان الصغير حتى خرج على هذه الصورة الصادقة المعبرة ، فهى لم تبعده عن فصيلة الحيوان ، كما تقربه أيضاً من أن يكون فى الوقت نفسه وعاءاً يضم بعضا من زينة الناس فى مصر الفرعونية .

إناء بالمتحف المصرى على هيئة عجل موثوق أرجله الأربعة طوله ٧ر٨ سنتيمتراً ، وهذا الشكل يمثل ظهر الحيوان ، أما جوف الإناء فقد حفر بالجانب الآخر ، وقد كان من جراء ربط العجل على هذه الصورة إنضمام مقدمته ومؤخرته فظهر بديناً مكتنزاً باللحم ، وقد شد إلى أظلاف الحيوان الصغير برعمان ، أحدهما صغير إلتصق بمؤخرة العجل والآخر كبير إقترب من رأس الحيوان حتى إتصل بالذقن . ولم يغفل الفنان الكثير من التفاصيل ، فنراه قد إتخذ من مقود العجل المربوط فى رقبته ذلك الوثاق الذى شد على أرجله وعلى البراعم .

كذلك لم ينس تمثيل ذيل العجل الذى إنثنى حتى إلتصق بالظهر فظهرت الذؤابة ، وتلك أمور نلاحظها فى الحيوانات حينما توثق ويلقى بها على الأرض تمهيداً لذبحها أو ختمها . كل ذلك أمثلة واضحة تبين إدراك الفنان لكثير من طبائع الحيوان ، من أجل ذلك كان الفن المصرى فناً خالداً مع خلود الزمن .

بالمتحف المصرى وعاء من العاج (شكل ١٤) طوله ١٦٫٥ سنتيمتراً ، مثل على هيئة أسد يلتهم عجلا . نلاحظ أن الإناء ليس فى وضع مستقيم ، والسبب فى ذلك هو أن حركة الوثب الخاصة بالأسد وإنقضاضه على فريسته قد دفعت مقدمته إلى الأمام ، وقد إرتكز على المؤخرة التى فقدت . أما معرفة الأسد وأذناه والعينان فقد أتقنهم الفنان إتقاناً واضحاً ، وظهر الذيل والذؤابة بخطوط سوداء فوق الظهر ، ومثل الأسد فاغراً ثوره فى حركة عنيفة يلتهم مؤخرة العجل الذى يمثل تجويف الوعاء ، وقد صور ذلك الحيوان الأليف جاث على أربعيه ، وقد إلتفت برأسه إلى الوحش الكاسر فى حركة عبرت عنها أسارير وجهه ونظرات عينيه القوية ، وقد ظهر على فم الحيوان الوديع إحساسه بالألم ، وكأنى به وهو يفتح فاهه ويخرج لسانه ينادى أمه أو يستدر عطف ذلك الوحش الذى ينظر إليه بعينين وقادتين . إستطاع الفنان المصرى أن يمثل ذلك الصراع العنيف بين حيوان أليف وديع وآخر مفترس قوى قاهر ، ونجح فى تمثيل القوة والضعف وعبر عنهما تعبيراً صادقا نحس به ونلمسه ونراه فى ذلك الأثر .

بالمتحف المصرى إناء من الخشب على هيئة بطة عثر عليه (بالقرنة) طوله ١٣٫٥ سنتيمتراً وله غطاء وطعم بمثلثات صغيرة من العاج (رقم J. E.45110) ، مثل الفنان الطائر وهو يلتف برأسه ورقبته إلى الخلف ، وكان يهدف من وراء ذلك أن يخلق من الرقبة ومن الرأس وسيلة تيسر حمل الصندوق الصغير ، من أجل ذلك مثلت رقبة الطائر فى شكل دائرى ، وقد اتجهت البطة برأسها إلى الخلف لتخرج على هذه الصورة الفنية التى لا نرى فيها خروجا عن بعض خواص هذا الطائر ، فهى تعبر عن بطة أرادت أن تركن إلى الراحة فمالت برأسها إلى الخلف . أما الغطاء فقد صنع من قطعة أخرى وأحكم غلقه بمقبضين صغيرين فى كل طرف من الأطراف . (أنظر أيضاً رقم J.E.45119) .
(هذان المثلان محفوظان بالمتحف المصرى).

إنتقل الفنان هذه المرة إلى المـاء لينقل إلينا منه بعضاً من أسماكه فيتخذ منها وعاءاً ، صنع من القاشانى الأزرق طوله ١٨٫٨ سنتيمتر ، وهو عبارة عن قاعدة وغطاء ، ومن ذلك نستطيع أن نرى التفاصيل الدقيقة فى السمكة من قشور محفورة ومرسومة وزعانف وذيل ، كل ذلك فى خطوط منتظمة واضحة كذلك لم ينس الفنان خياشيم السمكة وعينيها وفمها ، كما تظهر السمكة هنا كما لو كانت ثابتة فى المـاء لا تتحرك لأنه لم يصور زعانفها منتصبة بل ضمت إلى جسدها ، وإلى أسفل أحد هذه الزعانف نقش اسم الملك (تحتمس الثالث) (هذا الأثر محفوظ بالمتحف المصرى) .

بالمتحف المصرى وعاء صغير على هيئة جرادة (شكل ١٥) رقم J. E.55939 طولها حوالى ١٧٫٢ سنتيمتراً من الخشب إشتريت عام ١٩٣١ ، وقيل إنها من منطقة سقارة وأنه عثر عليها بين هرمى (كاوت،أبوت) زوجى الملك (تيتى) من ملوك الأسرة السادسة ، وقد مثل غطاء الوعاء فى أجنحة الحشرة ، الذى يدور حول مسمار من الخشب إلى القرب من رقبتها ، ويلاحظ أن الفنان قد إستطاع أن يخرج قطعة فنية رائعة ، إذ راعى النسب الهندسية بين الجسم والرأس والأجنحة . كذلك ظهرت الأجنحة وبها خطوط أفقية منتظمة انتظاماً هندسياً دقيقاً ، بينما حفر على جسمها خطوط رأسية منتظمة أيضاً ، أما الأرجل فقد مثلت خطوطها بشكل يختلف عن الخطوط السابقة وتشابهت بالأرجل الطبيعية للحشرة . من كل ذلك نستطيع أن نقرر أن الفنان كان عليما بعلم الحشرات ، أما عن تاريخ ذلك الأثر فأكبر الظن أنه منذ أيام الدولة الحديثة(١) .

بمتحف (بروكلين) بنيويورك وعاء صغير على هيئـــة جرادة من العاج (٢) .

يوجد بين مجموعة آثار توت عنخ آمون وعاء خاص بالدهون العطرية أسطوانى الشكل ، لا زالت به بقايا من هذه الدهون ، صنع الإناء من المرمر

---

١) انظر البحث الخاص عن الجراد فى الحوليات A.S.A.E. XXXII p. وفيه وضعت هذة الجرادة وغيرها من الجراد الشبيهة بها والذى استخدم فى تجميل أدوات الزينة .

2) Cvril Aldred, New Kingdom art in Ancient Egypt durimy the Eighteenth Dynasty 1590 to 1315 B.C. (London 1951) pp. 71. 72.

وقد رجح المؤلف احتمال أن تكون من عهد توت عنخ آمون .

وعلى صفحة الإناء الأسطوانى المطعم بعجينة الألوان مناظر من الطبيعة السمحة ، فهذا سبع من السباع يخرج من الأحراش ليفتك بثور فيأخذه من عنقه ورأسه ، بينما يحاول كلب فى سرعة واضحة إلتهام فخذ الثور الخلفى ، وعلى الجانب الآخر كلاب تطارد ظباءاً وغزلانا ، وأحيط الإناء بعمودين علت هامتهما رأس الإله (بس) ، وقد حمل الإناء على رؤوس أربعة من الأسرى ، زنجيان وأسيويان ، وإذا ما أمعنا النظر فى هذه الرؤوس وجدناها معبرة تعبيراً صادقا ، إذ ظهرت عليها تجاعيد الإجهاد الذى تظهر على وجه الأسير نتيجة المشقة من حمل الإناء . أما غطاء الإناء فعلى هيئة تمثال أسد رابض ، يلهث ، ولا يمثل السبع على هذه الصورة إلا إذا أصابه التعب . ويتضح لنا من دراسة هذا الإناء أن الفنان كان عليما بطبائع الحيوان وغرائزها ، وعلى ذلك لم يكن الإناء يضم دهنا عطريا فقط وإنما تحفة فنية رائعة .

يضم المتحف المصرى بين تحفه الخاصة بأدوات الزينة أوعية لم تظهر إلا منذ أيام الدولة الحديثة ، وهى عبارة عن قرون بعض الحيوانات أخذت منها وأعدت لتضم زيتا عطريا .

وقد عثر فى حفائر دير المدينة(١) على قرن وجد داخل أحد التوابيت الخاصة بالسيدات ، و طول القرن ٣٦ سنتيمتراً ، وقد أغلق من نهاية طرفه الواسع بغطاء من خشب ، وعثر بجواره على حلقة من المعدن وضعت أصلا فى الجزء المنحنى من القرن . وكانت تستخدم ليعلق منها بقطعة من القماش كما هو واضح بالصورة فى المرجع المذكور . وثبتت فى الناحية الأخرى من القرن ملعقة من الخشب نقش ظهرها على هيئة يد يمنى ، وفتح فى راحة اليد ثقب بسيط يوصل إلى ثقب آخر صغير فى هذا الطرف المدبب ليصل منه السائل العطرى إلى الملعقة ، وعثر على قطعة صغيرة من القماش خصصت لإحكام غلق هذا الثقب . وقد احتوى نصف الإناء على سائل دهنى يميل لونه إلى الإخضرار ، وبعد فحصه فحصا كيمائيا تبين أنه زيت استعمل فى التعطير . وهذا الوعاء شبيه بالرذاذة (البخاخة) الحالية .

---

1) B. Bruyére, Rapport sur les Fouilles de Deir el Medineh (1934—1935) Deuxieme partie (Le Caire 1937) p. 84 ph.42.

أوعية الكحل :

اهتم المصريون رجالا ونساءاً بعيونهم ، وقد عثر على أوانى خاصة بالكحل لها أشكال مختلفة ، صنعت أيضاً من مواد مختلفة من حجر ومعادن وخشب وغاب ، كما وجدت مصورة على التوابيت بجوار أوانى العطور ، وعثر على بعض هذه الأوانى مغطاه بقطع من الجلد ومربوطة برباط من الكتان ، وأحيانا رسمت أكياس الكحل شفافة بحيث ترى منها مادة الكحل .

وعاء صغير على هيئة جزع النخل وينتهى بالسعف وهو معروض بالمتحف المصرى ، وقد حاول الفنان أن يحاكى فيه بعض الأعمدة التى كانت هاماتها على هيئة سعف النخل ، ارتفاعه ١٠٫٥ سنتيمتراً . صنع الوعاء من عجينة الزجاج الأزرق ، وقد زينت قاعدة الإناء وهامته بزجاج مموج أصفر وأبيض فى غاية الجمال والدقة .

بالمتحف المصرى وعاء للكحل من الفخار على هيئة قنفد (شكل ١٦)، إستطاع الفنان أن يخرج إناءاً صور فيه الحيوان تصويراً مفصلا فرسم جلده على هيئة معينات وهى تمثل الشوك الذى يعلو الجلد، وكذلك أظهر الوجه بجميع تفاصيله. أما فتحة الإناء فواضحة بظهر الحيوان وقد وضع فيها المرود .

الصناديق والسلال التى كانت تحفظ بها أدوات الزينة :

لم يتخذ الناس فى مصر الفرعونيه منضدة يضعون عليها أدوات الزينة كما نفعل الآن ، لكنهم كانوا يحفظون المرايا والأوعية والمغارف (الملاعق) والشفرات ودبابيس الشعر والأمشاط وغيرها فى صناديق من الخشب أو فى سلال من غاب البردى ، وكثيراً ما كانت توضع هذه الأوعية والقوارير فى السلال والصناديق أو بجانب التوابيت داخل قبور الموتى .

بمتحف (المتروبوليتان) صندوق خاص بأدوات الزينة (شكل ١٧) لسيدة من سيدات الدولة الوسطى من أيام امنمحات الرابع تدعى (كمنى) ، عثر عليه عام ١٩١٠ فى قبر أحد الأشراف بطيبة . صنع هذا الصندوق من خشب الأرز وطعم بالعاج والأبنوس ، وقد أعد الجزء العلوى من الصندوق ليستقبل فيه المرآة ، وبالجزء الأسفل درج قسم إلى ثمان فتحات تضم أوانى الدهون العطرية ، وقد كتب على غطاء الصندوق اسم امنمحات الرابع داخل

(خرطوش) والتعويذة الخاصة بالقرابين وألقاب صاحبة الصندوق . وعلى الجانب الأمامى للصندوق منظر يمثل (كمنى)، وهى تقدم إناءين مملوءين بدهن معطر إلى الملك امنمحات الرابع ، ويغلق الصندوق بمزلاج يمر فى فتحة من الفضة فى الجزء الأمامى من الدرج ، وبالقرب من الصندوق أوعية خاصة بالكحل صنعت من المرمر أحدها على هيئة أوزتان استدارت رقبتيهما لتكونا عروتى الإناء ، ومثل الوعاء الثانى على هيئة قرد ، والثالث على صورة إناء مستدير .

بالمتحف المصرى إحدى السلال التى كشف عنها فى دير المدينة من البوص وغاب البردى بشكل بيضاوى طولها ٢٦ سنتيمتراً وعرضها ١٥ سنتيمتراً وارتفاعها ١٣ سنتيمتراً ولها غطاء مسطح. ووجد بالسلة مشطان من الخشب وثلاثة أعواد صغيرة خاصة بالكحل ومحك من الظران وأناء للكحل من المرمر ودبوس للشعر من الأبنوس وإناء صغير من الفخار وبقايا أصداف كانت تستعمل كعنصر من عناصر المساحيق التى تضاف إلى بعض مستحضرات التجميل، ولازالت بعض مساحيق الصدف تخلط بالطلاء الذى يوضع على الأظافر (المانيكير) لتجعلها براقة .

عثر على صندوق من البوص مؤرخ من العصر اليونانى الرومانى بسقارة وبداخله ثمان زجاجات صغيرة وأصداف ومشط ووعاء للكحل ، وهو محفوظ بالمتحف المصرى تحت رقم J. E . 79039 a' q .

أوانى أو مغارف (ملاعق) خاصة بمستحضرات التجميل

إنتقل الفنان إلى لون آخر فى صناعة أوانى أو مغارف خاصة بمستحضرات التجميل ، وأكبر الظن أن هذا الاتجاه الجديد قد خلقته ظروف الأيام حينما إتسعت رقعة الأمبراطورية المصرية فى عصر الراحة والرخاء المادى ، حيث فكر الناس فى التمتع بثمرات الجهاد الطويل . ستظهر هذه الأوعية فى عصر الطرب وما يقوم حوله من إنغماس فى اللذات وما يتبعها من أبهة وعلى الأخص أيام امنوفيس الثالث ، وكان يمـــوج البلاط فى أيامه بالعناصر الأسيوية التى جاءت تحمل خيرات بلادها .

أخذ الفنان يتجه إتجاها جديداً يلائم العصر ، فمثل بعضاً من الأسرى

الأسيويين ، والجنوبيين ، كذلك الجوارى وهم يحملون أوعية الزينة والتجميل ويضم المتحف المصرى وغيره من دور التحف العالمية نماذج مما قام بها الفنان من تمثيل هؤلاء الأسرى يحملون بعض الأوعية التى كانت تضم زينة الناس من آل فرعون .

يحتفظ متحف اللوفر بوعاء صغير أو مغرفة من الخشب ، وهنا نرى جارية عارية إلا من حلية فوق صدرها ، وقد ظهرت واقفة على قطعة مستديرة من خشب أغلب الظن أنها من أدوات الموسيقى ، وبيسراها كيس من قماش مطرز ، وتحمل فوق كتفها الأيمن معتمدة على ذراعها أناءاً له عروتان حمل على زهرات من لوتس ، أما غطاء الإناء فيتم فتحــه بواسطة مسمار متحرك يرى بالقرب من رأسها . والأثر رائع خصوصاً ذلك القوام الرشيق للفتاة ووجهها والشعر الذى ينساب بجديلة فوق صدرها .

صندوق أو مغرفة (شكل ١٨) ، وترى الجارية وقد وضعت فوق كتفها وعاءاً له عروتان ، وربما كان يمثل تجويف المغرفة الخاصة بمستحضرات التجميل ، مثلث الجارية تميل إلى الأمام قليلا حتى تتمكن من حمل الإناء ، وهناك غزالة تحملهـا الفتاه لم يظهر منها إلا الرأس . ونلاحظ أن الجارية كانت تضع على صدرها رداءاً مطرزاً تطريزاً بديعا بأشكال هندسية جميلة ، وتدلى من رأسها فوق الكتف وعلى الصدر جدائل من شعر مستعار .

بالمتحف المصرى وعاء من الخشب إرتفاعه ١٤ سنتيمتراً (شكل١٩)رقم J · E · 31382 على هيئة أسير حليق اللحية وشعر الرأس ، جاثيا على أحد ركبتيه فوق قاعدة من الخشب أيضا يرتدى مئزراً قصيراً ، وصدره عار ورأسه كبيرة وعيناه واسعتان وجبهته عريضة ، وملامح وجبهته معبرة تعبيراً صادقا ففى عينيه وفمه إحساس بألم وشعور بضيق ، فهو يحمل فوق كتفيه إناءاً ، وحفر على الجزء الأسفل للوعاء رسم يمثل فروع بعض الأشجـار وثلاثة عجول تعدو ، أما رقبة الإناء فزينت بمثلثات طويلة وخط مموج ومربعات على هيئة رقعة الشطرنج ، وحفر على الغطاء عجل يعدو وقد طعم بالعاج . والغطاء مقبب وقد ثبت فى الإناء برباط من كتان ، وزود بخاتم من طين عليه نقش . والخلاصة أن الصانع المصرى إستطاع أن يصور أسيراً تصويراً واضحا

عبر فيه تعبيراً صادقا بما كان يجول بخاطره ، فهو يعلم أن بعض هذه الدهون والعطور يؤتى بها من قلب أفريقية أو من آسيا، فلا أقل من أن يحملها واحد من أهالى هذه الأقطار البعيدة النائية بعد أن يقطع بها الفيافى والقفار ويشق فى سبيل إحضارها إلى فرعون مصر(١) .

بمتحف اللوفر صندوق صور على هيئة أسير من أولئك الذين رأيناهم فى الوعاء السابق، وقد مثل الأسير بشفتين غليظتين وأنف كبير وفك عريض وجبهة ضيقة ، وقد حمل الأسير فوق كتفه إناءاً أو صندوقا أحيط بزهور وأوراق نباتات . إستطاع الفنان أن يمثل ذلك الأسير الأسيوى تمثيلا صادقا بجميع ما نلاحظه من أسارير الأسرى ، وقد ظهر كبير البطن مكتنز الصدر بالشحم واضعا على ذراعه رداءه (٢).

المغارف (الملاعق) الخاصة بالمساحيق :

عثر على كثير من الملاعق الخاصة بالمساحيق من مواد وأشكال مختلفة، ولا تخلو دار من دور التحف العالمية منها . وسنحاول إعطاء بعض الأمثلة . وأقدم ما كشف من هذه المغارف ما يرجع إلى عصر التأسيس إذ عثر فى حفائر حلوان فى السنوات الأخيرة على مغرفة لها تجويف بسيط وتنتهى يدها برأس غزالة (٣) .

١ — <u>مغارف على هيئة خرطوش:</u>

بالمتحف المصرى مغرفة من الخشب عثر عليها بسقارة عام ١٨٦٣ طولها ٢٠ سنتيمتراً ، وهى مستطيلة الشكل تجويفها على هيئة خرطوش، نقش بداخله بعض زهور من اللوتس والبروى، وإلى أسفل الطغراء يد المغرفة ، وقد حفر على وجهها غزالة تعدو شدت من رأسها وأذنيها بحبال ، وأمامها وخلفها زهرات من لوتس .

---

1) A.S.A.E.T. II Fig. 2.

٢) أنظر أيضاً مجموعات المتحف المصرى فهى تضم وعاءين على هذه الصورة تحت رقمى J. E. 31928, J. E. 29356.

3) Zaki Youssef Saad, Royal Excavations at Helwan 1945—1947) pl. Xxlleu b tomb No. 104 and tomb No. 299 H 5.

بالمتحف المصرى مغرفة من هذا النوع يدها على هيئة رأس أوزة منحنية رقبتها لتكون عروة لتعلق منها، وقد استطالت رقبة الطائر فخرج منها ثلاث زهرات من بردى يرتكز عليها تجويف المغرفة الذى مثل على هيئة خرطوش وقد زين من الداخل بزهرات وبراعم من اللوتس ومياه تسبح فيها أسماك .

٢ — مغارف أياديها على هيئة رأس طائر :

مغرفة بالمتحف المصرى من المرمر طولها ١٤٫٣ سنتيمتراً رقم J·E·30759 ، عثر عليها بسقارة ويدها على هيئة جزء من جسم الطائر ، وقد انحنت رأس الأوزة حتى كونت عروة تعلق منها .

٣ — مغارف أياديها على هيئة زهرة :

بالمتحف المصرى مغرفة طولها ٢٦٫٥ سنتيمتراً من الخشب ، نحتت يدها نحتاً دقيقاً على هيئة مجموعة من زهور اللوتس . وقد راعى الصانع الدقة فى إبراز كثير من تفاصيل هذا النبات . وأعتقد أنه صور هذا الزهر ينبت فى إناء إسطوانى الشكل زينت صفحته برسوم هندسية مربعة ومستديرة وخطوط رأسيه وعرضية منتظمة إنتظاما دقيقا . أما تجويف المغرفه فمثل على هيئة ورقة من أوراق شجر الأرز(١) .

مغرفة من الخشب بالمتحف المصرى طولها ١٥٫٥ سنتيمتراً عثر عليها بسقارة عام ١٨٩٨ على هيئة زهرة من زهرات البردى يحيطها برعمان ، وقد شدت سوق الزهرة برباط على هيئة حلقات منحوته فى الخشب .

يضم المتحف المصرى بين ودائعه مغرفة من الخشب طولها ١٦٫٥ سنتيمتراً لا يختلف تجويفها عن المغارف الحديثة (الملاعق التى نستخدمها الآن فى الأكل) أما يدها فقد نحتت على هيئة أسنان المشط الذى كان يستخدم فى تصفيف الشعر ، واليد حفر على اليد جدائل مضفرة من الشعر .

بمتحف بروكلين مغرفة أو صندوق صغير على هيئة ثمار الرمان (شكل ٢٠) .

---

1) Cahier No. 5 supplemeut des A.S.A.E. p. 39 Fig. 36 et Fig. 37.

٤ — مغارف أياديها على هيئة حيوان :

يبدأ الفنان هذه المرة إختيار موضوع آخر من الطبيعة المصرية السمحة، فيتخذ من الخشب أو العاج تماثيل حيوانية برية وبحرية لتكون أيادى لتلك المغارف ، أما التجاويف فكانت على هيئة حيوانات مائية أو برية أيضاً .

بالمتحف المصرى مغرفة من الخشب طولها ٢٢ سنتيمتراً C . G . C . 45123، يدها على هيئة كلب ينقض بفمه على سمكة التى تمثل تجويف المغرفة . أراد الصانع المصرى أن يتصرف ليجعل من هذا الحيوان يداً للمغرفة، فنجده قد نحت الكلب ممتداً أرجله الخلفية وذيله وجسمه ، أما الأرجل الأمامية فتعاونه على قضم السمكة ، وتلك عادة نلاحظها عند الكلب حينما يلتهم العظام أو غيرها مما يأكل من أشياء صلبة. أدرك الفنان القديم كل ذلك عند هذا الحيوان ، فلم ينس التفاصيل الخاصة بالكلب ، وكل ما يوجد بالرأس والجسم والأذنين ، أما السمكه فمثلت تمثيلا صادقاً ، فقد نحت جسدها ليتسع للمساحيق ، أما فمها فيلا حظ عليه فتحة ضيقة نتيجة لتأثرها بما أصابها من أنياب ذلك الحيوان . كل ذلك يدل على دقة الفنان المصرى .

٥ — مغارف أياديها على شكل جوارى :

يتجه الفنان المصرى إلى لون آخر من المناظر المنحوتة على الخشب فيتخذ من بعض الجوارى وهن يجمعن زهرات اللوتس أو يضربن على القيثارة ، أيادى لبعض مغارف مساحيق التجميل . وإلى القارىء الكريم بعض هذه المغارف . بالمتحف المصرى C . G . C . 45136 مغرفة طولها ٢٥ سنتيمتراً من الخشب ، تمثل إحدى الجوارى تقف فوق زورق يسير على الماء ، ويخرج من الغدير زهرات من اللوتس ، وغالباً ما كانت تحاول الجارية أن تدفع الزورق بعصا قد تبقى جزء منها فى يدها اليمنى ، والجزء الآخر ملتصق بالزهر والقارب ، وقد اسندت يدها اليسرى على زهر اللوتس ويخرج من وسط هذا كله تجويف المغرفه وسط زهور اللوتس وثمار بعض النباتات يكتنفها براعم اللوتس . أما الجارية فقد ارتدت مئزراً قصيراً ، كما تتحلى بصدرية وتضع فوق رأسها شعراً مستعاراً تدلى حتى صدرها .

تقتنى متاحف الآثار فى أوربا مغارف من هذا النوع الأخير فى غاية الدقة والجمال . وقد آثرت وأنا اكتب وصفاً لبعض أدوات الزينة من هذا النوع

أن أطلع القارىء على طرف من ثروة حضارة مصر الفرعونية نقلها الضعف السياسى إلى أوربا . ويضم متحف اللوفر بباريس من هذه المغارف أحسنها وأجملها وأكثرها تنوعاً . ومن هذا النوع على سبيل المثال أربع مغارف من الخشب، إحداهن تمثل فتاة تقف بين زهرات اللوتس ، وقد تجمع بعض من الزهر فوق رأسها . أما الثانية فتمشى على استحياء بين زهر البردى وهى تحمل قيثارة ، وعلى رأسها زهرات من لوتس يخرج منها تجويف المغرفة . والثالثة (شكل ٢١) تقف فى زورق يسير فوق الماء بين الغاب وزهر البردى ، أما تجويف المغرفة فمستطيل الشكل زين بغدير ينمو حوله البردى . والرابعة (شكل ٢٢) يبدها على هيئة جارية تحمل على ذراعيها طيراً وزهوراً .

إستطاع الفنان فى هذه القطع الأربع أن يخرج فتيات مصريات لهن ملامح مصرية صميمة، فالأولى تلك التى ظهرت بين زهرات اللوتس ، فيها جمال رائع وأناقة واضحة ، خصوصاً شعرها ورداؤها التى رفعته لتستطيع السير وسط الغاب دون أن يتمزق أو يتلف ، أما الثانية فقد تجردت من ثيابها إلا من قماط حول خصرها ، بينما ظهرت الثالثة فى قوام رائع ورشيق ، ورابعتهن عليها مسحة من جمال فتان .

راعى الفنان فى هذه القطع الدقة فى تصوير الزهر والأوراق وأنواع طير الماء ، كل ذلك جاء نتيجة حسن ملاحظته ودراسته العميقة للنبات والحيوان والطير ، فهذا طير الماء الذى صور فى المغرفة الثالثة مثل جالساً على زهرات البردى يستمع لعازفة القيثارة التى تمر بالغدير ، وقد عودتهم الطبيعة أن يسكتوا عن الصفير حين سماع الأصوات والأنغام الموسيقية .

٦ — مغارف ذات أيدى على هيئة فتيات سابحات(١) :

إتخذ الناس أيام الدولة الحديثة حيث الرخاء المادى ، مغارف لها أيادى على هيئة فتيات سابحات تجردن من الثياب إلا من بعض الأقمطة حول الخصر ، كما زين جيدهن ببعض الزينة ، كما وضعت إحداهن قرطاً فى أذنيها .

1) A.S.A.E.T. L 11 Remarques sur les « Cuillères à fard » du type dit à la nageuse.

مثلت إحدى السابحات المعروضة بالمتحف المصرى من خشب طولها ٣٠ سنتيمتراً ، وهى جارية مصرية طرحت على بطنها ، ومدت ذراعيها لتضع فوقهما تجويف مغرفة مساحيق التجميل على هيئة بطة نفتح فمها .

باللوفر أيضاً إحدى السابحات(١) غالبا ما تكون زنجية ، فتصفيفة الشعر وملامح الوجه كلها تدل على صحة هذا الرأى ، وقد مثلت ممدة على بطنها كزميلتها السابقة ، ووضعت على ذراعيها طير رأسه من عاج وقد طعمت رقبته بالأبنوس ، أما جسمه فكان هو تجويف المغرفة ، وظهرت الفتاة عارية إلا من بعض الأشرطة على صدرها وما تحت خصرها ، كذلك زين جيدها بشى من خرز .

يقتنى متحف بروكلن (شكل ٢٣) إحدى هذه السابحات من الخشب ويظهر أنها من أهل الجنوب ، صف شعرها بطريقه تختلف عن تلك التى رأيناها عند المصريين ، ومثلت الفتاة ممدة على بطنها وقد وضعت على يديها إناءاً على هيئة طائر من الطيور ضاع رأسه ورقبته ولم يبق منه إلا الجسم والذيل ، ولم تضع هذه الزنجية إلا قماطا من قماش .

بالمتحف المصرى مغرفة (شكل ٢٤) من الخشب طول يدها ٣٤ سنتيمتراً على هيئة سيدة إستلقت على بطنها ومدت ذراعيها ليوضع عليها وعاء العطور و تجويف المغرفة . ومن النظرة الأولى إلى الرسم نرى فى هذه التحفة الفنية الكثير من العناية التى إمتاز بها الصانع المصرى القديم فأخرج سيدة ذات ملامح مصرية قديمة ، وقد صففت شعرها ، وألقت بجزء من جدائلها المنتظمة على أذنها اليمنى ، وهى آخر المبتكرات الحديثة فى فن تصفيف الشعر وزينت جيدها بصدريه من الخرز وكذلك رسغها إزدان بأساور ، أما جسدها فربط بأشرطة رقيقة عليها أثار من ذهب . ونستطيع أن نقول بعد الذى شاهدناه من جمال النحت فى هذه المغرفة أن الفنان المصرى أعطانا فكرة صادقة عن جمال الأجسام فى مصر الفرعونية ، إلى غير ذلك من سحر العيون وجمال الخلقة وخفة الروح .

1) J. Vandier, Les Antiquitxés Egyptiènnetes au Musêe du Louvre (Paris 1946) pl. XIII, 1.

خاتمة :

ذلك عرض سريع ومرآة صافية ، نستطيع أن نرى فيها صور الماضى البعيد لحضارة مصر الفرعونية رغم مامر بها من محن أفقدها الكثير من ذلك التراث ، فوقع بين لصوص الآثار ونقل إلى أيدى المستعمر حينما مرت بلادنا الطيبة بفترة من فترات الضعف السياسى .

نستطيع أن نستنتج مما قدمنا له من قبل مقدار ماترك المصريون القدماء من آثار تدل على سلامة الذوق وصدق التعبير ودقة الملاحظة وحب الطبيعة، كل ذلك ظهر واضحاً فى صناعة الأباريق والمرايا والشفرات والمغارف والامشاط الخ . أتاحت لهم الأيام الكثير من متاع الدنيا ، خصوصا أيام الدولة الحديثة إذ تدفق الخير على البلاد ، فأخذ الصناع يصنعون من الحجر والنحاس والخشب والعاج أوان وصحاف زينوا بها دور المترفين . ربما يتهم بعض الناس المصريين القدماء بالإسراف فى صناعة أدوات الزينة أو ميلهم إلى المبالغة فى الكماليات، لكن حب المصريين للفن وشغفهم بالطبيعة وما فيها من جمال ساحر ، وإيمانهم بالبعث، كل ذلك دفعهم إلى العناية بكل شىء والإفادة من كل شىء ، ما كان فى حياتهم الخاصة والعامة ، فجملوا كل مايرونه وما يقومون بعمله حتى يقربونه من درجات الكمال .

لاحظنا فى هذه الدراسة السريعة عبر آلاف السنين أن المصرى كان دائم التفكير فى الطبيعة ، فصور السمك فى الماء والطير سابحا والحركة من حول ذلك ، وما ظهر من نبات حول الماء وما فوقه من زوارق ، كل ذلك رسم رسماً واضحاً . كما صور الوحوش الكاسرة والطيور الجارحة فى تماثيل دقيقة وبأوضاع مختلفة . وقد إمتاز فنه بالتنوع حتى أننا لم نربين هذه الآنية التى قمنا بدراستها إناءاً يشبه الآخر .

نظر المصرى إلى ماحوله من نبات وزهر وإمكان الإفادة مما خلقه الله فى هذه الأعشاب والأشجار من رائحة زكية ، ولماذا لا يتخذ منها عطراً طيبا يملأ نفسه إنشراحاً ، كما أرسلت البعثات إلى بلاد (بنت) أيام الملكة حتشبسوت لاستحضار النباتات العطرية ، كذلك وفد إلى وادى النيل من آسيا الكثير من العطو الآسيوية .

أما عن الضوء الذى ألقته الحضارة المصرية على غيرها من الحضارات فى الشرق القديم فأمر ذلك واضح مما خلفه الناس من هذه الشعوب من قوارير خاصة بالزيت العطرى ومغارف ومرايا الخ ... استخدمها سكان الشرق القديم فى كثير من بقاع فلسطين وسوريا . وتلك صور من الحياة المصرية نقلت إلى بلدان الشرق لتكون دليلا على مقدار تأثر الناس بالحياة المصرية الرفيعة . فهذا أحد الأمراء الاسيويين حينما جاءه سفير مصر (ون آمون) تعترف له بما يلى ويقول « أن آمون أنشأ كل البلاد ، ولكنه أنشأ من قبل أرض مصر التى أتيت منها . لقد أتت منها الصناعة لتصل الى مكانى ، لقد اتت الحكمة منهما لتصل إلى مكانى . . . مامن سفينة فى النهر ليست لآمون. إن البحر ملك له . . » ومن ذلك نرى اعتراف بزعامة مصر فى العلم والصناعة .

وبعد أرجو أن أكون قد وفقت فى تلك النظرة العابرة إلى إظهار بعض معان هذه التحف الفنية الخاصة بأدوات الزينة فى مصر الفرعونية .

دكتور عبد الحميد زايد

الأستاذ المساعد
بكلية الآداب جامعة القاهرة

« أحمد كمال العالم الأثرى الأول فى مصر »

اختفت الآثار المصرية فى زوايا الإهمال والنسيان ، وتعرض جانب كبير منها للتدمير والضياع ، بعد أن قضى خلال القرن الرابع الميلادى على الديانة الوثنية فى مصر ، وحلت محلها المسيحية ثم الإسلام . وانزوت مصر الفرعونية خمسة عشر قرناً ، وطوى الماضى المزدهر السحيق لتحل محله أحاديث وقصص تقوم على الخرافات والأراجيف ، وتعتمد على الخيال .

ظل الأمر كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر حين بدأ العلماء فى البحث والكشف عن تلك الآثار ودراستها دراسة علمية سليمة ، وظهر علم الآثار المصرية (إيجيبتولوجى) وأخذ فى النمو والإزدهار ، مما أتاح إعادة كتابة التاريخ المصرى القديم ، والكشف عن أصول الحضارة المصرية . وقد تم إزدهار ونمو هذا العلم الناشىء ، الذى لا يزيد عمره على قرن ونصف من الزمان فى خطوات ثلاث متعاقبة .

جاءت الخطوة الأولى مع حملة نابليون على مصر فى أواخر القران الثامن عشر ، إذ أحضر معه طائفة من العلماء درسوا مصر دراسة علمية شاملة ، وكان فيما درسوه آثار البلاد ومعالمها التاريخية ، وأخرجوا نتيجة أبحاثهم ودراستهم فى كتاب علمى ضخم هو كتاب « وصف مصر » ، الذى نشر فى باريس ما بين عامى ١٨٠٩ ، ١٨١٣ . ويعد ما جاء فى هذا المؤلف الكبير عن آثار مصر وما تضمنه من رسوم وخرائط وصور بداية الأعمال العلمية التى تهدف إلى دراسة مصر القديمة دراسة وافية منظمة .

ويشاء القدر أن تضيف الصدفة حسنة أخرى إلى أعمال الحملة الفرنسية إذ عثر أحد رجال الحملة سنة ١٧٩٩ على الأثر المعروف بحجر رشيد . وقد بدأت الخطوة الثانية فى نهضة علم الآثار المصرية حين أقبل الكثير من العلماء على هذا الحجر ، تجتذبهم الفرصة المتاحة لمقارنة الكتابات الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية المسجلة عليه ، والمتفقة معنى ونصا وإن اختلفت لغة وخطا . وانتهى الأمر بنجاح العالم الفرنسى « جان فرنسوا شمبليون » فى

الكشف عن أصول الكتابة واللغة المصرية القديمة . ومنذ ذلك الوقت بدأ العلماء فى قراءة وترجمة الوثائق المصرية ، وتقدمت الدراسات اللغوية ، مما أدى إلى انقشاع الغموض الذى كان يحيط بحياة المصريين القدماء وبتاريخهم وحضارتهم .

وقد مهد الكشف عن أصول اللغة المصرية إلى الخطوة الثالثة التى تجلت فى اهتمام الجامعات والمؤسسات العلمية بالآثار المصرية ، وبدأت مرحلة الكشف عن الآثار وصيانتها ودراستها ، ففتحت المقابر ورممت المعابد وجمعت أوراق البردى واكتظت المتاحف بالآثار ، كما سلطت على مصر القديمة أشعة مناهج البحث العلمى الحديث . وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى ظهور عدد كبير من العلماء خلال القرن التاسع عشر والعشرين بذلوا جهوداً جبارة فى التنقيب المنظم عن الآثار وفى تسجيلها ووصفها وقراءة ما بها من نصوص ، ثم دراسة وتحليل ما كشفوه وسجلوه وترجموه ، مستهدفين فى ذلك إستنباط معالم التاريخ المصرى القديم ومقومات الحضارة المصرية القديمة .

وكان من بين علماء الجيل الأول العالم الألمانى هنرى بروكش (باشا) الذى ولد سنة ١٨٢٧ وتوفى سنة ١٨٩٤ ، والذى يعد من رواد اللغة الديموطيقية إذ ألف كتاباً عن أجروميتها سنة ١٨٥٥ ، كما ألف قاموساً فى اللغة الهيروغليفية فى سبعة أجزاء ما بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٨٢ ، وألف قاموساً جغرافيا لمصر القديمة ، وقام ببحوث ممتازة فى تاريخ مصر وجغرافيتها القديمة . وقد أنشأ هذا العالم الألمانى الكبير أول مدرسة للدراسات الأثرية بالقاهرة سنة ١٨٦٩ ، ظل مديراً لها حتى أغلقت بعد بضع سنين .

كان بين طلبة تلك المدرسة العالم الأثرى الكبير المرحوم أحمد كمال (باشا) ، وهو أول مؤرخ عربى ـ منذ الفتح الإسلامى لمصر ـ كتب فى تاريخ مصر وحضارتها القديمة كتابة علمية سليمة ، وإمام الرعيل الأول من الأثريين المصريين . ولذا رأيت من واجبنا أن نعلم شيئاً عن مثل هذا الرجل الذى كرس حياته للعلم ، وترك وراءه ذخيرة علمية ثمينة من بحوث ودراسات ، ظل عاكفاً عليها ، حفياً بها ، يوليها أطيب أوقاته ، حتى صعدت روحه إلى

بارئها . إن معرفة ما قام به مثل هؤلاء الرجال ، واطلاع الجيل الحاضر عليه ، لواجب مقدس ، يمليه علينا صوت الحق والعدل ، ويحتمه الوفاء والعرفان الجميل .

***

ولد أحمد كمال بالقاهرة فى التاسع والعشرين من شعبان سنة ١٢٦٧ هجرية (عام ١٨٤٩ الميلادى) ، والتحق بمدرسة المبتديان الإبتدائية بالعباسية ، ثم بالمدرسة التجهيزية التى كان مقرها إحدى الثكنات العسكرية بالعباسية ، (وهى تقابل المدارس الثانوية اليوم) ، وتعد الطلبة للالتحاق بالمدارس العليا . ثم درس بمدرسة الألسن أو مدرسة « بروكش » للآثار واللغة القديمة .

وقد عمل قبل أن يلتحق بمصلحة الآثار فى جهات متعددة ، فكان معاوناً ومترجماً فى نظارة المعارف ، ومعلماً للغة الألمانية بالمدارس الأميرية بالقاهرة والإسكندرية ، ومترجماً للغة الفرنسية بمصلحة وابورات البوستة وبديوان البحرية وبعموم الجمارك وبنظارة المالية . ولكن شغفه بالآثار جعله يترك هذه الوظائف رغم ما كان يجنيه من مكاسب مادية ، ويلتحق بوظيفة كاتب بمصلحة الآثار ، ثم لم يلبث أن شغل منصب مترجم بالأنتكخانة المصرية مع وظيفة معلم لغة قديمة بها . ولما خلت وظيفة أمين مساعد بالمتحف المصرى تمكن من الفوز بها ، وكان أول مصرى يتقلد هذا المنصب . وقد ظل يعمل بمصلحة الآثار حتى اعتزل العمل سنة ١٩١٤ ، وهو فى الخامسة والستين من عمره .

وقام أحمد كمال أيضاً بتدريس اللغة المصرية القديمة والحضارة المصرية فى مدرسة المعلمين (العليا) وفى الجامعة المصرية الأهلية ، وكان عضواً بمجلس المعارف وبالمجمع العلمى المصرى وبالمجمع اللغوى الذى أسسه جماعة من المهتمين باللغة العربية سنة ١٨٩٢ . وقد منح أثناء حياته الكثير من الرتب والنياشين : أنعم عليه برتبة الباكوية ثم الباشوية ، وتقلد نياشين كثيرة منها النيشان العثمانى من الدرجة الرابعة ثم الثالثة والنيشان المجيدى من الدرجة الثالثة ، كما منح لقب أمين متحف شرف بعد إحالته على المعاش .

وتوفى أحمد كمال عن أربعة وسبعين عاماً فى ٥ أغسطس سنة ١٩٢٣

بمنزله بأهرام الجيزة ، وهكذا طويت حياته بعد أن ترك صفحة خالدة فى سجل العلم . لقد عاش أحمد كمال فى زمن لم يعرف فيها المصريون أهمية الآثار وقيمتها ، ولم يعنوا العناية اللازمة بها ، فى فترة حتكر فيها الأجانب العلم وتولوا المناصب الكبيرة فى البلاد ، مما عرضه للكثيرمن المتاعب والمضايقات ، ومع ذلك فإنه لم يضعف أمامها ولم تعقه العقبات التى وضعت فى طريقه ، بل صمد ونجح فى صموده بفضل ما اكتسبه فى حياته من تجارب وتدريب وخبرات ، وبفضل إيمانه بعظمة مصر القديمه ورقى حضارتها ، وبفضل إلمامه بالكثير من اللغات الحديثة كالفرنسية والإنجليزية والألمانية بجانب العربية والتركية وبعض اللغات السامية ، وبفضل إطلاعه على ما وصل إليه علماء الغرب من أبحاث فى اللغة والتاريخ والحضارة والديانة وجغرافية البلاد القديمة، وأخيراً بفضل ما جبل عليه من إخلاص ودقة فى العمل وجد وتفان فى البحث وشغف وميل للدراسة والتحصيل .

والآن بعد أن ألممنا إلماماً عاماً بتاريخ حياة « أحمد كمال » لنتحدث الآن عن أياديه البيضاء فى ميدان الآثار ، وسأقسم هذا المجال الواسع إلى ثلاث نواح رئيسية :

أولا : جهوده العلمية وما تركه لنا من كتب ودراسات وأبحاث .

ثانياً : جهوده العمليـة فى المتاحف والحفائر والرحلات الإستكشافية والتفتيشية .

ثالثاً : جهوده فى نشر الثقافة الأثرية فى البلاد ، وجهاده فى سبيل تخريج وتشجيع الأثريين من المصريين .

* * *

ألف أحمد كمال عدداً كبيراً من الكتب باللغة العربية ، كما ترجم وألف باللغة الفرنسية كذلك . وسنتحدث الآن بايجاز عن كتبه التى أخرجها باللغة العربية وهى حسب ترتيب صدورها :

١ — « كتاب العقد الثمين فى محاسن وأخبار وبدائع آثار الأقدمين من المصريين » وقد تناول فى هذا الكتاب — الذى بلغت عدد صفحاته ٢٢٤ صفحة —

تاريخ مصر الفرعونية بإيجاز مع الاهتمام بالنواحي الحضارية . تحدث فى مقدمة الكتاب عن فائدة التاريخ وعن أصل المصريين وحدود مصر وأقسامها الإدارية وعن النيل واسمائه وفروعه ومصباته وعن تقسيم التاريخ الفرعونى إلى أسرات ملكية . ثم تناول فى متن الكتاب أحداث وتاريخ أسرة بعد أسرة وملك بعد ملك ، مدوناً أسماء وألقاب كل فرعون ومدة حكمه . وتخلل هذا السرد التاريخى فصل عن العلوم فى الدولة القديمة وآخر عن أعياد ومواسم المصريين القدماء ، كما ختم الكتاب بفصل عن الحروف الهيروغليفية وكيفية قراءتها .

٢ — « كتاب الفوائد البهية فى قواعد اللغة الهيروغليفية » وهو كتاب ضخم يتناول قواعد وأصول اللغة الهيروغليفية وطريقة الكتابة المصرية القديمة ، سار فى تبويبه وتنظيمه على أسس وقواعد اللغة العربية ، لا كما يفعل العلماء الآن حين يبحثون فى قواعد اللغة المصرية القديمة فيقربون بينها وبين أجروميات اللغات الأفرنجية . وقد تناول فى الباب الأول من هذا الكتاب الإسم وتحدث عن نوع الإسم (مذكر ومؤنث) وأحوال الإسم (مفرد ومثنى وجمع) وأقسام الاسم (جامد ومشتق وبسيط ومركب) وتحدث عن إداة التعريف وأسماء الأعلام وأسماء الإشارة القريبة والبعيدة والضمائر المتصل منها والمنفصل والصفات والنسبة والتشبيه والتفضيل ومبالغة التفضيل ثم تناول الأعداد الأصلية والتركيبية والعمليات الحسابية والمقاييس والمكاييل والموازيين وكذا ظرف الزمان والمكان وأسماء الإستفهام . وتحدث فى الباب الثانى عن الفعل والفاعل والمفعول والمصدر وإسم الفاعل وإسم المفعول وعن تكوين الأزمنة وصيغها وعن الأفعال المساعدة والتعدية والبناء للمجهول . وتحدث فى الباب الثالث عن الحروف فتكلم عن حروف الجر والاستثناء والعطف والتعليل والتشبيه والنفى والتمنى والترجى والتنبيه والنداء والإضافة . وافرد فى نهاية الكتاب جانباً للتحدث عن خطوط اللغة المصرية من هيروغليفية وهيروغليفية مختصرة وهيراطيقية وديموطيقية وقبطية ، كما أعطى جــــدولا بالإشارات الهيروغليفية بمختلف أنواعها وأقسامها ، وأرفق بهذا كله بعض التمارين للمطالعة والترجمة وكذا قاموساً صغيراً للكلمات الهيروغليفية الهامة ومعانيها والنطق القبطى لها .

٣ — « كتاب اللالى الدرية فى النباتات والأشجار القديمة المصرية » وهو عبارة عن معجم فى ٣١٦ صفحة للنباتات القديمة مرتباً حسب الحروف الأبجدية، وبه أسماء النباتات باللغة الهيروغليفية ومرادفاتها العربية والفرنسية، وأحياناً القبطية أو الديموطيقية أو العبرية أو اليونانية . ومما هو جدير بالذكر أن مركز تسجيل الآثار أدرك أهمية حصر وتحقيق النباتات والحيوانات فى مصر القديمة فكلف سنة ١٩٥٧ المرحوم الدكتور لويس كايمر بعمل قاموس واف عن نباتات مصر القديمة وحيواناتها . وقد تم عمل تخطيط شامل لذلك القاموس وأخذ الدكتور كايمر ومساعده فى تدوين عدد من البطاقات تختص كل منها بنبات أو حيوان ولكن الدكتور كايمر — للأسف الشديد — مرض وتوفى قبل إتمام هذا العمل الكبير .

٤ — « كتاب بغية الطالبين فى علوم وعوائد وصنائع وأحوال قدماء المصريين » ويقع فى ٥٨٤ صفحة من الحجم الكبير ، كما تضمن أكثر من ٣٠٠ رسم توضيحى . وقد تناول أحمد كمال فى هذا الكتاب علم الميقات وعلم الفلك وعلوم الرياضة عند المصريين، ثم تحدث عن ديانة قدماء المصريين وعقائدهم فى الآلهة والروح . وأفرد باباً خاصاً لعلم الطب المصرى القديم مهد له بكلمة عن أوراق البردى الطبية ثم تحدث فى كافة الموضوعات الطبية كمعالجة الحروق ومداواة الجروح وعلاج الأسنان والكبد والأذن والأدوية المفيدة للجلد والمراهم المزيلة للآلام ... ألخ . كذلك أفرد فى هذا الكتاب باباً للمعادن والأحجار المصرية القديمة وآخر للنباتات وثالث للحيوانات . وكان أحمد كمال حريصاً فى جميع هذا الأبواب على كتابة أسماء هذه المواد باللغة المصرية القديمة مع مراعاة الترتيب الأبجدى .

٥ — « كتاب ترويح النفس فى مدينة الشمس المعروفة الآن بعين شمس » وقد تحدث فى هذا الكتاب الذى بلغ عدد صفحاته ٢١٠ صفحة عن تأسيس تلك المدينة ، وأسمائها القديمة، وتاريخها ، ومعابدها ، ومعبوداتها ، ونظرياتها الدينية ، ثم عن انحطاطها ، وحالتها الحاضرة ، وآثارها وأطلالها الحالية ، والحفائر التى أجريت بها . وتحدث فى هذا الكتاب عن علوم التقويم والفلك والتنجيم وهى علوم برع فيها كهنة هذه المدينة . وقد فند فى هذا الكتاب الرأى

الخاطىء القائل بأن العبرانيين هم الذين أسسوا هذه المدينة أثناء أسرهم بمصر، كما نصح الحكومة بعدم بيع أراضيها بعين شمس إلا إذا اشترطت أن يصبح كل ما يوجد بها من آثار حقاً خالصاً لها .

٦ — « كتاب الدرر النفيس فى مدينة ممفيس » وهو كتاب صغير تحدث فيه عن تأسيس المدينة فى عهد مينا ، وعن أسمائها القديمة ، وأقاليمها ، وأهمية موقعها الجغرافى ، وتاريخها . وقد أشار فى سياق الحديث إلى أن الوضع الطبيعى لعاصمة البلاد هو غرب النيل حيث الوادى المتسع والخير الوفير ، وأنه لم يتخذ عاصمة لمصر فى شرق الوادى إلا كل غريب عن البلاد .

٧ — « كتاب الحضارة القديمة فى مصر والشرق » وهو عبارة عن مجموعة المحاضرات التى ألقاها فى الجامعة المصرية الأهلية . تحدث فى المقدمة عن معنى الحضارة والمذاهب المختلفة فى أسباب ظهورها وكيفية إنتشارها ، وعن الجغرافيا الرياضية عند المصريين ، وعن النيل ، وأصل المصريين ومن أين وفدوا ، وعن أطوار الحضارة الأولى فى العصور الحجرية والعصر العتيق . وتحدث فى متن هذا الكتاب عن الآثار المصرية بأنواعها المختلفة ، وعن أسماء مصر وإشتقاقاتها ، وعن أقاليمها وعن الزراعة والتجارة والملاحة والمعارف والفنون ونظام الحكم والكتابة والديانة والسحر والطب ، كما تناول بالدراسة تاريخ الدولتين القديمة والوسطى .

٨ — « كتاب الدر المكنوز والسر المفروز فى الدلائل والخفايا والدفائن والكنوز » وقد أخرجه فى جزئين الأول باللغة العربية والثانى ترجمة للجزء الأول باللغة الفرنسية . وقد تحدث فى هذا الكتاب عن المساجد والكنائس والآبار والكهوف القديمة فى جهات ومدن مصر المختلفة .

هذه هى كتب أحمد كمال فى اللغة العربية وهى التى أرجو أن يعاد طبعها حتى يسهل الإطلاع عليها وقد قام بجانب هذا بترجمة دليلى متحفى القاهرة والإسكندرية من اللغة الفرنسية إلى العربية ، كما نشرت له مقالات فى بعض المجلات العربية كالمقتطف والمنار .

أما مؤلفاته الفرنسية فأهمها كتابان يدخلان فى نطاق الكتالوج (أو الفهرست) العام لمتحف القاهرة ، ذلك المجهود العلمى الضخم الذى اشترك فيه

عشرات من العلماء ، وكان أعظم شرف لعالم الآثار وقتئذ أن يشترك فى وضع هذا الكتالوج ، الذى كان ولا يزال من أهم مراجع الآثار المصرية .

تناول الكتاب الأول لوحات القبور Stèles hiéroglyphiques d'Epoque Ptolémaique et Romaine التى ترجع إلى العصر اليونانى الرومانى ، فقام بوصف وتسجيل نصوص ٢٠٨ من هذه اللوحات مع تدوين ملاحظاته عنها فى الجزء الأول ، وافرد الجزء الثانى لصورها .

ودرس فى الكتاب الثانى موائد القرابين Tables d' Offrandes من الدولة الوسطى حتى العهد الرومانى ، فتناول فى الجزء الأول ٢٥٦ مائدة قرابين بالوصف والنسخ وتقرير حالتها ومستواها الفنى ، وأفرد الجزء الثانى لصورها .

كذلك قام بكتابة ما يقرب من ستين مقالا باللغة الفرنسية ، خص منها مجلة مصلحة الآثار أربعون مقالا ، ووزع الجزء الثانى على المجلة الفرنسية للآثار ومجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ومجلة المجمع العلمى .

وقد تناولت بعض هذه المقالات موضوعات دينية، وتحدث فى مقال منها مثلا عن الأقزام المقدسة فى أماكن مختلفة من العالم ، وتناول فى مقال آخر «نظريات قدماء المصريين فى طريقة خلق العالم» بالبحث والدراسة . وخصص بعض المقالات لوصف بعض الآثار التى اكتشفها أو عثر عليها ، فحرص على تسجيل نصوصها وتدوين ملاحظاته العلمية عنها . وتناولت مقالات أخرى الجغرافية التاريخية لمصر وطبوغرافيتها القديمة : فكتب مقالا فى خمس وأربعين صفحة عن أصل كلمة مصر والأسماء الجغرافية التى تعبر عن ذلك وسكانها الأصليين وتحدث فى بعض مقالاته عن مدن مصرية من حيث موقعها وأصل إسمها وتاريخها وآثارها وجباناتها والحفائر التى أجريت بها ، موضحاً ذلك بالرسوم والخرائط، منها مقال عن مدينة سمنود القديمة ، وآخر عن الحيبة ، وثالث عن بوتو (تل الفراعين) ، ورابع عن هليوبوليس (عين شمس) ، وخامس عن منطقة البرلس ، وسادس عن بعض الأماكن الأثرية فى الوجه البحرى ... الخ .

وتناولت بعض مقالاته الحفائر التى أجراها أو أشرف عليها أو تقارير عن

الرحلات التفتيشية والاستكشافية التى قام بها . أما أهم مقالاته فهى التى تناولت موضوعات لغوية : تحدث فى مقال من أربعين صفحة عن أسماء ملوك مصر التى وردت فى المخطوطات العربية مع التعليق عليها والبحث عن أصلها ، وتحدث فى مقال آخر من خمس وثلاثين صفحة عن أسماء الملابس عند المصريين القدماء مع مقارنتها بالمرادفات العربية ، وأفرد مقالا ثالثاً لأصنام العرب محاولا الربط بين أسمائها وبعض ألفاظ اللغة المصرية القديمة أو إيجاد صلة بينها وبين المعبودات المصرية ، وفى مقال رابع تناول بالدراسة أصل كلمة مصر .

والآن لنتحدث عن أهم وأثمن ما كتبه وهو « المعجم المصرى القديم » ، الذى لا يزال مخطوطاً فى ٢٢ جزء لم يطبع للان ، والذى يجمع مفردات اللغة المصرية وما يقابلها بالعربية والفرنسية والقبطية والعبرية .

هذا المعجم يرتبط بناحية اهتم بها أحمد كمال وهى مدى صلة اللغة المصرية القديمة باللغات السامية بوجه عام واللغة العربية بوجه خاص . فقد لاحظ العلماء منذ منتصف القرن التاسع عشر فى قواعد اللغة المصرية القديمة الشىء الكثير من مظاهر وخصائص اللغات السامية : من ذلك اعتماد اللغة المصرية على الحروف الساكنة وخلوها من المتحركة ، وتشابه صيغ الفعل وأزمانه مع الفعل السامى ، واشتمالها للمثنى بجانب المفرد والجمع ، ولظروف الزمان والمكان ، ولياء النسب وتاء التأنيث والضمائر المتصلة ، ثم استخدام اللغة المصرية الجمل الفعلية بجانب الإسمية ، كما لوحظ أن الكثير من ألفاظ اللغة المصرية قريب فى تركيبه ونطقه من مرادفاتها السامية .

وهذا الميدان الواسع المتشعب لا يمكن أن يطرقه إلا عالم ملم باللغة المصرية واللغات السامية وخاصة العربية إلماماً كبيراً ، وقد طرق أحمد كمال هذا الميدان ، وتناول العلاقة بين اللغة المصرية والعربية فى محاضرة ألقاها بمدرسة المعلمين الناصرية سنة ١٩١٤ جاء فيها :

«اعلموا أيها السادة أن كثرة مطالعتى فى اللغة المصرية القديمة منذ كنت فى الثامنة عشرة من عمرى إلى أن بلغت الستين مهدت لى سبيل الوصول إلى اكتشاف غريب مفيد ألا وهو أن اللغة العربية واللغـــة المصرية القديمة من أصل واحد ... ... » .

ثم جاء فى هذه المحاضرة :

« ولما وقفت على أصول اللغتين العربية والمصرية وعلى ما فيهما من القلب والإبدال أمكننى الخوض فى مقارنتهما بالبراهين القاطعة التى تظهر لنا حقائق المعانى وتبين لنا فحوى النصوص التى وضعت . لا أفتخر بذلك ولا أبرىء نفسى من الغلط فى مثل هذا المجال الواسع ولكنى سلكت طريقاً أضمن وأرقى من غيره وهو تطبيق اللغة المصرية القديمة على اللغة العربية مع بيان القلب والإبدال فى بعض كلماتها ، اقتداء بالمصريين أنفسهم ، حتى تظهر لنا حقيقة المعنى لوجودها محفوظة فى اللغتين ... ... » .

وعلى هذا الأساس بدأ أحمد كمال فى كتابة معجمه الذى استغرقت كتابته ، مايقرب من عشرين عاماً ، وأخرجه فى ٢٢ جزءً ، ويتضمن كل جزء أحد الحروف الهيروغليفية . وكانت طريقته فى هذا المعجم أن يدون الكلمات الهيروغليفية — وقد يسجل أحياناً النصوص التى احتوتها — ثم يذكر مرادفاتها العربية والفرنسية والقبطية والعبرية . ولنضرب مثلا بحرف الـ « س » فقد تضمن المجلد الخاص بهذا الحرف ١٠٧٢ صفحة من القطع الكبير حافلة بالمعلومات والمقارنات والملاحظات .

وقد انتهى أحمد كمال من معجمه تقريباً قبل أن يظهر قاموس إرمان «وجرابو» الصغير سنة ١٩٢١ ، كما أن المعجم المصرى الكبير المعروف بقاموس برلين ، الذى أخرجه المجمع العلمى البروسى جامعاً بين الكلمات المصرية والقبطية والألمانية ، لم يظهر إلا فى الفترة بين ١٩٢٦ ، ١٩٣١ أى بعد بضع سنوات من وفاة المرحوم أحمد كمال .

وتقدم أحمد كمال قبل وفاته ببضعة أشهر إلى وزارة المعارف طالبا طبع المعجم على نفقتها ، فأحيل جزء منه وهو المتضمن حرف « القاف » إلى مدير المطبوعات وكان إنجليزيا فى ذلك الوقت ، فأحاله إلى كبير الأمناء بمصلحة الآثار العالم الإنجليزى « فرث » ليبدى رأيه فيه . وقد أشرك «فرث» معه فى هذا الموضوع ، العالم الفرنسى « لاكو » مدير مصلحة الآثار وقتذاك ، وعالم الآثار الأمريكى « ريزنر » الذى كان يدير حفائر جامعة « هارفرد » بمنطقة أهرام الجيزة ، وقد حبذ الأمريكى طبع المعجم ورفض الفرنسى ذلك ، وامتنع

الإنجليزيان عن إبداء الرأى ، وهكذا قضى على هذا المعجم بأن يطوى فى زوايا النسيان .

وإنى لأنتهز هذه الفرصة فاطالب باعادة النظر فى أمر نشر هـــذا المعجم بعد تحقيق بعض ما أجراه من مقارنات بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية وسائر اللغات السامية . وهذا أمر طبيعى فالمعاجم فى حاجة دائماً إلى التنقيح والتعديل والإضافة . وأتوجه برجاء خاص إلى السيد رئيس الجمعية الدكتور أحمد بدوى أن يعنى بهذا الموضوع ، فهو يهتم إهتماما كبيراً بالمعاجم والقواميس ، وقد سمع معظمنا عن المعجم الذى أخرجه سيادته منذ بضع سنوات بعنوان « المعجم الصغير فى مفردات اللغة المصرية القديمة » ، كما كان دائما شديد الإيمان بالصلة القوية بين اللغة المصرية القديمة واللغات السامية وخاصة العربية ، وقد انعكس هذا الإيمان فى محاضراته فى معهد الآثار المصرية فى اللغة الهيروغليفية التى كانت تتضمن نماذج عديدة من الكلمات المتقاربة فى التركيب والنطق فى اللغتين المصرية القديمة والعربية ، كما ألقى سيادته فى ٤ فبراير سنة ١٩٦١ بحثاً قيما فى مجمع اللغة العربية بعنوان « اللغة المصرية القديمة وصلتها باللغات السامية » . إنى أطمع فى أن يولى هذا الموضوع شيئاً من اهتمامه.

* * *

هذا مجمل لنشاط المرحوم أحمد كمال العلمى ، وموجز لما قام به فى ميادين البحث والدراسة والتأليف ، وقد شمل نشاطه كافة نواحى علم الآثار من لغة وتاريخ وحضارة وفن ودين ، والآن لننظر قليلا فيما قام به من مجهودات عملية فى ميدان الآثار .

قام أحمد كمال بجولات استكشافية وتفتيشية فى كافة المناطق الأثرية بالبلاد ، كتب عنها تقارير هامة مفيدة .

وأسهم أحمد كمال فى التنقيبات والحفائر التى أجريت فى عشرات من المواقع الأثرية ، وخاصة فى مصر الوسطى ، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر حفائر البرشه ، وعرب البرج ، وأطفيح ، والشيخ سعيد ، ومير ، ودير

الجبراوى ، ودرنكة ، وبالقرب من ديروط ، ودمة فى شمال بركة قارون . وقد كتب عدداً من التقارير الممتازة عن هذه الحفائر فى مجلة مصلحة الآثار ، من أمتعها تقاريره عن حفائرة قرب ديروط التى شغلت مايقرب من ١٤٠ صفحة من اعداد تلك المجلة .

كذلك قام أحمد كمال بالدور الرئيسى فى العثور على موميات الفراعنة التى كانت مكدسة بمخبأ الدير البحرى بغرب طيبه .

وبذل أحمد كمال جهداً كبيراً فى سبيل نقل آثار المتحف المصرى ، وفى تنظيمها وترتيبها عندما نقلت من متحف بولاق إلى متحف الجيزة سنة ١٨٩٠م ثم عندما نقلت من متحف الجيزة إلى المتحف الحالى سنة ١٩٠٠ .

كذلك جاهد أحمد كمال لإنشاء المتاحف الأقليمية فى عواصم الأقاليم ونجح فى إنشاء متاحف أسيوط والمنيا وطنطا . وانى أنقل هنا جانبا من مقال كتبه فى هذا الشأن فى جريدة الأهرام ، موجهاً الحديث فيه إلى مديرى المديريات :

«فياأيها المديرون ، أهل الفضل والمعارف، القائمون باصلاح شئون البلاد، المعهود إليكم أمرها وتقدمها ، أسوق إليكم حديثى هذا لبذل كل ماتستطيعون من الوسائل لإنشاء المتاحف ودور الكتب والمكتبات الفردية . هذا ولا يخفى أن مجالس المديريات والبلديات يمكنها القيام بصرف ماتحتاج إليه هذه المتاحف ودور الكتب والمكتبات الفردية لانه أمر متيسر لكل مدير غيور على بلاده. فالمتاحف لا تكلفهم شيئاً ، فان المتحف المصرى العام عليه أن يورد الآثار التى لا تفيده والتى يبيعها الآن للاجانب فى قاعة المبيعات بأبخس الأثمان وأن يعطهم القواعد والنصبات والدواليب وأنواع الأثاث المودعة فى المخازن بلا فائدة. وليكن لكل مدير الحق فى حفظ كل شيء يجده السباخة فى الخرائب والاطلال من الآثار التى تبدو يدون ثمرة ولا فائدة ، وبذلك تصبح كل مديرية حافظة لآثار سكانها القدماء تنافس أختها فى التقاط ما يؤخذ منها أثناء السباخ »

وهذا المقال يبين لنا فى نفس الوقت ماأبداه هذا العالم من سخط على خروج آثار مصر القيمة إلى الخارج بلا رابط أو ضابط .

* * *

ناحية ثالثة بذل فيها أحمد كمال جهداً كبيراً بجانب الناحيتين العلمية والعملية هى سعيه فى نشر الثقافة الأثرية ، وتبصير المصريين بعظمة بلادهم السابقة ، ومحاولة خلق جيل ناشىء من الاثريين المصريين يعملون فى حقل الآثار الذى كان قاصراً فى ذلك الوقت على الأجانب .

ولقد كانت مهمته شاقة صعبة إذ كان الوعى الأثرى شبه معدوم والعناية بالآثار ودراستها أموراً غير مألوفة ، وسأقدم على سبيل المثل جانبا مما كتبه المرحوم محمد المويلحى فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » منددا بالآثار الفرعونية ، متندراً بمعرفة أحمد كمال باللغة الهيروغليفية إذ قال :

« ولو أنك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحداً واحداً لما استفادوا منها شيئاً ، ولا أفادوك عنها شيئاً ، ولما وجدوا لها قيمة تذكر سوى النزر اليسير من المقلدين للغربيين . ولن تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه لغة الهيروغليف أعنى لغة أبائهم وأجدادهم كما يزعم الزاعمون ، مع كثرة الخبيرين بها من الامم الغربية ، والله أعلم بمقدار علمه بها .

ولو تمنيت الامانى لقلت عسى الله أن يخفف بقيمتها الغالية بعض ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون وما على المصريين من أعباء الضرائب والمكوس . وياليت المصريين يخرجون عنها لا عليهم ولا لهم ، فانها تكلف الامة المصرية نفقات على البحث عنها فى خفايا الارض وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أماكنها إلى المتحف ، وناهيك بنفقات المتحف التى أنفقتها الحكومة أولا على متحف بولاق وثانيا على متحف الجيزة وما تنفقه ثالثا على المتحف الجديد بقصر النيل فانها تعد بالملايين » .

ويرجع إلى أحمد كمال فضل السعى لدى ناظر المعارف أحمد حشمت باشا لإنشاء فرقة لدراسة علم الآثار المصرية بمدرسة المعلمين الخديوية . وقد كلل سعيه بالنجاح فأنشئت أول فرقة ، التحق بها المرحوم أحمد عبد الوهاب باشا والمرحوم الدكتور سليم حسن والمرحوم رياض جندى ملطى والمرحوم أحمد البدرى والسادة رمسيس شافعى و « محمود حمزة » كما إلتحق بالفرقة الثانية المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال . وكان أهم أغراض هذه الفرقة دراسة الآثار والتاريخ المصرى القديم وذلك لإعداد موظفين.

ولما أكملت الفرقة الاولى دراستها سنة ١٩١٢ ونالت دبلوم مدرسة المعلمين الخديوية حاول أحمد كمال إلحاق بعض أفرادها بالمتحف المصرى ولكنه لم يوفق فى هذا السبيل للعراقيل التى أقامها الأجانب فى سبيل ذلك، فاشتغل خريجوا الفرقة بالتدريس حتى أوفدت منهم وزارة الأشغال (التى كانت تتبعها .صلحة الآثار حينئذ) سنة ١٩٣٢ سليم حسن إلى باريس، ومحمود، وحمزه إلى لفربول ثم باريس كما أرسلت سامى جبره إلى لفربول وعباس بيومي إلى باريس ليستكمل الجميع دراستهم فى الأثار .

ولما اكتشفت مقبرة توت عنخ آمون شتاء ١٩٢٢ – ١٩٢٣ أثار اكتشافها إهتمام مصر والعالم بأجمعه ، ففكرت وزارة المعارف فى إعادة إفتتاح تلك الفرقة بمدرسة المعلمين، وتم ذلك فى يناير ١٩٢٤ ، والتحق بها بعض الطلبة الحاصلين على البكالوريا . وحين صدر المرسوم الملكى بانشاء الجامعة المصرية ١٩٢٥ تقرر أن يكون من أقسام كلية الآداب قسم للاثار ، وألحقت تلك الفرقة بكلية الآداب فى أكتوبر سنة ١٩٢٥ .

* * *

هــذا هو تاريخ أحمد كمال الذى ارتقى سلم المجد على درجات العلم والكفاح . والذى أوقف حياته على خدمة الآثار ، وظل رغم شيخوخته وحتى أيامه الاخيرة مثابراً على الكتابة والبحث والتأليف ، والذى كشف عن عظمة وبهاء الحضارة المصرية ونظر فى أحوالها الإقتصادية والفكرية والفنية والإجتماعية ، كما نظر فى حياتها السياسية ، والذى أدرك أن طبيعة عمل الأثريين المصريين ليس مجرد التحفظ على بقية من آثار حدث على مر القرون والدهور أو مجرد تفاخر على بقية العالم بما كانت عليه بلادنا حين شقت حضارتها على بقية البلدان ، وإنما هو عمل ودراسة وبحث وتحليل وصقل وتقويم ، ينعكس على الشعب فى شكل ثقافة وعزة تدفعه إلى الأمام .

ومع ذلك فحين توفى أحمد كمال لم تنعه مجلة مصلحة الآثار بكلمة واحدة رغم ماجرت عليه من عادة نعى كل عالم أجنبي فى صفحات طوال . ولم تنعه من عشرات المجلات العلمية سوى مجلة المجمع العلمى ومجلة الآثار المصرية البريطانية وكان ذلك فى بضعة سطور .

وكل زائر للمتحف المصرى يرى أسماء ثمانية عشر عالما أثرياً مسجلة على واجهة المتحف ، ليس من بينها اسم أحمد كمال كما يقابل الزائر فى حديقة المتحف المصرى تمثال وتابوت مرييت . وفى داخل المتحف سبعة عشر تمثالا لكبار الأثريين الأجانب ، وليس من بينهم بالطبع تمثال « أحمد كمال » . بل لقد طالب بعض المختصين بوزارة المعارف بعمل تمثال له ، وفعلا أقامت الوزارة له تمثالا جصيا ، ولكنه أودع متحف التعليم . وإنى لأرجو تدارك ذلك حين إنشاء متحف الأثار الجديد .

* * *

أرجو أن يرسم الجيل الناشىء من الأثريين سيرة هذا الرجل ، ويحذوا حذوه ، ويعوا خطاه فى خدمة العلم والثقافة والوطن ، وأن يتموا رسالته التى جاهدفى سبيلها حتى النفس الاخير .

محمد جمال الدين مختار

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات فى النقود الإسلامية

أهمية اختراع النقود :

من المعروف أن إختراع النقود كان من أعظم الأمور التى اهتدى إليها الإنسان منذ العصور القديمة ، شأنه فى ذلك شأن اختراع أحرف الكتابة ، أو استكشاف كيفية إشعال النار .

ولا شك أن تطور المجتمعات البشرية ، جعلت من العسير على الإنسان أن يلجأ دائما إلى نظام المقايضة ، أو أن يستمر هذا النظام بما فيه من عيوب وما لبث الإنسان أن توصل إلى إيجاد وحدة معيارية تقاس بها قيم مختلف السلع والخدمات ، ثم أصبحت هذه الوحدة وسيطا للمبادلة يقبلها الأفراد عموما فى الوفاء بالالتزامات . فالنقد إذن ، أو النقود ، هى أى شىء يتمتع بقبول عام فى الوفاء بالإلتزامات أيا كان نوعه وأيا كانت صفاته . وأصبحت النقود فضلا عن ذلك أداة لاختزان القوة الشرائية وذلك كى تستخدم عند الحاجة فى المستقبل ، فمادام فى إمكان الفرد مبادلة أى شىء بالنقود فانه يمكن للمرء أن يكتنز النقود أو يختزنها لينفقها كيفما شاء ووقتما شاء . ومن هنا كانت الاهمية العظيمة للنقود ، وذلك ، وذلك لأهمية الوظائف التى تؤديها باعتبارها وحدة للحساب ، ووسيطاً المبادلة ، وأداة لاختزان القوة الشرائية(١) .

وكانت « النقود السلعية » أقدم أنواع النقود ، واحتلت المعادن النفيسة مثل الذهب والفضة مكان الصدارة بين المعادن النقدية ، وتلتها فى المنزلة معادن أخرى مثل الحديد والنحاس والزنك والقصدير .

ولعل سك النقود هو أهم حادث تاريخى أعقب اختيار المعادن النفيسة

---

(١) انظر الدكتور محمد زكى شافعى : مقدمة فى النقود والبنوك . (القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ١ ــ ٢١) .

للتداول(١) أما النقود والنقد فقد جاء فى لسان العرب : النقد والتنقاد تمييز الدراهم واخراج الزيف منها . وقيل النقد مصدر نقدته دراهمه ، ونقدت له الدراهم أى أعطيته، فانقدها أى قبضها ، ونقدت الدراهم وأنتقدتها : إذا أخرجت منها الزيف(٢) .

نصوص تاريخية تبين أهمية النقود :

ولم يغفل الكتاب والمؤرخون المسلمون ذكرما للنقود من أهمية بالغة فذكروا نصوصا طريفة فى هذا المعنى . فيؤثر عن الجاحظ قوله :

«والدرهم هو القطب الذى تدور عليه رحى الدنيا»(٣) وذكر الجاحظ(٤) أيضاً وصية لرجل أوصى بها أبناءه فقال « أى بنى . إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق ، وإنفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم ، وإنفاق الدراهم يفتح عليك أبواب الدنانير ، والعشرات تفتح عليك أبواب المئين ، والمئين تفتح عليك أبواب الألوف ، حتى يأتى ذلك على الفرع والأصل».

ما أشبه ذلك الكلام بالحكمة الانجلازية التى تقول « احرص على الملاليم تحرص الجنيهات على نفسها » . Take Gare OF The Pennies, and The Pouds Will Take Gare of Themselves . على أن أهمية النقود جعلت الناس أحياناً تتفنن فى الحرص عليها بل وفى تأليهها فيذكر الجاحظ « زعموا أن رجلا قد بلغ فى البخل غايته وصار إماما ، وأنه كان إذا صار فى يده الدرهم ، خاطبه وناجاه وفداه ، واستبطنه ، وكان مما يقول : كم من أرض قد قطعت وكم من كيس قد فارقت ، وكم من خامل رفعت ،

(١) المرجع السابق : ص ٢٧ – ٣٥

(٢) الأب انستاس الكرملى: النقود العربية (القاهرة١٩٣٩)،ص١٥٨–١٦١).

(٣) الجاحظ : كتاب البخلاء . ج ٢ ص ١١٦ (شرح العوامرى والجارم – طبعة دار الكتب. أنظر كذلك الدكتور محمد ضياء الدين الريس الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية. (القاهرة ١٩٦١، ص ٣٥٠ .

(٤) الجاحظ : المصدر السابق ج ٢ ص ١٢ ، والدكتور محمد ضياء الدين الريس : المرجع السابق ص ٣٥٠

ومن رفيع قد أخملت ، لك عندى أن لا تعرى ، ولا تضحى(١) » (٢)

ولكن من المؤكد أن النقود ليس لها قيمة فى حد ذاتها ، ولكن استعمالها وتداولها هو الذى يخلق قيمتها .

وشبه العرب الدينار بالشمس ، والدرهم بالبدر ، وفى ذلك قال الشاعر :

ويظلم وجه الأرض فى أعين الورى
بالأشمس دينار ولا بدر ورهم(٣)

كذلك تسمى الرجال بالدرهم والدينار ، ومن مشاهير الرجال «الجعد بن درهم » مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية ، والذى ينسب إليه فيعرف باسم مروان الجعدى .

وكذلك من مشاهير الرجال عيسى بن دينار ففيه الأندلس المالكى الشهير على عهد عبد الرحمن الداخل الأموى وابنه هشام .

فائدة علم النميات أو السكة أو النقود لدراسة التاريخ الاسلامى:

يعتبر علم النميات أو السكة أو النقود ، من أهم فروع علم التاريخ .

أما النميات فهى جمع النمى ، ومعناها فى القاموس ، صنجة الميزان ، وكذلك الفلوس والدراهم التى فيها رصاص أو نحاس ، والراجح أن الكلمة من أصل لاتينى هو : Nummus أو Numus ومعناه الفضة المضروبة دراهم ، أو قطعة الفضة نقداً . ولعلها مشتقة من الأصل اليونانى Nomos أو Noummos وهو اسم نقد صقلى قديم أشتق منه اسم النقد باليونانية وهو Nomisma (٤) .

ومن هذا الاصل اشتقت الكلمة الفرنسية La Numismatique ، أى علم

---

(١) يقال صحا يضحو ضحوا أى برز للشمس

(٢) الجاحظ : المصدر السابق ج ٢ ص ٥٧ ، وضياء الدين الريس : المصدر السابق ص ٣٥٠.

(٣) الكرملى : النقود : هامش ص ٢٥ .

(٤) المرجع نفسه : النقود، ص ١٦١ .

النميات ، والكلمة الإنجليزية Numismatics وتعرف النقود باسم السكة .
ومعنى السكة ، الحديدة المنقوشة التى يضرب عليها النقود ، وقد يتجاوز الناس فيطلقونها على النقود نفسها . ويتضح المعنى الأصيل للسكة مما كتبه المقريزى فى كتابه عن النقود القديمة الإسلامية « وبعث عبد الملك بالسكة إلى الحجاج ، فسيرها الحجاج إلى الأفاق ، لتضرب الدراهم بها . وتقدم إلى الأمصار كلها أن يكتب إليه منها فى كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كى يحصيه عندهم ، وأن تضرب الدراهم فى الآفاق على السكة الإسلامية ، وتحمل أولا فأولا »(١).

ويذكر ابن خلدون(٢) فى مقدمته أن السكة هى « الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم ، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة ، بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس فى خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى ، وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه، فيكون التعامل بها عدداً ، وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزناً . ولفظ السكة كان اسماً للطابع وهى الحديدة المتخذة لذلك ، ثم نقل إلى أثرها ، وهى النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ، ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر فى إستيفاء حاجاته وشروطه وهى الوظيفة فصار علماً عليها فى عرف الدول ، وهى وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس فى النقود عند المعاملات ويتقون فى سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة ... » .

ولا شك أن علم النميات أو السكة ، أو دراسة النقود الإسلامية من الدراسات التى يفيد منها التاريخ الإسلامى أكبر فائدة . وكان ضرب النقود فى ديار الإسلام من اختصاص رئيس الجماعة السياسية من خليفة أو سلطان أو

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٦

(٢) ابن خلدون: المقدمة ،الفصل السادس والثلاثون فى شارات الملك والسلطان الخاصة به

أمير أو الذين يمثلونه من الولاة والحكام(١) ولذا فاننا ندرس من الكتابات المنقوشة على السكة ، ألقاب الأمراء والحكام وتاريخ الضرب ، وبعض عبارات خاصة بالمذهب الدينى كما أنها تبين تبعية الولاة للخلافة أو استقلالهم عنها ، ومدى هذا الاستقلال . كذلك يتضح لنا من دراستنا للنقود ، المواد التى اتخذت منها النقود ، والموازين ، والمكاييل ، والأثمان . كما تكشف السكة الإسلامية عن اسماء مدن كانت تضم دوراً لضرب النقود مما يشهد بما كان لهذه المدن من شأن إدارى كبير .

ولاشك أن قيمة النقود التاريخية كبيرة وذلك لأنها وثائق صحيحة وقديمة ورسمية وليس من السهل الطعن فيها(٢) .

والحق أن دراسة النقود الإسلامية تكشف للباحث كثيراً من الحقائق السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية فى التاريخ الإسلامى. فدراسة النقود الإسلامية ترتبط بالزكاة والصداق والدية وغير ذلك مما يهتم به المجتمع الإسلامى وتهتم به الدراسات الفقهية الدينية .

كذلك تكشف دراستنا للنقود الإسلامية عن الكثير من الحقائق الاقتصادية فى التاريخ الإسلامى . والمعروف أن دراسة النقود من الدراسات الهامة جداً التى تفيد الاقتصاديين وعلماء الاقتصاد ، وذلك لإرتباط النقد بالمسائل الاقتصادية . ولا شك أن للنقود دوراً أساسياً فى النظام الاقتصادى ، وأول ذلك هو توسيع نطاق التبادل بحيث يساعد ذلك على تقسيم العمل والتخصص فى الإنتاج بطريقة مثلى ، فالنقود تستمد أهميتها من طبيعة توفرها على خدمة

---

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الاسلامى .

(مجلة كلية الاداب بجامعة القاهرة المجلد ١٢ ـ الجزء الأول ـ مايو ١٩٥٠) ص ١٦٧ — ١٦٩ وكذلك ، الدكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين (القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١٩٢ — ١٩٥) . ومصادر التاريخ الإسلامى . (القاهرة ١٩٦٠ ص ٩٩ — ١٠١).

الاقتصاد القومى فى مجموعه ، فهى فى حد ذاتها مثل المعادن النفيسة لا تستطيع أن تطعمنا أو تكسونا أو توفر لنا المأوى ، وإنما يهيء استعمالها بلوغ أقصى درجات تقسيم العمل والتخصص فى الإنتاج بحيث يترتب على ذلك زيادة كفاءة الاقتصاد القومى فى إنتاج السلع ، والخدمات التى يتسنى بها إشباع الحاجات الأساسية وغير الأساسية للأفراد(١) .

ويجدر بنا أن نشير إلى الكنوز الوافرة من النقود الإسلامية التى عثر عليها فى الروسيا وفنلندة والسويد والنرويج ، بل فى سويسرا وجزيرة أيسلندة والجزائر البريطانية ، وترجع قطع العملة المذكورة إلى الفترة الواقعة بين نهاية القرن الأول وبداية الخامس بعد الهجرة (أو بين القرن السابع وبداية الحادى عشر الميلادى) . وليس معنى ذلك أن كثيراً من التجار المسلمين أنفسهم وصلوا إلى أيسلندة أو النرويج أو الجزر البريطانية ، ولكن كتب الرحلات وتقويم البلدان عندهم تشير إلى ترددهم على جنوبى الروسيا ، وإلى وصولهم أوربا الوسطى . ويشهد ذلك كله بما كان للمسلمين من سيادة تجارية فى تلك البقـــاع(٢) .

النقود العربية قبل ظهور الاسلام :

لم يكن للعرب نقود خاصة بهم حين ظهر الإسلام . فقد كانوا يتعاملون بالدارهم الفضية الساسانية ، وبالدنانير البيزنطية الذهبية(٣) ولا شك أن تعاملهم بنقود الفرس والبيزنطيين يرجع إلى مجاورتهم لهاتين الدولتين ومستعمراتها ، وإلى رحلاتهم التجارية العديدة . ومع ذلك فقد كانت هناك نقود عربية متداولة بين العرب فى الجاهلية ، فى نطاق ضيق جداً ، مثل نقود اليمن الحميرية(٤) .

---

(١) محمد زكى شافعى : مقدمة فى النقود، ص ٣ — ٧ .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى (مطابع دار المعارف بالقاهرة، ١٩٤٥ ، ص ٨.

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٢٩٨ ، ص. ١٤٨ ، والبلاذرى : فتوح البلدان ، ص٤٧١ — ٤٧٢ القاهرة، ١٣١٩ هـ).

(٤) النقشبندى : الدينار الإسلامى ج ١ ، ص ١٠ ، بغداد، ١٩٥٣ م) .

كذلك اقتبس الانباط من الاغريق والرومان ضرب النقود. ووصلت إلينا نقود من عصر ملك الانباط الحارث الثالث (٨٧ - ٦٢ ق . م) وعلى أحد وجهيها صورة رأس متجها إلى اليمن ، وعلى الوجه الآخر رسم إلاهة النصر (وهى إلاهة عند الرومان على شكل امرأة مجنحة) واسم الملك باليونانية Basileos Aretou ولقبه philhellene أى محب لليونان .

كذلك وصلت إلينا نقود من عصر ملك الانباط عبادة الثانى (٦٢-٤٧ق.م) وعلى أحد وجهيها رسم رأس وعلى الوجه الاخر صورة نسر ونقوش نبطية معناها الملك عبادة ، ملك الانباط « السنة الثانية » . ووصلت إلينا نقود أخرى من عصر عبادة الثانى وعلى أحد وجهيها رسم رأسين ، وعلى الوجه الاخر صورة النسر والنقوش النبطية الموجودة فى النوع السابق .

كذلك وصل إلينا نقد مالك الاول (٤٧ - ٣٠ ق . م) وعلى أحد وجهيه رأسان وعلى الآخر نسر وعليه كتابة معناها « الملك مالك ملك الانباط »(١)

كذلك كان لدولة تدمر نقود بشكل نقود الإسكندرية الرومانية عليها كتابة وصور . وقد وصل إلينا نقد زنوبيا (الزباء أو زينب) ملكة تدمر (٢٦٧ م - ٢٧٢ م) وعلى أحد وجهيه صورة رأسها وكتفيها وحول الصورة اسمها بالأحرف اليونانية هكذا « سبتميا زينوبيا » وعلى الوجه الأخر صورة أخرى ، أما النقد الاخر فعليه صورة رأس ابنها وهب اللات واسمه ولقبه(٢) .

ولكن النقد المتداول بين العرب قبيل ظهور الإسلام كان الدينار الذهبى البيزنطى والدراهم الفارسية الفضية .

واشتهر عند العرب الدينار الهرقلى ، فكانت دنانير هرقل ترد على أهل مكة فى الجاهلية(٣) وكان ذهب الدينار الهرقلى من أحسن الذهب ، وشكله بديعاً حسناً ، ومنه قول الشاعر فى صبيان النصارى .

---

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٠٨ ، ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) نفس المؤلف والمرجع، ص ٩٣ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان، ص ٤٧١ .

كأن دنانيراً على قسماتهم وإن كان قدشف الوجوه لقاء(١)

وكما استعمل العرب الدينار البيزنطى ، نقلوا اسمه من اليونانية اللاتينية Denarius Aureus أو Denarius (٢) .

فأطلقوا عليه اسم الدينار أو الدينر (من غير ألف) .

وورد لفظ دينار فى القرآن الكريم ، ففى سورة آل عمران الآية ٧٥ :

(ومن أهلِ الكتابِ مَنْ إن تأمنْهُ بقنطارٍ يُؤدِّهِ اليكَ ، ومنهُم من إن تأمنْه بدينارٍ لا يُؤدِّهِ اليكَ إلاَّ ما دُمْتَ عليهِ قائماً ذلِكَ بأنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ علَيْنَا فى الأُمِّيِّينَ سبيلٌ ويَقُولُونَ على اللهِ الكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمُونَ)

وزن الدينار الدرهم والتعامل بالوزن :

وكان الدينار يزن مثقالا من الذهب أى ٤٫٢٦٥ من الجرامات أو ٦٦ حبة Grains وهذا الوزن هو وزن السوليدس SoLidus وهو النقد الذهب أو الدينار البيزنطى الذى كان شائعاً فى بيزنطة قبل الإسلام(٣) .

وكانت زنة المثقال إثنان وعشرون قيراطاً إلا كسراً كما يذكر البلاذرى(٤) أو إلا حبة كما يذكر المقريزى(٥) .

وكان وزن الدينار يقدر أيضا باثنين وسبعين حبة شعير، أو ستة ألاف حبة خردل من الوسط(٦) ويذكر المقريزى أن المثقال منذ وضع لم يختلف فى

(١) الكرملى : النقود العربية ، هامش ص ٢٥ .

(٢) النقشبندى : الدينار الإسلامى ، ص ١٠ — ١١ ، الكرملى : النقود، هامش ص ٢٥ .

(٣) النقشبندى : الدينار الاسلامى . ص ١٢ وما به من مراجع .

(٤) الكرملى : النقود العربية ، ص ١٠.

(٥) المرجع السابق ص ٢٨ — ٢٩

(٦) النقشبندى : الدينار الإسلامى ، ص ١٣، وما به من مراجع .

جاهلية ولا إسلام وأنه يزن ستة ألاف حبة من حب الخردل(١) .

أما أجزاء الدينار فكان نصف دينار ، وثلث دينار ، وأحيانا ربع ، كما كان للدينار أضعاف (٢) .

وذكر البلاذرى أن قريشا كانت تزن الفضة بوزن تسميه درهما ، وتزن الذهب بوزن تسميه ديناراً ، وكان كل عشرة من أوزان الدراهم سبعة من أوزان الدنانير أى وزن الدرهم كان ٤٫٢٦٥ × ٧/١٠ = ٢٫٩٨٥ من الجرامات وكان لهم وزن الشعيرة ، وهو ١/٦٠ من الدرهم ، وكانت لهم الأوقية وزن أربعين درهما ، والنش وزن عشرين درهما . وكانت لهم النواة وهى وزن خمسة دراهم وكان الرطل(٣) يزن اثنتى عشرة أوقية(٤) .

وذكر المقريزى أن المثقال من الفضة كان يسمى درهما ،وأن المثقال من الذهب كان يسمى دينارا(٥) .

ويؤكد المقريزى ماذكره البلاذرى من أوزان الفضة، فيقول ان أهل مكة فى الجاهلية كانوا يتبايعون بأوزان اصطلحوا عليها فيما بينهم وهى الرطل الذى هو اثنتاعشرة أوقية ،والأوقية هى أربعون درهما فيكون الرطل ثمانين وأربعمائة درهم ، والنص وهو نصف الأوقية حولت صاده شينا فقيل نش وهو عشرون درهما ، والنواة وهى خمسة دراهم(٦) .

ويذكر المقريزى أنواعا مختلفة من الدراهم الفضية الساسانية التى شاعت عند العرب قبيل الإسلام وكانت هذه الدراهم مختلفة الأوزان والأسماء ،

---

(١) الكرملى: النقود العربية، ص ٢٩ — ٣٠.

(٢) النقشبندى: الدينار الاسلامى : ص ١١ وما به من مراجع.

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٧١ و ٤٧٢ .

(٤) لعل كلمة رطل مأخوذة من الأصل اللاتينى لبيرة . (انظر الكرملى : النقود، هامش، ص ٢٦)

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٥ .

(٦) المرجع نفسه : ص ٢٦ — ٢٧.

فكانت هناك الدراهم السود الوافية (١) وهى دراهم الفرس البغلية (٢) وكان الدرهم وزنه المثقال الذهب ، وكان هناك « الدراهم الجواز »(٣) وكانت تنقص فى العشرة ثلاثة فكل سبعة « بغليه » عشرة « بالجواز » وكان لهم أيضا دراهم تسمى جوراقية(٤) وكانت هناك الدراهم الطبرية(٥) العتق(٦) .

ويذكر المقريزى أن الدرهم الطبرى ثمانية دوانيق(٧) والدرهم البغلى أربعة دوانيق ، وقيل بالعكس . والدرهم الجوراقى أربعة دوانيق ونصف والدانق ثمانى حبات وخمساً حبة من حبات الشعير المتوسطة التى لم تقشر ، وقد قطع من طرفيها ما أمتد(٨) ويذكر السيوطى أن الدانق قيراطان ، والقيراط طسوجان ، والطسوج حبتان ، والحبة هى حبة الحنطة . أما حبة الحنطة فوزنها نحو من جزء واحد من عشرين جزءاً من الجرام(٩)

وكانت الأربعة فلوس تساوى طسوجا واحداً فى حياة الجاحظ(١٠) .

ويتكلم المقريزى عن العملات المساعدة الصغيرة والحقيرة فيقول « وقد كانت الامم فى الإسلام ، وقبله ، لهم أشياء يتعاملون بها بدل الفلوس ، كالبيض

(١) يفرق ابن تغرى بردى بين الدراهم الوافية والبغلية أنظر النجوم الزاهرة — طبعة ليدن — ج ٢، ص ٢١٣.

(٢) لعل هذا الاسم نسبة الى بغل وهو اسم رجل يهودى ضرب تلك الدراهم (الكرملى : النقود ، هامش، ص ٢٢)

(٣) الدراهم الجواز مشتقة من قول الاقتصاديين جاوز الدراهم أى قبلها على ما فيها من الدخل (انظر الكرملى النقود : هامش ، ص ٢٢) .

(٤) الدراهم الجوراقية منسوبة الى جورقان ،وهى قريه بنواحى همذان . (الكرملى : النقود: هامش، ص ٢٣.

(٥) المقصود بذلك الدراهم المضروبة فى طبرستان،وليس فى طبرية بالاردن. (الكرملى: هامش ص ٢٤) .

(٦) الكرملى : النقود ، ص ٢٢ — ٢٣ .

(٧) الدانق كلمة مأخوذة من الفارسية دانه ، أى حبة(الكرملى: هامش،ص ٢٧)

(٨) نفس المرجع، ص ٢٧ .

(٩) نفس المرجع، هامش ص ٢٦ .

(١٠) الجاحظ : كتاب البخلاء ،ص ١٩٧ ، ص ٥٨ — ٥٩، ص ٢٠١ .

والكسر من الخبز ، والورق ، ولحاء الشجر (قشره) والودع الذى يستخرج من البحر ، ويقال له الكورى ، وغير ذلك(١) .

ويشرح المقريزى أن الخبز كان يستعمل أحياناً عملة فى بغداد ، وذلك برسالة الشيخ الرئيس أبى القاسم بن أبى زيد الذى زار بغداد فى سنة بضع وأربعمائة فيقول : ويتعاملون به (الخبز) فى الأسواق ويقيمونه مقام الدرهم فى الانفاق وينتقدونه نقداً قد اصطلحوا عليه وجعلوا لذلك قانوناً يرجعون إليه، فيردون المثلوم والمكرج (وهو الذى فسد وعلته خضرة) كما يرد الدرهم الزائف ، والدينار المبهرج ، ويشترون به أكثر المأكولات والمشمومات ويدخلون به الحمامات ، ويأخذه النباذ والخمار ، ولا يرده البزاز ولا العطار « ثم يبين المقريزى سعر الرغيف قائلا : « ومع هذه العناية والاحتياط يباع كل ستين (رغيفاً) بقيراط » (٢)

وهكذا نرى أن الدنانير قبيل الإسلام كانت ثابتة الوزن وكانت تزن مثقالا ، أما الدراهم فكانت كما ذكرنا متنوعة كما كانت أوزانها تختلف حسب أنواعها .

ولذلك كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بالنقود بالوزن بحساب المثاقيل وذلك باعتبارها تبرا أى مادة من ذهب أو فضة ، ولا يقبلون التعامل بها بالعد ويغضون النظر عن كونها نقوداً مضربة(٣) .

ويذكر المقريزى أن الدينار كان « يسمى لوزنه ديناراً ، وإنما هو تبر ويسمى الدرهم لوزنه درهما وإنما هو تبر »(٤) .

ولعل عذر العرب فى التعامل بالنقود وزناً وليس عدا ، هو تنوع الدرهم

---

(١) الكرملى : النقود : ص ٦٨

(٢) المقريزى : إغاثة الامة بكشف الغمة ، نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال — القاهرة ١٩٤٠ م ، ص ٦٧ — ٦٨ .

(٣) النقشبندى : الدينار الاسلامى ، ص ١٠.

(٤) الكرملى : النقود ، ص ٢٧ ــ ٢٨.

وأوزانه ، أما الدنانير فمع إنها كانت ثابتة الوزن والقيمة إلا أنه قد ينقص بعضها بسبب التداول أو التزييف .

العين والورق :

وكان العرب يطلقون على نقود الذهب كلمة « العين » وعلى نقود الفضة كلمة « الورق » واستمرت هذه التسمية بعد الإسلام . وفى القاموس أورق بمعنى كثر ماله ودراهمه والتجارة مورقة للمال بمعنى مكثرة(١) .

ويذكر البلاذرى (٢) أن عبد الملك بن مروان « أول من ضرب الذهب والورق بعد عام الجماعة » .

ويذكر الكندى (٣) صاحب كتاب الولاة والقضاة ، أنه فى عهد ولاية الحسن بن التختاخ (١٩٣ - ١٩٤ هـ) بمصر ثار العرب عليه حينما أعطاهم العطاء ثلثاً عينا (أى من الدنانير أو الذهب المضروب) وثلثاً بزا (أى الثياب من الكتان والقطن) وثلثاً قمحاً .

وكذلك يذكر الماوردى (٤) فى كلامه عن الأراضى التى يفرض عليها الخراج ، أنه مما يؤثر فى زيادة الخراج أو نقصانه ، قرب الأرض من البلدان والأسواق ، وبعدها ، لزيادة أثمانها ونقصانها ، ويقول : وهذا إنما يعتبر فيما يكون خراجه ورقا (والورق هنا بمعنى النقود) ولا يعتبر فيما يكون خراجه حباً (الحب بمعنى الغلال) .

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٤٩ — ١٥٠ ، ١٦٣ — ١٦٤ ؛ وكذلك النقشبندى ، ص ١٠

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٧٤ .

(٣) الكندى : كتاب الولاة والقضاة (بيروت ، ١٩٠٨ م ، ص ١٤٦ ، وكذلك دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٤٧ م ، ص ٧٧ .

(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٢٩٨ هـ ، ص ١٤٢ — ١٤٣ ، وكذلك دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٥١

النقود الاسلامية قبل خلافة عبد الملك بن مروان :

يذكر البلاذرى أنه لما ظهر الإسلام أقر الرسول عليه الصلاة والسلام النقود المتداولة بين العرب من دراهم ودنانير ، وكان كل عشرة دراهم تزن سبعة مثاقيل كما مر بنا . وكذلك فعل من بعده خليفته أبو بكر الصديق . وبقى الأمر على حاله أيام عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ، وظل الحال كذلك أيام معاوية ثم ضرب مصعب بن الزبير ، فى أيام عبد الله ابن الزبير دراهم قليلة كسرت بعد(١) .

ويذكر المقريزى فى كتابه « النقود القديمة الإسلامية » أنه فى سنة ثمانى عشرة من الهجرة ضرب عمر بن الخطاب الدراهم « على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها ، غير أنه زاد فى بعضها «الحمد لله» وفى بعضها «محمد رسول الله » وفى بعضها « لا إله إلا الله وحده » وفى آخر مدة عمر وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل »(٢) . وإن صح هذا القول يكون عمر قد غير فى أواخر خلافته نسبة العملة الفضية إلى العملة الذهبية ولكن الواضح من المصادر القديمة المختلفة أن عمر بن الخطاب أبقى النسبة المعروفة قبل ذلك بين الفضة والذهب وإنما جعل كل درهم ستة دوانيق .

ويذكر المقريزى أنه لما بويع أمير المؤمنين عثمان بن عفان ضرب فى خلافته دراهم نقشها « الله أكبر » . ولما اجتمع الأمر لمعاوية بن أبى سفيان ضرب الدراهم السود الناقصة ، فكان كل درهم ستة دوانيق ، أو خمسة عشر قيراطا إلا حبة أو حبتين . ولما جمع لزياد بن أبيه ولاية الكوفة والبصرة فى خلافة معاوية ضرب دراهم على غرار دراهم معاوية وجعل وزن كل عشرة دارهم سبعة مثاقيل(٣) .

ومما يستلفت النظر هنا أن المقريزى يسمى دراهم معاوية «السود الناقصة» وفى اعتقادنا أن المقريزى يعنى بذلك أنها بعكس الدراهم المعروفة منذ العصر

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٧١.

(٢) الكرملى : النقود ، ص ٣١ — ٣٢.

(٣) نفس المرجع ص ٣٢ — ٣٣ .

الجاهلي باسم « السود الوافية » وهى التى ذكر أنها البغلية ، وأن الدرهم وزنه زنة المثقال الذهب(١) أو أنه يتكون من ثمانية دوانيق(٢) .

ويذكر المقريزى أن معاوية لم يضرب الدراهم فقط وإنما ضرب دنانير « عليها تمثال متقلداً سيفاً »(٣) والمقصود بالتمثال طبعاً صورة الرجل .

ولما قام عبدالله بن الزبير بمكة ودعا لنفسه بالخلافة ، ضرب دراهم مدورة ، وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة . ويذكر المقريزى أن ما ضرب من الدراهم قبل ذلك كان « ممسوحاً غليظاً قصيراً ، فدورها عبد الله ، ونقش على أحد وجهى الدراهم : « محمد رسول الله » وعلى الآخر « أمر الله بالوفاء والعدل » وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق ، وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل ، وأعطاها الناس فى العطاء حتى قدم الحجاج بن يوسف العراق من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فقال « ماتبقى من سنة الفاسق أو المنافق شيئاً » فغيرها »(٤) وطبيعى أن الحجاج يشير بذلك القول إلى عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب.

ويذكر ابن خلدون فى مقدمته أن مصعب بن الزبير هو أول من ضرب الدنانير والدراهم فى العراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله ، وكتب عليها فى أحد الوجهين « بركة الله » وفى الآخر « اسم الله »(٥) .

وتكاد المصادر الإسلامية القديمة تتفق على أن المسلمين بدؤا يضربون الدراهم منذ خلافة عمر بن الخطاب ، ولكنها لا تتفق على من بدأ من الخلفاء أو الامراء بضرب الدنانير الذهبية .

والراجح أن المسلمين بدأوا بضرب الدنانير منذ خلافة عمر بن الخطاب ولكن على نطاق ضيق جداً وظلت النقود المتداولة هى الدنانير البيزنطية والدراهم

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٣ — ٣٤ .

(٥) ابن خلدون : المقدمة: ص ٢٦١.

الفضية الفارسية جنبا إلى جنب مع الدراهم والدنانير التى ضربها الخلفاء والأمراء المسلمون .

ويذكر كاترمير(١) وسوفير (٢) أن الكاتب القبطى بشندى أسقف قفط الذى عاصر فتح العرب لمصر ، كتب كتاباً إلى الأساقفة وهذا الكتاب محفوظ فى المكتبة الاهلية فى باريس وهو يقول فيه :

« إن العرب أخذوا النقود الذهبية المنقوش عليها الصليب المقدس ، وصورة السيد المسيح، ومسحوا الصليب وصورة المسيح وكتبوا مكانها اسم نبيهم محمد الذى يتبعون تعاليمه ، وإسم خليفة نبيهم ، ونقشوا الاسمين معاً على النقود الذهبية.. وهذا النص يبين أنه منذ فتح العرب لمصر فى خلافة عمر بن الخطاب ، ضرب المسلمون الدنانير الذهبية،وإن كان لا يذكر على وجه التحديد اسم الخليفة .

وكذلك يتضح من النص السابق ومن النصوص الإسلامية القديمة أن أن العرب لما ضربوا نقودهم أبقوها على شكلها الرومى والفارسى بنقوشها وشكلها مع إضافة العبارات الإسلامية . ونقل جورجى زيدان فى كتابه التمدن الإسلامى عن المؤرخ الألمانى الدكتور « مولر » أن خالد بن الوليد ضرب باسمه فى الشام نقوداً سنة ١٥ أو ١٦ هـ ، جعلها على رسم الدنانير الرومية تماماً وأبقى عليها الصليب والتاج والصولجان ، وعلى أحد وجهيها اسم خالد بالأحرف اليونانية(٣) .

ولعل ضرب خالد للدنانير باسمه كان من الأسباب التى دعت الخليفة عمر بن الخطاب

---

(١) Quatremère: Mémoires Géographiques et Historiques sur l'Egypte t. I. p. 343. (Paris 1811).

(٢) Sauvaire, : Materiaux pour servir à l'Histoire de la Numismatique et de la Métrologie Musulmanes (Extrait du Journal Asiatique, Sèrie . XIV pp. 56. 457 Paris 1879.

(٣) الكرملى : النقود : ص ٩١ ، جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٤٢

إلى عزل خالد عن قيادة الجيوش العربية فى الشام بعد موقعة اليرموك(١) .

وقد عثر على دينار إسلامى يعتبر من الدنانير النادرة . وهذا الدينار ضرب على طراز النقود النحـاس التى ضربت فى الاسكندرية للأمبراطور البيزنطى هرقل وإبنيه قسطنطين وهيراقلوناس .

ووجدت نسخ قليلة جداً من هذا الدينار لا يتجاوز عددها أصابع اليد حفظت فى متاحف المانيا وبريطانيا وأمريكا وتركيا ، ووصفها لافوا Lavoix ولين بول Lane Poole وإسماعيل غالب (فى موزه همايون قاتا لوغى) وجورج مايلز G. C. miles ، ومن الأوصاف المختلفة يتضح أن هذا الدينار الذهب يشبه تماماً النقود النحاس التى ضربها هرقل فى الإسكندرية . ووزن الدينار حوالى ٤٫٣٥ جراماً وقطره ٢٠ مليمتراً ، ولا يختلف الدينار عن نقود هرقل إلا فى تحويل الصلبان إلى دوائر ووجود كتابة كوفية هى : (بسم الله لا إله إلا الله وحده — محمد رسول الله) وهذه الكتابة تكون « طوق النقد » أى الهامش المحيط بمركز الدينار وكذلك كتب على الدينار الإسلامى الحرفان .B. I .

واعتبر ستانلى لين بول ، وإسماعيل غالب ، الحرفان .B. I تاريخ الدينار بالسنين وفسرها باحدى وعشرين .

وإذا أخذنا بهذا التفسير يكون هذا الدينار الذهب النادر قد ضرب فى سنة ٢١ هـ فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب(٢) .

ولعله يكون قد ضرب فى مصر فى دور الضرب البيزنطية التى كانت موجودة قبل الفتح العربى ويرجح قولنا هذا ما كتبه بشندى أسقف قفط عن العرب والنقود بعد فتح مصر .

---

(١) الكرملى : النقود: ص ٩١ .

(٢) النقشبندى : الدينار الإسلامى : ص ١٨ — ٢٢ ، ومابه من مراجع .

النقود الاسلامية فى خلافة عبد الملك بن مروان
٦٥ – ٨٦ هـ (٦٨٥ – ٧٠٥ م) :

ولى عبد الملك بن مروان خلافة المسلمين فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى حين كان العالم الإسلامى يجتاز مرحلة خطيرة من الفتن الداخلية والحركات الخارجية الثائرة على الخلافة، فضلاً عن الإعتداءات البيزنطية على الحدود الإسلامية . وفى سنة ٧٣ هـ إستطاع عبد الملك أن يلم شمل العالم الإسلامى بعد أن تخلص من المناوئين والمعارضين للخلافة الأموية، وخضع العالم الإسلامى خضوعاً تاماً لعبد الملك ، وقرىء اسمه من منابر الشرق والغرب ، واعتز العرب فى أيامه ، وعظم نفوذهم .

كذلك اهتم عبد الملك بإصلاح السكة وتوحيدها فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية، والحق أن لعبد الملك الفضل الأول فى إصلاح السكة وتوحيدها فى أنحاء الدولة الإسلامية ، والإستغناء عن النقود الأجنبية ـ فارسية كانت أو رومية .

ويعطينا المؤرخون العرب أسباباً غير مقنعة لتعريب النقد زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ، فيقولون إن السبب الذى حدا بعبد الملك إلى ذلك هو أن القراطيس – أى أوراق البردى ـ كانت تدخل إلى بلاد الروم من أرض مصر وتأتى الدنانير إلى العرب من قبل الروم، فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الكتاب الذى يكتب فى رؤس الطوامير من (قل هو الله أحد) وغيرها عبارات من ذكر الله . فكتب إليه ملك الروم : أنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتاباً نكرهه ، فان تركتموه، وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ماتكرهونه . فكبر ذلك فى صدر عبد الملك، وكره أن يدع سنة حسنة سنها ، فأرسل إلى خالد بن يزيد ابن معاوية، فاستشاره فى ذلك، فأشار عليه خالد بتحريم دنانيرهم، وكان أن ضرب عبد الملك الدنانير الإسلامية ومنع التعامل بدنانير بيزنطية(١).

ولكن الراجح أن تعريب النقد ، وتوحيده ، والإستغناء عن النقود الأجنبية رومية كانت أو فارسية ، كان جزءاً من سياسة عبد الملك بن مروان

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان : ص ٢٤٠ (ليدن ١٨٦٦ م) ، المقريزى : النقود الإسلامية (القسطنطينية، ١٢٩٨ هـ) ص ٦، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ . (طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩ م).

التى استهدفت تعريب مؤسسات الدولة كما أنه كان رمزاً للسيادة الكاملة للدولة العربية(١)، وعلى كل حال فقد توصل لافوا Lavoix بمقارنة المصادر العربية والبيزنطية ، وفهارس مجموعات النقود ، إلى أن إصلاح عبد الملك بدأ حوالى ٧٣ – ٧٤ هـ ٦٩٢ – ٦٩٣ م ولكن ضرب النقود استمر بأشكالها القديمة عدة سنوات بعد هذا التاريخ(٢) .

والواقع أن التعامل بالدنانير البيزنطية فى الدولة الإسلامية ، كان مظهراً من مظاهر استمرار الأساليب البيزنطية فى الدولة العربية هذا فضلا عن استمرار نظم الإدارة الحكومية فى الشام ومصر وغرب العالم الإسلامى كما كان الحال قبل الفتح العربى ، بل إن العلامات الخاصة التى تشير إلى الثالوث المقدس ظلت باقية على إنتاج البردى العربى فى الدولة الإسلامية .

ونعرف أن معاوية بن أبى سفيان اضطر إلى دفع جزية سنوية للامبراطور البيزنطى أثناء إنشغاله فى صراعه ضد على بن أبى طالب . كذلك اضطر عبد الملك بن مروان أن يدفع جزية للدولة البيزنطية أثناء إنشغاله بمحاربة عبد الله بن الزبير . لكننا نرى عبد الملك يبدأ فى إستكمال تعريب الدولة وفى إصلاحاته الداخلية بعد تخلصه من الفتن والمشاكل الداخلية . كذلك نراه يحاول التخلص من الضغط البيزنطى حربياً كان أو اقتصادياً فجاء سك الدنانير الذهبية بمثابة إعلان الحرب الاقتصادية ضد بيزنطة ونرى عبد الملك يرسل الدنانير الذهبية الجديدة ضمن الاتاوة المتفق عليها إلى جستنيان الثانى فى القسطنطينية . كما أوقف تصدير أوراق البردى من مصر إلى بيزنطة وأزال من هذا الورق علامة الثالوث المسيحية وأحل محلها كتابات عربية دينية . وكان عبد الملك يبغى من وراء هذا إقامة سلطانه على أساس اقتصادى مستقل ، وأن ينزل بأعدائه البيزنطيين نوعاً من الضغط الاقتصادى . وكان رد جستنيان الثانى عندما تسلم الجزية المقررة بالدنانير العربية الجديدة أن أعلن الحرب على عبد الملك

---

(١) انظر الدكتور عبدالعزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى، ص ٢١٣ .

(٢) انظر Lavoix, Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Paris 1887, p. XX et. p. XXVIII.

فى سنة ٦٩٣ م (٧٤ هـ) . لكن عبدالملك انتصر انتصاراً باهرا على جستنيان الثانى أمبراطور بيزنطة(١) وكان ذلك بالقرب من سباستبوليس (سيواس) من أعمال كيليكية .

ويروى البلاذرى أن عبد الملك ضرب شيئاً من الدنانير فى سنة ٧٤ هـ ، ثم ضربها سنة ٧٥ هـ ، ويذكر أيضاً فى رواية أخرى أن عبد الملك أول من ضرب الذهب عام الجماعة سنة ٧٤ هـ، ثم ضرب الحجاج الدراهم آخر سنة ٧٥ هـ ثم أمر بضربها فى جميع النواحى سنة ٧٦(٢)، ويذكر المقريزى أنه لما «استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابنى الزبير ، فحص عن النقود ، والأوزان ، والمكاييل ، وضرب الدنانير والدراهم فى سنة ست وسبعين من الهجرة »(٣) ويحدثنا المقريزى فى رواية من رواياته أن دنانير عبد الملك الأولى كان فيها صورة ، فيقول عن عبد الملك : « وكتب إلى الحجاج وهو بالعراق ، أن اضربها قبلى فضربها ، وقدمت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبها بقايا الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ، فلم ينكروا منها سوى نقشها ، فان فيها صورة ، وكان سعيد بن المسيب ، رحمه الله ، يبيع بها ويشترى ، ولا يعيب من أمرها شيئاً »(٤) .

والواقع أن مجموعات الدنانير والنقود الباقية لدينا فى المتاحف تؤيد كلام المقريزى إلى حد بعيد ، فان أقدم دينار إسلامى عثر عليه لعبدالملك مؤرخ سنة ٧٦ هـ . وهذا الدينار ضربه عبد الملك على الطراز البيزنطى وفيه تصوير يمثل الخليفة متقلداً سيفاً ، وفيه تأريخ الضرب بحروف كوفية . ثم ضرب عبد الملك الدنانير على النمط نفسه عام ٧٧ هـ .

وفى سنة ٧٧ هـ أحدث عبد الملك ضرب الدينار على طراز إسلامى عربى

---

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط : ترجمة أحمد محمد عيسى القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٢١ ـ ١٣٦ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٧٣ .

(٣) الكرملى : النقود ، ص ٣٤

(٤) المرجع السابق : ص ٣٤

مغاير للطراز البيزنطى فظهر الدينار لا يحمل إلا كتابات كوفية . واستمر ضرب النقود بهذا الشكل الأخير إلى نهاية العصر الأموى(١) .

ولم يضع الأمويون أسماءهم ، ولا أسماء أحد من أبنائهم وقوادهم على الدينار مطلقا ولعل عبد الملك حين وضع صورته على الدينار الذى ضربه سنة ست وسبعين ، وسبع وسبعين كان يتشبه بالبيزنطيين ثم عدل عن ذلك إلى الشكل الإسلامى العربى . ولا يمكن معرفة نسبة الدينار الأموى إلى الخليفة إلا بتأريخه . وقد يختلط علينا الأمر فى السنة التى يتوفى خليفة ويتولى الخلافة آخر(٢) .

وكان أول من نقش كلمة « دينار » بحروف كوفية على النقود الذهب فى الإسلام هو عبد الملك بن مروان سنة ٧٦هـ، واستمر الحال كذلك طوال العهد الأموى. أما أجزاء الدينار فكان ينقش محل كلمة « دينار »، نوع الجزء فيقال مثلا : هذا نصف وهذا ثلث وهذا الربع ولم يعرف عن الأمويين أنهم ضربوا أضعافاً للدينار(٣) .

وزن دينار عبد الملك ونسبته الى الدراهم :

ولما كانت النقود ترتبط بالمسائل الشرعية مثل الزكاة والصداق والدية ، فان عبد الملك أخذ تلك المسألة فى الاعتبار حين ضرب النقود فاتخذ النسبة القديمة المعروفة ، والتى أقرها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى أن كل سبعة دنانير تزن عشرة دراهم . وكذلك عدل عبد الملك بين الدراهم الكبار والصغار إذ وجد الدراهم الكبار ثمانية دوانيق والصغار أربعة دوانيق فاتخذ أمراً وسطاً ومنزله بين منزلتين فجعل وزن كل درهم ستة دوانيق، حتى لا يظلم الناس فى دفع ما يجب عليهم دفعه من خراج أو زكاة . ولذلك قيل كان « فيما صنع عبد الملك فى الدراهم ثلاث فضائل

الاولى: أن كل سبعة مثاقيل زنة عشرة دراهم.

---

(١) النقشبندى : الدينار الاسلامى، ص ١٧ ــ ٢٤، وما به من مراجع.

(٢) المرجع نفسه : ص ١٦.

(٣) المرجع نفسه : ص ١١ وما به من مراجع.

(٤) الكرملى : النقود الإسلامية : ص ٣٦ ــ ٣٧

والثانية : أنه عدل بين صغارها وكبارها حتى اعتدلت وصار الدرهم ستة دوانيق .

والثالثة: أنه موافق لما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فريضة الزكاة بغير وكس ولا اشتطاط . قضت بذلك السنة ، واجتمعت عليهما الأمة .

عبد الملك والصنج الزجاج :

ولصيانة الوزن من التلاعب ، وضع عبد الملك صنجا من الزجاج وهى أوزان معينة من الزجاج لوزن النقود الفضية والذهبية ، ولحفظ الوزن من التغيير . والزجاج فى تلك الأيام أحسن مادة لهذا الغرض(١) .

تقييم النقود بالعملة المصرية الحالية :

وجدير بالذكر أنه حين ظهر الإسلام كانت الدولة العربية تأخذ بنظام المعدنين وقد أقر الرسول عليه الصلاة والسلام ، العمله الموجودة ، وارتبط بتلك العمله فرض هام وهو الزكاة ، كما تعلق بها بعض المسائل الشرعية الأخرى كالدية والصداق.

واستقر النصاب الشرعى الذى تجب فيه الزكاة من المال ولا تجب فيما دونه ، على عشرين مثقالا من الذهب أو مائتى درهم من الفضة وجعل فى كل عشرين نصف مثقال كما جعل فى كل مائتين خمسة دراهم(٢) .

ويتضح من زكاة الأموال ومن النصوص الكثيرة أن سعر الدينار أو المثقال كان يساوى عشرة دراهم فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وفى عهد الخلفاء الراشدين .

ولم يكن الدرهم جزءاً من الدينار وإنما كان هذا نقد على أساس الفضة وذاك نقد على أساس الذهب ولكل من النقدين وحداته، وكان للمؤمن

---

(١) النقشبندى : الدينار الإسلامى ص ١٥ ، الدورى : المرجع السابق ، ص ٢١٣.

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية، ص ١١٤ — ١١٥ ؛ الكرملى : النقود، ص ٣٠.

الخيار فى أن يخرج من هذا النقد أو ذاك ، مادامت القيمة واحدة ونجد عمر بن الخطاب يجعل أربعة دنانير على أهل الذهب ، فى الجزية ، معادلة لأربعين درهما على أهل الورق ، أى الفضة وكذلك راعى هذه النسبة فى تقدير الخراج (١) .

ويروى أبو يوسف أن عمر بن الخطاب وضع الديات على أهل الذهب ألف دينار ، وعلى أهل الورق عشرة آلاف درهم(٢) كذلك روى أبو يوسف عن ابن مسعود أنه قال : « لا يقطع » — أى فى حد السرقة — « إلا فى دينار أو عشرة دراهم (٣) .

وقد نص على تلك النسبة بين الدينار والدرهم بعض الفقهاء مثل أبى عبيد فهو يقول « لأن أصل الدنانير أن يعدل الدينار بعشرة دراهم » (٤) .

وقد كان الدينار الشرعى أو المثقال يزن فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين وفى سكة عبد الملك بن مروان ٤ر٢٦٥ من الجرامات .

ولكن نلاحظ أنه بمرور الزمن كان يتغير السعر أى ما يساويه الدينار من دراهم فكان سعر الدينار يزيد أحياناً زيادة واضحة فقد يبلغ الدينار ١٥ درهما أو ١٦ درهما أو ١٤ درهما(٥) .

ولم يغفل فيلسوف المؤرخين ابن خلدون هذه الحقيقة فيذكر فى مقدمته بعد كلامه عن النقود زمن الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء ونقود عبد الملك بن مروان « . . ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة فى الدول على مخالفة المقدار الشرعى فى الدينار والدرهم ، واختلفت فى كل الأقطار

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان، ص ١٣١ ، ابو يوسف : الخراج ، القاهرة، ١٩٥٢ ص١٢٨ ١٣٣ ، ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية، ص ٣٧٠،

(٢) ابو يوسف . الخراج، ص ١٥٥

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٨ ، ضياء الدين الريس : الخراج ، ص ٣٧٠ .

(٤) ابو عبيدة : الأموال القاهرة ، ١٣٥٣ هـ ، ص ٥١٩ ،

(٥) الدورى : تاريخ العراق : ص٢٢١ — ٢٢٢ وما بهمن مراجع .

والآفاق ، ورجع الناس إلى تصور مقاديرها الشرعية ذهناً كما كان فى الصدر الأول ، وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة التى بينها وبين مقاديرها الشرعية». . (١) » .

ولعل التعامل بالنقود كان فى العادة بالعد اللهم إلا إذا كان هناك ضرورة للوزن كان تكون النقود ممسوحة أو مكسرة . وكان من ضرورات الوزن أيضاً تقدير الزكاة على أساس الدينار الشرعى الذى يزن مثقالا والدرهم الشرعى، وذلك بوزن الدراهم والدنانير التى تختلف أوزانها عن الأوزان الشرعية(٢) .

واجتهد بعض الأساتذة والباحثين المحدثين فى تقويم قيمتى الدينار الشرعى والدرهم الشرعى الإسلامى بالعملة المصرية الحالية . فقدر مؤلفو كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» الذى اعتمدته وزارة الأوقاف ، الدينار بـ ٥٧ر٨ قرشاً كما قدروا الدرهم بـ ٢ر٦ قرشاً(٣) .

ونلاحظ فى هذا التقدير عدم مراعاة النسبة الشرعية بين الدينار والدرهم . وإلا لكان الدرهم فى رأيهم $\frac{\text{٥٨ر٨}}{\text{١٠}}$ = ٥ر٧٨ قرشاً .

كذلك ذكر الاستاذ الخضرى أن وزن الدينار يساوى نصف الجنيه الإنجليزى ، أما وزن الدرهم فيساوى وزن القطعة ذات القرشين تقريباً لأن وزنها ٣ر٥٠ جرامات(٤) .

كذلك نقل الدكتور حسن إبراهيم حسن عن « ستانلى لين بول » أنه

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، الفصل السادس والثلاثون فى شارات الملك والسلطان الخاصة به ، ص ٢٦٣ — ٢٦٤

(٢) الدورى : المرجع السابق : ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة — وزارة الأوقاف — طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٩ ، قسم العبادات ،ص ٤٨١ ، وانظر تعليق ضياء الدين الريس فى كتاب الخراج ، ص ٣٧٠ — ٣٧١ .

(٤) الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية — المجلد الأول ج ٢ ص ٢٢١ الطبعة السادسة ، المكتبة التجارية ، ١٣٧٠ هـ) ، وراجع تعليق ضياء الدين الريس فى كتاب: الخراج ، ص ٣٧١.

قدر الدينار بمقدار ١٥ر١٥ قرشاً(١)، وقدر جورجى زيدان الدينار بنحو نصف جيه، والدرهم بنحو فرنك(٢) أو أربعة قروش.

ويقدر الأمير عمر طوسون الدينار بنحو ستين قرشاً(٣).

على أننا إذا تأملنا الاجتهاد السابق من بعض الباحثين فى تقويم الدينار والدرهم بالعملة المصرية نرى أنهم أغفلوا سعر صرف الدينار بالدرهم الذى اتفق عليه زمن الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين، فكان الدينار يصرف بعشر دراهم.

كذلك اجتهد الباحثون فى تقويم الدينار والدرهم بالعملة المصرية على أساس الجنيه المصرى الذهبي أو الجنيه الإنجليزى الذهبي. والمعروف أن الجنيه المصرى الذهبي يزن ثمانية جرامات ونصف من الذهب(٤) أى ضعف المثقال الذهب أو الدينار تقريباً ولكن يجدر ملاحظة الفرق الآن بين الجنيه المصرى وثمنه ١٠٠ قرش، وبين الجنيه المصرى الذهبي الذى أصبح سلعة وليس نقداً متداولا ويقدر ثمنه بنحو ستة جنيهات مصرية.

وإذا حسبنا ثمن الدينار وثمن الجنيه المصرى الذهبي بالعملة المصرية الآن يكون ثمن الدينار حوالى ٣٠٠ قرش أما الدرهم فيكون ثمنه $\frac{٣٠٠}{١٠}$ أى ٣٠ قرشاً. هذا من ناحية ثمن الدينار والدرهم إذا اعتبرناهما بالوزن أو سلعة ذهبية أو فضية.

أما من ناحية قيمة الدينار والدرهم فلا شك أنهما اختلفا اختلافاً كبيراً منذ فجر الإسلام إلى الآن، وذلك لاختلاف قوتهما الشرائية من وقت لآخر.

وحسبنا لنعرف مدى القوة الشرائية للدينار أن عمر بن الخطاب وضع الديات على أهل الذهب ألف دينار، وعلى أهل الورق عشرة آلاف درهم، وعلى

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ص ٣٠٠، الطبعة الأولى، ١٩٣٩م.

(٢) جورجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامى، ج ٢، ص ٣٣ و ٦٧ و ٦٨، طبعة الهلال، ١٩٢٦.

(٣) الأمير عمر طوسون: مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن، (الإسكندرية ١٩٣١.

(٤) الدكتور محمد زكى شافعى، مقدمة فى القانون، ص ١٣٣ و ١٣٤ و ١٣٥.

« أهل الإبل مائة من الإبل ، وعلى أهل البقر مائتى بقرة، وعلى أهل الشاة ألفى شاة »(١) .

أى أن الإبل الواحد كان سعره ١٠ دنانير ١٠ × ٣٠٠ = أى ثلاثين جنيهاً مصرياً أو ١٠٠ درهم وكان سعر البقرة ٥ دنانير (٥ × ٣٠٠) أى حوالى خمسة عشر جنيهاً مصرياً و ٥٠ درهماً ، والشاة نصف دينار (½ × ٣٠٠) أى حوالى ١٥٠ قرشاً أو ٥ دراهم .

كذلك نعرف من أوراق البردى العربية أن إيجار فدان القمح فى مصر فى فجر الإسلام كان يتراوح بين دينار ودينارين، وأحياناً يزيد على الدينارين أو ينقص عن الدينار، فيكون الإيجار ½ دينار أو ٢½ دينار(٢) .

نقود الأمويين والعباسيين منذ خلافة عبد الملك :

أمر عبد الملك بن مروان الحجاج بنشر الدراهم الجديدة فى القسم الشرقى من الدولة الإسلامية وبمنع تداول الدراهم السابقة ، وباقناع الناس بجلب الدراهم القديمة إلى دار الضرب لطبعها من جديد (٣) اما عبد الملك نفسه فقد ضرب الدنانير الدمشقية كما يذكر البلاذرى (٤)

وسار الخلفاء الأمويون بعد عبد الملك على سياسته فى ضرب النقود . فكان الخلفاء يتشددون فى عيار الدينار الذهب وكان الذهب خالصاً بقدر ما كانت تساعدهم طرق التصفية. وقيس عيار دينار للرشيد وآخر للمطيع فكان عيارهما

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ١٥٥ .

(٢) Grohmann,: : Arabic Papyri in the Egyptian Library. vol. II Cairo 1936 pp. 32—34.

والدكتورة سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص ٢٧٠ القاهرة ١٩٤٧ .

(٣) الكرملى : النقود ص ٣٦ ، الدورى، تاريخ العراق الاقتصادى، ص ٢١٣— ٢١٤.

(٤) الكرملى ، النقود ، ص ١٠.

٩ر٩٧٪ أى ٥ر٢٣ من القراريط (حبة) باعتبار أن الذهب الخالص ٢٤ قيراطا (حبة). (١)

كذلك تشدد الخلفاء بعد عبد الملك فى صحة الوزن وتخليص الفضة، فضرب عمر بن هبيرة والى العراق للخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك (١٠١ – ١٠٥ هـ = ٧٢٠ – ٧٢٤م) دراهم أجود من دراهم الحجاج على عيار ستة دوانيق. ولما ولى خالد بن عبد الله القسرى العراق للخليفة هشام بن عبد الملك اشتد فى النقود أكثر من شدة ابن هبيرة «حتى أحكم أمرها ابلغ من أحكامه». وذهب خلفه فى ولاية العراق، يوسف بن عمر، ابعد منه فى تخليصها والدقة فى العيار. فكانت الدراهم «الهبيرية» «والخالدية»، «واليوسفية» أجود نقود بنى أمية. ولم يكن الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى يقبل فى الخراج من نقود بنى أمية غيرها، ولهذا سميت الدراهم الأولى «المكروهة» (٢)

وفى العصر العباسى كان الخلفاء يضربون الدرهم والدنانير. وكانوا ينقصون أحيانا وزن الدرهم فضرب أبو العباسى السفاح الدراهم بالأنبار ونقصها حبة واحدة، ثم نقصها حبتين، وفى خلافة المنصور أصبح النقص ثلاث حبات. ولم يصبح للدراهم وزن ثابت مما جعل الناس يتعاملون بها بالوزن ولما قتل جعفر البرمكى فوض هارون الرشيد امر دار الضرب إلى السندى بن شاهك فاعتنى بتخليص الذهب والفضة فى النقد وضرب الدرهم على العيار الصحيح. لكن الامر لم يثبت على حال بعد هذا (٣)

أما وزن الدينار العباسى فكان مثل وزن الدينار الأموى وهو ٢٦٥ر٤ من الجرامات اى ٦٦ حبة، وهذا هو الوزن الشرعى للدينار أو المثقال (٤) واستمرت

---

(١) النقشبندى، الدينار الإسلامى، ص ١٣ — ١٤، و ٣٥ — ٣٦.

(٢) البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٤٧٤، الدورى: تاريخ العراق الاقتصادى، ص ٢١٤.

(٣) الكرملى: النقود، ص ٤٦ — ٥١، الدورى، تاريخ العراق الاقتصادى، ص ٢١٤ — ٢١٥، وما به من مراجع

(٤) النقشبندى: الدينار الإسلامى، ص ٣٤.

كلمة دينار تنقش على جميع النقود الذهب للدولة العباسية والدول التى نشأت فى عهدها او انفصلت عنها (١)

وضرب آخر دينار فى بغداد بعد سقوط الدولة العباسية حول سنة ٦٦١هـ (١٢٦٢م) ثم اختفت هذه الكلمة من النقود الذهب واستمرت فى مصر إلى حكم سلطان المماليك البحرية المظفر سيف الدين حاجى سنة (٧٤٧ هـ-٧٤٨ هـ) (١٣٤٦ - ١٣٤٧ م) ولم تنقش على النقود الذهب المصرية كلمة « دينار » بعد ذلك (٢)

ولم يذكر اسم احد على الدينار العباسى حتى سنة ١٧٠ هـ وهى السنة المشتركة بين الهادى وأخيه هرون الرشيد . وفى هذه السنة نقش على قسم من الدنانير لأول مرة أسماء ثلاثة أمراء وهم «على» «وجعفر» «والعلاء» أما «على» فهو على بن سليمان بن على العباسى الذى ولى مصر سنة ١٦٩هـ وعزل سنة ١٧١ فى عهد الرشيدى ، وأما جعفر الذى ذكر سنة ١٧٠هـ فالغالب انه جعفر بن الهادى الذى رشحه والده لولاية العهد بدلا من هارون الرشيد . اما العلاء فقد يكون العلاء بن سعيد أو العلاء مولى هارون الرشيد أو غيرهما(٣) .

وكان هارون الرشيد أول خليفة ذكر اسمه على الدينار (٤) وضرب العباسيون من الدنانير ما كان أكثر من المثقال إلى اربعة مثاقيل وذلك للتعامل بها . وضربوا عدا هذا أنواعا من الدنانير كبيرة الحجم والوزن وذلك لكنزها أو للصلة والإهداء فى مناسبات معينة كالأعياد والأفراح ، أو للتصدق بها وأطلقوا عليها «دنانير الصلة» وذلك لكى يصلوا بها احباءهم وندماءهم والفقراء وقد وجد فى دار جعفر البرمكى بعد مقتله بركة فيها أربعة آلاف من الدنانير الذهب يزن الواحد منها مائة مثقال ومثقال ، وكتب على الوجه الأول منها :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١.

(٢) النقشبندى : الدينار الإسلامى ، ص ١١ ، ٣٣.

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٩.

واصفر من ضرب دار الملوك يلوح على وجهه جعفر

وكتب على الوجه الثانى

يزيد على مائة واحدا إذا ناله معسر يسر (١)

وحين عهد الأمين إلى ابنه موسى المظفر – الناطق بالحق – بولاية العهد، بدلا من اخيه المأمون ضرب دنانير كبيرة الحجم والوزن، زنة الواحد عشرة مثاقيل للصلة وكتب عليها:

كل عز ومفخر فلموسى المظفر

ملك خص ذكره فى الكتاب المسطر (٢)

وضرب الامير بجكم، فى خلافة الراضى بالله، دنانير يزن الواحد منها عدة مثاقيل فى مناسبة أحد الأعياد، وعلى الوجه الأول صورة بجكم وهو شاكى السلاح وكتب تحتها:

انما العز فاعلم – للأمير المعظم – سيد الناس بجكم

وعلى الوجه الثانى الصورة عينها جلس مجلساً كالمفكر المطرق.

وضرب ابن أبى ذهل الضبى الهروى دنانير يزن الواحد منها مثقالا ونصف المثقال، ليتصدق بها. وكان يقول: إنى أفرح لفرح الفقير، فاذا تصدقت على فقير اتركه يفرح ثلاث مرات، وذلك عندما أناوله القرطاس يظنه درهما فيفرح به، وعندما يفتح القرطاس ويرى صفرة الدينار ازداد فرحا، وإذا أراد شراء حاجة ووزن الدينار، فوجده دينارا ونصف، فرح للمرة الثالثة (٣)

ونحن نعرف من المصادر القديمة، ومن مجموعات النقود المحفوظة فى المتاحف، والنقود المصورة فى الكتالوجات، فضلا عن كتب النقود، أن النقود الإسلامية كانت مستديرة أو شبه مستديرة. ولكن ابن خلدون يذكر استثناء لهذا، فيقول ان المهدى مؤسس دولة الموحدين فى شمال افريقية فى القرن السادس الهجرى اتخذ سكة الدرهم مربع الشكل، كما كان يرسم فى الدينار شكل مربع فى وسطه.

(١) المرجع السابق، ص ٣٤ – ٣٥، ومابه من مراجع.

(٢) الدورى، تاريخ العراق الاقتصادى: ص ٢٢٧ – ٢٢٨، وما به من مراجع.

(٣) النقشبندى، الدينار الإسلامى، ص ٣٥، وما به من مراجع.

وكانت سكة الموحدين على هذا الشكل طوال عهدهم بل انه قيل ان المهدى زعيم الموحدين كان ينعت قبل ظهوره «بصاحب الدرهم المربع . (١)

نقود مصر الاسلامية :

تدل قطع «الاوستراكا» (٢) على أن المعاملات بين الأهالى فى مصر قبل الفتح العربى كان أساسها العملة الذهبية المعروفة بالدينار Denarius اوسوليدس Solidus أو تريميزيون Tremision (٣) اى ان مصر كانت تتبع قاعدة الذهب . ويذهب علماء الاقتصاد إلى القول بأن نظام المعدن الفردى الذهبي لايمنع استعمال نقود أخرى غير الذهب ، وبخاصة النقود الفضية. ولكن الذهب يكون وحده هو العملة القانونية التى لها قوة إبراء غير محدودة ، أى تكون أداة للوفاء بالالتزامات ، والقانون لايعترف لغيرها بقوة الإبراء من الديون(٥) وتعتبر النقود الأخرى عملة مساعدة (٦) . أما قاعدة الذهب . فهى تنظيم نقدى تتكافأ فى ظله قيمة وحدة النقد مع قيمة وزن معين من الذهب (٧)

ولا نجد فى الاوستراكا سوى إشارة اواثنتين إلى النقود الفضية فى مصر، وتعرف بالدراهم(٨)،ويظهر أن النقود الصغيرة التى كانت تستعمل فى مصر إذذاك

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، الفصل السادس والثلاثون ، ص ٢٦٢

(٢) الأوستراكا قطع من الفخار والأحجار ، استخدمتها بعض الشعوب القديمة ، فى الكتابة واستنبط منها علماء الآثار كثيرا من الحقائق التاريخية .

(٣)، Crum, . : Coptic Ostraca. London 1902 pp. 23 45, 78, 79, 80.

(٤) إذا كان أساس النظام النقدى فى الدولة هو الذهب فإنه يقال انها تتبع قاعدة الذهب عبد الحكيم الرفاعى : الاقتصاد السياسى، ج ١، ص ٤٧٩

(٥) عبد الحكيم الرفاعى ، الاقتصاد السياسى ، ص ٤٤٨ ، ومحمد زكى شافعى مقدمة فى النقود والبنوك، ص ٤٠.

(٦) عبد الحكيم الرفاعى : الاقتصادى السياسى ص ٤٨٠.

(٧) محمد زكى شافعى، مقدمة فى النقود، ص ١٠٧ — ١٠٩ .

(٨) Crum : op. cit. p. 23. ، سيدة كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص٦٨.

ذاك ـ كالقروش وكسورها اليوم ـ كانت العملة البرونزية(١) ويقول المقريزى(٢): «أما مصر من بين الأمصار فما برح نقدها المنسوب اليه قيم الأعمال وأثمان المبيعات ، ذهبا فى سائر دولها، جاهلية وإسلاما يشهد لذلك بالصحة ان خراج مصر فى قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب »

وتؤيد أوراق البردى، وقطع الاوسترا كا، ماذكره المقريزى، إذ تشهد كلها بأن الجزية والضرائب، وإيجار الأرض ، وأجور العمال ، وسائر المعاملات كانت تدفع بالدنانير وأقسامها . وتعرف الدنانير فى أوراق البردى اليونانية باسم Solidi (٣) .

وظلت الدنانير الذهبية هى النقود المتداولة فى مصر بعد الفتح العربى كما كان الحال قبل الفتح . وقد تكون النقود الاسلامية قد دخلت فيها كما يتضح من كتاب الكاتب القبطى بشندى أسقف قفط الذى عاصر فتح العرب .

وربما ظلت النقود الأجنبية فى مصر يتعامل بها جنبا إلى جنب مع النقود الإسلامية حتى اصلاح عبد الملك بن مروان للسكة وتحريمه الدنانير الأجنبية، أى أن السكة فى مصر خضعت للسكة الإسلامية . ولم تستقل سكة مصر عن السكة المستعملة فى الخلافة إلا بعد أن استقلت مصر عن الخلافة كما حدث فى عهد احمد بن طولون . ولدينا دنانير من سكة أحمد بن طولون نشرها ستانلى لين بول (٤)

---

(١) Crum op. cit. pp. 23, 42, 45· سيدة كاشف : نفسه ص ٦٨ .

(٢) الكرملى : النقود ، : ص ٥٢ .

Crum : Coptic Ostraca, pp. 36 - 37,

(٣) Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British Museum (Der Islam. Band II) pp. 271, 274 etc., Becker: Neue Arabische Papyri, pp. 254 - 267 etc., Grohmann : Arabic Papyri vol. II pp. 44, 45, 48, vol. III pp. 17, 31, 48. 141.

(٤) Lane - Poole : - Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Egyptian Library Cairo. pp. 135 – 136.

وفى ذلك يقول المقريزى : « ومع هذا فان مصر لم تزل منذ فتحت دار امارة ، وسكتها إنما هى سكة بنى امية ثم بنى العباسى، إلا أن الأمير أبا العباسى أحمد بن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية» (١)

والواقع أن دار لضرب النقود تأسست فى مصر زمن أحمد بن طولون (٢)، حيث ضربت الدنانير التى عرفت بالأحمدية نسبة إليه، وامتازت بعيارها الجيد . وقصة أحمد بن طولون وتجويد عيار ديناره مشهورة ، وكان عيار ديناره أجود عياراً من عيار السندى بن هاشك والخليفة المعتصم (٣). ولا عجب فان السكة كانت تعتبر فى العالم الإسلامى من شارات الملك (٤)

أما النقود التى نعرفها من العصر الطولونى، فضربت فى مدن مختلفة ، مثل مصر ودمشق وحران وحمص وحلب وأنطاكية. كذلك وصلت الينا نقود من العصر الاخشيدى ضربت فى مصر والرملة ودمشق، ويمكن ان نستنبط منها الحقائق التاريخية الآتية :

أولا : أن الدنانير التى ضربت بمصر فى عهد الخليفة الراضى وولاية محمد بن طغج الإخشيد، من سنة ٣٢٣ هـ إلى سنة ٣٢٩ هـ، كان يذكر فيها اسم الخليفة وحده، مما يشهد بأن الإخشيد كان لايزال يخضع كل الخضوع للخلافة العباسية .

ثانياً : أن الدنانير التى ضربت بمصر فى عهد الخليفة المتقى ، وولاية محمد بن طغج سنة ٣٢٩ هـ كان فيها اسم الخليفة وحده، مما يشهد أيضاً بأن الأخشيد

---

(١) الكرملى :النقود ، ص ٥٤ .

(٢) المقريزى. كتاب النقود القديمة الإسلامية (نشره الكرملى) ص ٥٤ ، وكذلك البلوى، سيرة احمد بن طولون، ص ١٩٦ تحقيق محمد كرد على ، دمشق ١٣٥٨ هـ .انظر كذلك
Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 210—211 Paris 1933

(٣) الكرملى : النقود، ص، ٥٤ — ٥٧ .

(٤) ابن خلدون: المقدمة ، الفصل السادس والثلاثون فى شارات الملك والسلطان الخاصة به

كان فى بداية حكم المتقى لايزال يدين للخلافة بالطاعة التامة والتبعية الظاهرة .

ثالثاً : ان سنة ٣٢٩ﻫ كانت فاصلا بين عهدين ، نقد وصل الينا دينار منها لم ينقش عليه اسم الخليفة، وانما نقش اسم محمد بن طغج وحده ومعه لقب الأمير الأخشيد. ولسنا ندرى هل حذف اسم الخليفة مقصود، او أن ثمة خطأ فى كتابة هذا الدينار . وإذا كان الحذف مقصودا فلسنا نستطيع تفسيره إلا بأن الاخشيد فكر فى الاستقلال التام عن الخلافة بعد صلحه مع ابن رائق ثم تبين صعوبة تحقيق ذلك فرجع إلى الوقوف عند الاستقلال الذاتى.

رابعاً : أن السكة التى ضربت للاخشيد بعد سنة ٣٢٩ ﻫ كان ينقش عليها اسمه واسم الخليفة المتقى .

خامساً : ان السكة التى ضربت فى عهد أونوجور بن الاخشيد من سنة ٣٣٦ ﻫ إلى سنة ٣٤٧ ﻫ كان ينقش عليها اسم الخليفة المطيع واسم «ابو القاسم بن الاخشيد» .

سادساً : أن السكة التى ضربت باسم على بن الأخشيد من سنة ٣٥٠ إلى سنة ٣٥٥ ﻫ كان ينقش عليها اسمه واسم الخليفة المطيع .

سابعاً : أن كافورا لم ينقش اسمه على السكة . وهذا يؤيد رأينا فى أن كافورا حين حكم مصر ، بعد وفاة على بن الأخشيد، كان يشعر بما نكاد نصل إليه من النصوص، وهو أنه وسط بين الأمير والوصى على العرش .

ثامناً : أن السكة الإخشيدية بعد وفاة كافور كانت تضرب باسم الخليفة المطيع، مع اسمى الأمير أحمد بن على بن الإخشيد، وعمه الوصى عليه وهو الحسين بن عبيد الله بن طغج(١) .

وهكذا نرى أن دراسة السكة تكشف عن أشياء كثيرة توضح الأحداث التى نعرفها من المراجع التاريخية .

---

(١) راجع فى موضوع السكة فى عصر الأخشيديين دكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١٩١ — ١٩٥، وما به من مراجع

ويذكر المؤرخون أن محمد بن طفج الأخشيد أمر بضرب الدينار الأخشيدى على عيار كامل ، وصلحت النقود فى عهده بعد فسادها(١) .

ولما دخل جوهر الصقلى مصر على رأس جند الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، ضرب الدينار المعزّى فى سنة ٣٥٨ هـ ، وكتب اسم المعز على الدينار ، وكذلك ظهر على الدينار بعض العبارات التى تدل على مذهب الخلافة الفاطمية الشيعى ، مثل « على أفضل الوصيين ، وزير خير المرسلين »(٢) .

ولما قدم المعز من إفريقية إلى القاهرة المعزية سنة ٣٦٢ هـ لم يقبل يعقوب ابن كلس أن يقبض من أموال الخراج إلا دنانير معزية . وساعد هذا على انحطاط قيمة غيره من الدنانير الموجودة مثل « الدينار الراضى » نسبة إلى الخليفة العباسى الراضى ، فنقص سعر صرفه أكثر من ربع دينار(٣) . وهذا يؤكد أن الناس تتعامل بالنقود على حسب الثقة فيها ، وهذه الثقة تأتى من ضمان الحكومة للنقود المتداولة .

وهناك ظاهرة أخرى بدت واضحة فى مصر فى العصر الفاطمى وهو تعامل الناس بالدراهم والدنانير بدلا من تعاملهم بالدنانير فقط، وكان قيمة أو صرف الدينار المعزى خمسة عشر درهماً ونصف(٤) .

ولكن الدراهم أخذت تزداد فى مصر زيادة كبيرة مما سبب فى انهيار قيمتها . ففى أيام الحاكم بأمر الله إزدادت كميات الدراهم المتداولة بين الناس حتى أن قيمة الدينار فى سنة ٣٩٩ هـ بلغت أربعة وثلاثين درهماً(٥) . واضطرت الحكومة الفاطمية أن تجرى إصلاحاً نقدياً ، وفى ذلك يقول المقريزى فى كتابه النقود الاسلامية « وأنزل من القصر عشرون صندوقاً

---

(١) سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ، ص ١٩٥ ، وما به من مراجع .

(٢) الكرملى : النقود، ص ٥٨ .

(٣) المقريزى : النقود القديمة الإسلامية ، نشر الكرملى ، » ص ٥٨ .

(٤) الكرملى : النقود ، ص ٥٨ .

(٥) الكرملى : النقود ، ٥٩ .

فيها دراهم جدد ، فرقت للصيارف ، وقرىء سجل بمنع المعاملة بالدراهم الأولى ، وترك من في يده شيء منها ثلاثة أيام ، وأن يورد جميع ما تحصل منها إلى دار الضرب ، فاضطرب الناس ، وبلغت أربعة دراهم بدرهم جديد ، وتقرر أمر الدراهم الجدد على ثمانية عشر درهماً بدينار »(١) .

أما فى العصر الأيوبى فى مصر فنرى السكة تضرب فى سنة ٥٦٩ هـ باسم كل من الخليفة العباسى المرتضى بأمر الله والملك العادل نور الدين محمود بن زنكى صاحب بلاد الشام. وبعد وفاة نور الدين ، واستبداد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى بأمر مصر والشام ، نرى صلاح الدين يبطل فى سنة ٥٨٣ هـ النقود المتداولة فى مصر ، ويضرب الدينار من الذهب المصرى ، كما يضرب الدراهم الناصرية . لكننا نلاحظ إرتباط العملة المصرية بالحالة السياسية والحربية آنذاك . إذ وقع على كاهل مصر والشام عبء مقاومة جموع الصليبيين الذين أتوا الشرق غازين معتدين منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ونجحوا فى تكوين إمارات صليبية فى الشام كما هددوا مصر بالغزو عدة مرات . وطبيعى أن تتعرض مصر والشام للضغط الاقتصادى وذلك كى تقف فى وجه المعتدين ولتطهر البلاد منهم ، وقد تسرب من البلاد كثير من الذهب والنفائس خلال العمليات الحربية التى اضطلعت بها البلاد .

وليس هناك وصف أدق من وصف المقريزى حين يبين حالة النقد المصرى بعد زوال الدولة الفاطمية وتسرب الأموال والنفائس من القصر والقصر هنا معناه مقر الحكم أو الحكومة ، كما يبين اضطراب قيمة النقود فى مصر التى يعبر عنها بكلمة « المصارف » أى سعر صرف الدينار وفى ذلك يقول المقريزى فى كلامه عن سنة ٥٦٩ هـ « وفيها عمت بلوى المصارف بأهل مصر لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا ، وعدما فلم يوجدا ، ولهج الناس بما غمهم من ذلك ، وصاروا ، إذا قيل دينار أحمر ، فكأنما ذكرت حرمة له ، وإن حصل فى يده فكأنما جاءت بشارة الجنة له . ومقدار ما حدث ، أنه خرج من القصر ما بين درهم ، ودينار ، ومصاغ ، وجوهر ، ونحاس ، وملبوس ، وأثاث ،

---

(١) المرجع السابق : ص ٥٩ .

وقماش، وسـلاح ، ما لا يفي به ملك الاكاسرة ولا تتصوره الخواطر ، ولا تشتمل على مثله الممالك ، ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق فى الآخرة »(١) .

وحين ضرب صلاح الدين الدراهم الناصرية فى سنة ٥٨٣ هـ جعل نصفها من فضة ونصفها من نحاس ، وظل الحال كذلك فى مصر والشام إلى أن أبطل الملك الكامل الأيوبى الدرهم الناصرى فى ذى القعدة سنة ٦٢٢ هـ وضرب الدراهم الكاملية المستديرة التى كان ثلثاها من الفضة والثلث من نحاس . وكانت الدراهم الناصرية ، أو الدراهم المصرية العتق تعرف فى مصر والإسكندرية بالزيوف(٢) .

ويذكر القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى أن الدراهم التى يكون ثلثاها من الفضة وثلثها من نحاس اسمها « الدراهم النقرة »(٣) .

والحق أن الدراهم الفضية أصبحت عملة متداولة فى مصر منذ العصر الفاطمى وزاد التداول بها زمن الأيوبيين حتى أصبحت تقوم بها المبيعات الهامة وخراج الأرض وأجرة المساكن وقيم الأعمال .

أى أن مصر أصبحت فى العصر الأيوبى تتبع نظام المعدنين ، الذهب والفضة .

ثم تطور الأمر بعد ذلك فمنذ سنة ٦٣٠ هـ فى عهد الملك الكامل نرى النقود النحاس تنتشر فى مصر وعرفت باسم « الدراهم الفلوس » . وانفسح المجال لظهور العملات الأجنبية الفضية فى الأسواق المصرية مثل نقود البندقية ، ونقود فلورنسا وذلك لاتصال الشرق بأوربا حربياً وتجارياً بل أن ظهور العملات الإيطالية فى السوق المصرى ساعد على اختفاء الفضة المصرية التى كانت تهرب إلى أوربا حيث تسك فى دور الضرب الإيطالية .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢) المرجع السابق ،ص ٦٠ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ،ج ٣، ص ٤٣ (دار الكتب المصرية)

(٤) الكرملى : النقود، ص ٦٠ — ٦١ .

أما النقود فى عصر المماليك البحرية فقد كانت دنانير من الذهب ونقوداً من الفضة، ومن النحاس. ونرى الظاهر بيبرس بعد أن نقل مركز الخلافة العباسية إلى القاهرة نقش على النقود الذهبية والفضية اسم الخليفة العباسى فى القاهرة ونقش اسمه معه مضافاً إليه عبارة «قسيم أمير المؤمنين» ونقش الظاهر بيبرس أيضاً رنكه على النقود، أى شارته، وهو صورة سبع.

ولكن بعد أن استقر المماليك فى حكم مصر لم يهتموا بنقش اسم الخليفة العباسى فى مصر فكانت العملة فى عهد أسرة قلاوون فى الغالب تحمل اسم السلطان وتاريخ ومكان الضرب، وبعض العبارات الدينية.

ونلاحظ فى العصر المملوكى أن النقود الذهبية لم تثبت على عيار واحد أو وزن واحد أو حجم واحد. ولذلك نجد أنه منذ سنة ٨٠٠هـ كثر تداول العملات الأجنبية وخاصة الدوكات Ducat فى مصر وغيرها من البلاد العربية وهذه الدوكات هى عملة البندقية الذهبية. ويذكر القلقشندى أن هذه النسبة إلى أميرهم دوك البندقية أما الألف والتاء فى الآخر فقائمان مقام ياء النسب(١) وعرفت الدوكات فى الشرق باسم البندقى ولاشك أن كثرة تداول هذه النقود يرجع إلى نشاط التجار الايطاليين فى ذلك الحين فضلا عن وزن الدوكات الثابت وعياره المرتفع.

وثمة ظاهرة أخرى فى العصر المملوكى، وخاصة فى عصر دولة المماليك البرجية أو الجراكسة، هى اختفاء الدراهم أو النقود الفضية والاكثار من ضرب الفلوس أى النقود النحاسية، وكذلك ورود كثير من دراهم البندقية. وفى الوقت نفسه كان الفرنج يأخذون ما بمصر من الدراهم إلى بلادهم. ويذكر المقريزى أنه فى عهد الملك الظاهر برقوق أول المماليك البرجية «راجت الفلوس رواجا عظيماً حتى نسب إليها سائر المبيعات، وصار يقال: كل دينار بكذا من الفلوس»(٢) ويعلق المقريزى على ذلك بقوله «وكانت الفلوس لا يشترى

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤١.

(٢) الكرملى: النقود، ص ٦٩.

بها شيء من الأمور الجليلة ، وإنما هى لنفقات الدور ، ومن أنعم النظر فى أخبار الخليقة عرف ماكان الناس فيه بمصر والشام والعراق ، من رخاء الأسعار ، فيصرف الواحد العدد اليسير من الفلوس فى كفاية يومه »(١) .

والواقع أن المقريزى يتعجب من رواج الفلوس كنقد أساسى ويقول أن المعروف أن الذهب والفضة هما أساس النقد « وأنه لما كانت فى المبيعات محقرات تقل عن أن تباع بدرهم أو بجزء منه ، احتاج الناس من أجل هذا فى القديم والحديث من الزمان ، إلى شيء سوى الذهب والفضة ، يكون بازاء تلك المحقرات ، ولم يسم أبدا ذلك الشيء الذى جعل للمحقرات نقداً البته فيما عرف من أخبار الخليقة ، ولا أقيم قط بمنزلة أحد النقدين ... »(٢) ونرى المقريزى يتكلم فى موضع آخر عن رواج الفلوس فيقول : « أنه حدث من رواجها خراب الإقليم ، وذهاب نعمة أهل مصر ، وأن هذا فى الحقيقة كعكس للحقائق . فإن الفضة هى نقد شرعى ، لم تزل فى العالم ، والفلوس ، إنما هى أشبه شيء بلا شيء ، فيصير المضاف مضافاً إليه »(٣) .

ويعود المقريزى فيبين علة رواج الفلوس فى مصر المملوكية كعملة أساسية وليس كعملة مساعدة ، بقوله: « وتا الله ، أن هذا الشيء يستحيا من ذكرة ، لما فيه من عكس الحقائق إلا أن الناس ، لطول تمرنهم عليه ، ألفوه ، إذ هم أبناء العوائد ، وإلا فهو فى غاية القبح والمرجو أن يزيل الله عن بلاد مصر ، هذا العار »(٤) .

دار الضرب :

ضربت النقود الإسلامية فى كل حواضر ديار الاسلام شرقاً وغرباً فضربت النقود فى مصر والشام والعراق وخراسان وفى شمال إفريقية

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٩

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٤) المرجع السابق، ص ٦٩ — ٧٠ .

والأندلس وصقلية وغيرها. وكانت النقود تختلف شكلا، ونصا، وكتابة، ووزنا وحجماً باختلاف الدول والعصور . وعرف مكان ضرب النقود باسم دار الضرب . ولم يسمح بضرب الدينار إلا فى المدن الرئيسية والعواصم الهامة . أما الدراهم والفلس فكان من ضرب الأمراء والولاة فى عدة مدن(١) .

ويبدوا أن الختم على الدنانير والدراهم وعيارها كان يقوم به نفر قليل من الموظفين يعرف بعضهم باسم المعدلين(٢) ويعرف الآخرون باسم السباكين(٣) ويعرف البعض باسم الطباعين(٤) ويشرف عليهم متولى دار الضرب ووصلت إلينا عن دار الضرب بإيران فى العصر الصفوى بيانات طيبة فى كتاب «تذكرة الملوك» الذى نشره الأستاذ مينورسكى(٥) وكانت صناعة ضرب النقود بسيطة فى فجر الاسلام . ويقول المقريزى أنه لما قتل الخليفة العباسى الأمين واجتمع الأمر لعبد الله المأمون ، لم يجد أحداً ينقش الدراهم فنقشت بالمخراط كما تنقش الخواتم »(٦) .

وكان لدار الضرب ضريبة على ما يضرب فيها من نقود كانت تسمى فى بداية العصر الاسلامى « ثمن الحطب وأجرة الضراب »(٧) . وكان مقدارها فى أيام عبد الملك بن مروان ١٪ إذ أنه « قدر فى كل مائة درهم درهماً »(٨).

---

(١) النقشبندى : الدينار الإسلامى ، ص ١٦ — ١٧، وما به من مراجع .

(٢) الكرملى : النقود، ص ٣٧ .

(٣) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص ٣١ ، ليدن ١٨٩٩ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان، ص ٤٧٤ .

(٥) Minorsky : Tadhkirat al - Muluk : A Manual of Safarid Administration.

وانظر أيضا ، Rabino di Borgomale : Coins and Seals of the Shahs of Iran pp. 1—5.

(٦) الكرملى : النقود، ص ٥٠.

(٧) المرجع السابق: ص ٣٦.

(٨) المرجع السابق، ص ٣٦.

وكان الخلفاء أو من ينوب عنهم هم الذين يباشرون عيار النقود .. ويذكر المقريزى أن هارون الرشيد هو أول خليفة ترفع عن مباشرة العيار بنفسه وكان الخلفاء من قبله يتولون النظر فى عيار الدراهم والدنانير بأنفسهم »(١) وترك الخليفة هارون الرشيد مباشرة عيار النقود لجعفر بن يحي البرمكى فلما قتل هارون الرشيد جعفرا صير السك إلى السندى »(٢).

وكان الخليفة أو أمراء الدول الاسلامية المستقلة يعهدون فى بعض الأحيان بالاشراف على دار الضرب إلى القاضى(٣) « وكانت دار الضرب فى الدولة الفاطمية لا يتولاها إلا قاضى القضاة تعظيماً لشأنها ، وتكتب فى عهده فى جملة ما يضاف إلى وظيفة القضاء ويقيم لمباشرة ذلك من يختاره من نواب الحكم »(٤) وكان الدينار أو الدرهم يكسر ويضرب مرة أخرى كما فعل عبدالملك بالدنانير البيزنطية المتداولة . وكان الملوك والأمراء يكسرون الدنانير ويعيدون ضربها إما لاحتياجهم إلى التبر وإما لاخراج نقود بأسمائهم وإما لأغراض سياسية كما فعل الحجاج بدراهم مصعب بن الزبير .

ويذكر السيد ناصر النقشبندى فى كتابه « الدينار الاسلامى » فى المتحف العراقى أنه رأى عدة دراهم مضروبة مرة ثانية ، ولاتزال كتابات الضرب الأول ترى عليها بشكل معاكس لأنه لم يتقن ضربها فى المرة الثانية(٥) . وكان هناك نقود جيدة ونقود رديئة . أما النقود الجيدة فتلك التى كانت تضرب فى دار الضرب . أى النقود التى تصدرها الدولة والتى يثق فيها الناس لأن الحكومة هى التى تتولى سكها ومراقبة عيارها وخلوص ذهبها وفضتها . وكانت النقود الجيدة توصف بأنها « الميالة الوازنة التامة »(٦) أى التى تميل

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص٤٨.

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٥٦٢ — ٥٦٣ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٦٦.

(٥) النقشبندى: الدينار الإسلامى، ص ١٥.

(٦) المقريزى. النقود الإسلامية، نشر الكرملى، ص ٤٧.

إلى الرجحان أى أنها تامة الوزن ليس فيها أدنى نقص . وكذلك يصف الجاحظ الدنانير الجيدة بأنها « مثاقيل وازنة جياد »(١) وأما النقود الرديئة فهى أنواع متعددة حسب تفنن الناس فى الغش والتزييف . فكان بعض الناس يعمد إلى الضرب على سكة السلطان وتقليدها . وكان ضرب النقود من إمتياز الخليفة أو ممثليه ، أما ضرب النقود خارج دار الضرب فكان يعتبر جريمة . ويقال أن عبد الملك بن مروان أخذ رجلا يضرب على غير سكة المسلمين فأراد قطع يده ثم ترك ذلك وعاقبه . ويروى أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أتى برجل يضرب على غير سكة السلطان فعاقبه وسجنه وأخذ حديده، أى السكة التى كان يطبع عليها فطرحه فى النار(٢) ، وفى سنة ٣٢٨ هـ عوقب رجل على هذه التهمة بالجلد والتشهير على جمل وطيف به فى جانبي بغداد(٣) . ويقول أبو يعلى عن أحمد بن حنبل : « لا يصلح ضرب الدراهم إلا فى دار الضرب باذن السلطان ، لأن الناس أن رخص لهم ركبوا الفطائم »(٤) . ويرى الماوردى أن يتعامل الناس بالنقد المطبوع « بالسكة السلطانية الموثوق بسلامة طبعه ، المأمون من تبديله وتلبيسه »(٥) .

ولكن دار الضرب كانت مفتوحة للجميع ، وكان من حق كل فرد أن يأتى بالذهب أو الفضة لتضرب له(٦) ويذكر البلاذرى أن الحجاج أذن للتجار وغيرهم فى أن تضرب لهم الأوراق(٧) أى النقود الفضية .

وكان التجار والصرافون فى القرن الرابع الهجرى يتوسطون بين الناس وبين دار الضرب فيأخذون من الناس المعادن الثمينة ويعطونهم ما يساويها

---

(١) الجاحظ : البخلاء ،ص ٦٥ ، طبع المجمع العلمى العربى بدمشق .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان، ص٤٧٥

(٣) الصولى : أخبار الراضى والمتقى بالله .(القاهرة ، ١٩٣٦). ص ١٤٨ ،الدورى، تاريخ العراق الاقتصادى ،ص ٢٣٤.

(٤) أبو يعلى ، الفراء الحنبلى : الأحكام السلطانية ، القاهرة ،١٩٣٨ ،ص ١٦٥.

(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ، القاهرة ،١٢٩٨ هـ ، ص ١٥٠

(٦) أبو يعلى: نفس المرجع،ص١٦٥.

(٧) البلاذرى: نفس المرجع ، ص٤٧٤.

فى القيمة الاسمية للنقود ، ولعل الصيارف كانوا يحبذون زيادة المعدن الرخيص فى الدنانير وذلك لأنهم كانوا يأخذون الذهب والفضة من الناس إلى دار الضرب ويعطون أصحابها نقوداً تساوى ما أخذوه فى القيمة الاسمية، أى أن النقود لا تصبح قيمتها السلعية كاملة فكانت زيادة الخليط تزيد فى أرباحهم(١) .

ومن النقود لرديئة، الزيوف، جمع زيف ، وهى الدراهم التى تكون نسبة المعدن الرخيص فيها كبيرة . وقيل أن عمر وعثمان كانا إذا وجدا الزيوف فى بيت المال جعلاها فضة(٢) .

ومن النقود الرديئة، البهرج، أو البهرجه، أو النبهرجه، وهى نقود يكثر المعدن الرخيص ، ويقصد بها الدنانير الرديئة ، وأحياناً يقصد بها الدراهم الرديئة(٣) .

وكان فريق من الناس يحاول تزييف النقود وذلك بضرب دينار من الفضة وطليه بالذهب(٤) وكذلك كانت الفلوس وهى النقود النحاسية تغطى بطبقة من الفضة لينخدع الناس فيها ويظنونها دراهم وكان هذا النوع من الفلوس أو الدراهم يسمى، الستوقة ، أو الدرهم الستوق(٥) .

كذلك لجأ بعض الناس الذين لا يرغبون فى صرف الدينار جميعه إلى قطع جزء منه أو قرض جزء يسمى « قراضة » ثم يبيعونه بحسب سعر الذهب التبر وبهذه الطريقة يضيع جزء من الدينار(٦) .

---

(١) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى، ص ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، وما به من مراجع .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٧٥ .

(٣) الدورى : المرجع السابق، ص ٢٣١ وما به من مراجع .

(٤) النقشبندى : الدينار الإسلامى ، ص ١٤ .

(٥) الكرملى ، النقود، ص ١٤٧ ، الدورى : تاريخ العراق ، ص ٢٣٢ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٤٧٤ .

(٦) النقشبندى : الدينار الإسلامى، ص ١٥ ، ومابه من مراجع .

وكانت هذه الدنانير تسمى « القراضة والمثلومة »(١) .

وقيل أن مروان بن الحكم أخذ رجلا يقطع الدراهم فقطع يده(٢) وعاقب ابان بن عثمان ، وهو والى على المدينة ، من يقطع الدراهم بضربه ثلاثين ، وأن يطاف به(٣) .

وكان البعض يدس فى النقود « المفرغة »(٤) ومعنى ذلك أن يعمل ثقب فى الدينار أو الدراهم ويستخرج منه الذهب أو الفضة ثم يحشى بمادة رخيصه ويطلى بطلاء من الذهب أو الفضة(٥) .

وكانت النقود الممسوحة تعتبر غير جيدة لأن قيمتها من ناحية المعدن تقل عن قيمة النقود الجديدة . ولم يجز الفقهاء دفع النقود الرديئة ولا مكسور الدراهم والدنانير فى الخراج . أما الأفراد فكانوا أحراراً فى أخذها أو ردها . وقد تقبل النقود الرديئة ولكن بقيمة تقل عن قيمة « المضروب الصحيح » وكان من اللازم وزن النقود الممسوحة أو المكسرة أو المثلومة قبل استلامها(٦).

نظام المعدنين الاثنين : (Bimetallism)

كانت الدولة الإسلامية تتبع نظام المعدنين فكانت تتعامل بالدينار، والدرهم ولم تكن الدراهم كما رأينا أجزاء من الدينار وإنما كان الدرهم يتبع قاعدة الفضة ، وكان الدينار يتبع قاعدة الذهب .

ويرى علماء الاقتصاد أن نظام المعدنين عبارة عن قاعدة نقدية مزدوجة ترتبط بمقتضاها قيم النقود بعلاقة ثابتة مع قيمة الذهب وقيمة الفضة فى نفس الوقت . ويتحقق ذلك الارتباط باجتماع ثلاثة شروط :

---

(١) الدورى ، تاريخ العراق، ص ٢٣٢ ،وما به من مراجع .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان، ص ٤٧٥ .

(٣) المرجع السابق، ص ٤٧٥

(٤) المرجع السابق ،ص ٤٧٥

(٥) الكرملى ، النقود ص ١٧:

(٦) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ و ٢٢١ .

أولا : تحديد الوزن المعدنى الذى تساويه وحدة النقد من كل من المعدنين على التوالى بما يترتب على ذلك من إنشاء علاقة ثابتة بين قيمة الذهب والفضة .

ثانياً : الاعتراف للمسكوكات المصنوعة من كل من المعدنين بقوة إبراء غير محدودة فى الوفاء .

ثالثاً : اطلاق حرية الأفراد فى تحويل سبائك أى المعدنين إلى مسكوكات وبالعكس(١) .

وقد رأينا أن دار الضرب كانت مفتوحة للجميع وأنه يحق لكل فرد أن يأتى بالذهب أو الفضة لتضرب له النقود نظير رسم بسيط . كذلك كانت الدولة والأفراد يتعاملون بالدنانير والدراهم بحسب النسبة السائدة فى السوق ، أو سعر الصرف الذى تحدده الأحوال التجارية(٢) ومع ذلك فان الظروف التاريخية للبلاد الإسلامية لم تجعلها فى يوم ما منطقة نقدية موحدة فبينما كان نظام النقد مزدوجاً إذربيجان والجبال وجرجان وطبرستان والديلم والرى ، كان فردى القاعدة فى مصر ، وفى كرمان وبخارى ومقاطعة فارس فى الشرق فكانت المقاطعات الثلاثة الأخيرة ضمن منطقة الفضة تتعامل بالدراهم وتعتبر الذهب نوعاً من البضاعة .

أما مصر فكانت ضمن منطقة الذهب وتستعمل الفضة للحلى والأثاث أما العراق مركز الخلافة العباسية فكان يتعامل بالذهب والفضة(٣) .

ولم تكن قيمة الدينار فى بلد تساوى دائماً قيمته فى بلد آخر، فكان الدينار العراقى يساوى ٨٠٪ من قيمة الدينار المصرى حول سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢م) . كذلك كانت نسبة الدرهم للدينار تختلف من وقت لآخر ومن بلد لآخر(٤).

---

(١) محمد زكى شافعى ، مقدمة فى النقود، ص ١١٥ ــ ١١٦ .

(٢) ضياء الريس ، الخراج والنظم المالية ، ص ٣٧٣ .

(٣) الدورى ، تاريخ العراق، ص ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ومابه من مراجع .

(٤) المرجع نفسه ، ص٢٢١ ــ ٢٢٥ ، وما به من مراجع .

كذلك نلاحظ — مع وجود نظام للمعدنين — شيوع استعمال إحدى العملتين فى المعاملات فى فترة ما أكثر من الاخرى . وكان للأسباب السياسية والحربية والظروف الاقتصادية فضلا عن الظروف التاريخية لكل إقليم أكبر الأثر فى ذلك .

فحينما قامت الدولة العباسية رأى البيزنطيون أنهم لا ينازعونهم سيادة البحر المتوسط كما فعل أسلافهم الأمويون فضلا عن أنهم لم ينجحوا فى بسط سلطانهم منذ البداية على جميع أراضى الدولة الإسلامية .

لكن العباسيين أخذوا يهاجمون بعنف يفوق عنف أسلافهم الأمويين أطراف الإمبراطورية الشرقية، واضطر حكام القسطنطينية أن يؤدوا للخلافة العباسية قدراً كبيراً من الذهب جزية، فنرى قسطنطين الخامس يدفع عام (١٥٧هـ — ٧٧٢ م) أى فى خلافة أبى جعفر المنصور ، مبلغاً ضخماً تأميناً لأطرافه الشرقية . ثم تجددت هذه الجزيات زمن الإمبراطورة إيرين فى خلافة المهدى سنة ١٦٥ هـ (٧٨١ م) . وشهد عام ١٨٢ هـ (٧٩٨ م) فى خلافة هارون الرشيد تدفق الذهب من جديد إلى بغداد بعد أن بلغت جيوش المسلمين مدينة أفسس Ephesus .

كذلك أجبر الإمبراطور نقفور—خليفة إيرين—على دفع الجزية بعد عام ١٩١هـ (٨٠٦ م) ،حين بلغت جيوش هارون الرشيد مدينة هرقلة الواقعة قبالة القسطنطينية(١) .

لكن تلك السنوات شهدت قصر استخدام الذهب فى التجارة الدولية على مجال أضيق بكثير مما كانت عليه الحال زمن معاوية وجستنيان فكانت عملة مصر والشام وشمال إفريقية بالدينار الإسلامى واستخدمت الإمبراطورية البيزنطية عملتها الخاصة بها .

وامتدت منطقة الفضة إلى الشرق والغرب ، على جانبى منطقة الذهب ، ففى الغرب استخدم الأندلس الدرهم الإسلامى، واستخدم معظم غرب أوربا ، فيما عدا إيطاليا وقليلا من المناطق الشمالية ، البنى الفضى الكارولنجى . أما فى

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية، ص ١٧١ — ١٧٢ .

الشرق فاستمرت كل من العراق وإيران وما وراء النهر تستخدم الدرهم الفضى الذى ضرب على نمط العملة الساسانية صاحبه السيادة فى المحيط الهندى(١).

لكننا نلاحظ انتعاش إفريقية (تونس الحالية) زمن الأغالبة، فى أواخر القرن الثانى والقرن الثالث الهجرى ١٨٤ — ٢٩٦ هـ (٨٠٠م — ٩٠٨)، ومن بعدهم زمن الفاطميين، فأصبحت إفريقية بلداً زراعياً غنياً، وكذلك انتعشت صناعاته وتجارته، كما كان له أسطول بحرى متفوق، وكذلك سارت القوافل مخترقة الصحراء إلى بلاد السنغال والنيجر والسودان حيث يتوافر الذهب. وهكذا تدفق الذهب إلى إفريقية فضلا من ثروتها من تجارة البحر المتوسط، ولا غرو أن كانت الدنانير المغربية التى ضربها حكام إفريقية من الذهب الذى ملأ خزائنهم، من أهم العملات الذهبية الشائعة فى البحر المتوسط حتى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)(٢).

كذلك انتعشت مصر زمن الطولونيين والأخشيديين، فى القرنين الثالث والرابع الهجرى (التاسع والعاشر الميلادى)، وتدفق الذهب إلى مصر من النوبة. ولم يقم رخاء مصر على الزراعة والذهب من النوبة فقط، وإنما على انتعاش طريقى التجارة الدولية الهامة المارة بها، وهما طريق البحر المتوسط والبحر الأحمر وفضلا عن ذلك كانت مصر بلداً صناعياً هاماً أنتجت الأقمشة الفاخرة ذات الخيوط الفضية والذهبية، كما انتجت الأسلحة الحربية والتحف الدقيقة المطعمة بالذهب والفضة والجواهر الثمينة.

كذلك شاركت الشام مصر فى رخائها، كما تمتع الأندلس بازدهار زراعى وتجارى وصناعى كبير(٣).

وأصبح للعالم الاسلامى منذ النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى وأواخر التاسع الميلادى ثلاثة مراكز إسلامية بحرية فى حوض البحر المتوسط: الأول فى مصر والشام، والثانى فى شمال إفريقية، والثالث فى

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٨.

الأندلس . وأصبح الاسلام منذ ذلك الحين سيد البحر المتوسط ومالكاً زمام طرق التجارة الدولية فيه بعكس ماكان عليه الحال حين قامت الدولة العباسية فى القرن الثانى الهجرى . وحصر الاسلام البيزنطيين والشعوب المسيحية الغربية فى البحار الضيقة ، وكانت طرسوس ، وجزيرة قبرص المحايدة ، تحميان شواطىء سورية ، وكانت كريت تحمى مصر ، كما تحمى صقلية شمال إفريقية، وجزر البليار الأندلس(١) .

وكان من آثار سيادة الأسطول الإسلامى على البحر المتوسط إنعاش التجارة الدولية التى أفاضت خيراً كثيراً على تلك البلاد من تجارة البحر ، فضلا عن ذهب بلاد النوبة والسودان وتبع ذلك تغيير آخر فى بلاد العالم الاسلامى وهو تغيير العملة إذ انتشر الدينار الذهبي شرقاً وغرباً . وصارت بلاد العالم الاسلامى من الأندلس حتى جزر الهند الشرقية مرتبطة تجارياً داخل وحدة إقتصادية واحدة فحوالى عام ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) حين قامت دولة الأغالبة فى أفريقية كان الدينار الذهبي لايستخدم إلا فى مصر وسورية وشمال أفريقية وبعض أجزاء إيطاليا ، ولكنه أصبح فى منتصف القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى نقداً دولياً دون منازع ، كما استخدم فى سائر بلاد العالم الاسلامى، ففى أوائل القرن الرابع الهجرى (أوائل العاشر الميلادى) سك عبدالرحمن الناصر (الثالث) دينارا أندلسياً على قاعدة الذهب لا الفضة التى كانت قاعدة للنقد منذ أواخر أيام القوط الغربيين وأوائل حكم المسلمين . كذلك انتشر الدينار الذهبي فى شرق العالم الاسلامى ففى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وأوائل الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) اختفى الدرهم الفضى من العراق وإيران ومن المحيط الهندى بين جزيرة مدغشقر وساحل ملبار ولو أن استخدام الفضة ظل باقياً فى التداول المحلى وفى التعامل التجارى مع روسيا وغرب أوربا التى كانت تتبع قاعدة الفضة(٢) .

ويؤيد هذا القول أن أكثر حسابات الخلافة العباسية ومعاملاتها فى المدة الواقعة بين أواخر القرن الثالث الهجرى والقرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادى

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٠ – ٢٦٩ .

(٢٩٥ — ٣٣٤ هـ / ٩٠٨ — ٩٤٥ م) كانت تجرى بالدنانير وليس بالدراهم(١).

النقود الائتمانية :

عرف ألإسلام النقود التى تعرف فى الاقتصاد الحديث باسم النقود الائتمانية والنقود الائتمانية هى كل ما تعرفه النظم النقدية الحديثة اليوم من أنواع النقود إذ أن النقود السلعية اختفت عقب قيام الحرب العالمية الأولى واصبحت النقود الائتمانية تضطلع وحدها الآن بعبء التداول النقدى. وتتميز النقود الائتمانية عن النقودى السلعية المصنوعة من الذهب والفضة بأن قيمتها النقدية تتجاوز بكثير ما قد يكون للمادة التى صنعت منها من قيمة كسلعة ،أى أن شرط النقود الائتمانية هو انقطاع الصلة بين قيمتها الإسمية كنقد وقيمتها التجارية كسلعة. وليس هناك اعتبار لطبيعة المادة التى تصنع منها هذه النقود ، فقد تكون النقود الائتمانية نقوداً معدنية ، وقد تكون نقوداً ورقية ، وقد تكون مجرد قيد كتابى على دفاتر مصرف تجارى(٢).

وقد جاء التعامل بالنقود الائتمانية مصحوباً بوعد من جانب مصدرها سواء كانت الدولة أو المصارف ، بدفع قيمتها بوحدات نقد سلعية لدى الطلب. ومن هنا جاء اسمها ،فالائتمان عبارة عن الوعد بدفع مبلغ من النقود ، فليست هذه النقود الائتمانية سوى ديون لصالح حاملها فى ذمة الدولة أو البنوك ، وتعتمد على ثقة حاملها فى قابليتها للصرف بوحدات نقد سلعية حينما كانت قابلة للصرف ، أو فى مجرد قبول الأفراد لها فى التعامل عندما توقف ما كان لها من تلك القابلية للصرف . ولا شك أن أصل التعامل بالنقود الائتمانية يرجع إلى رغبة المتعاملين فى التحرر من مخاطر التعامل بالمسكوكات والتخلص من مضايقات استعمال النقود المعدنية فى تسوية المدفوعات(٣).

---

(١) الدورى : تاريخ العراق ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩، وما ذكره من مراجع.

(٢) زكى شافعى : مقدمة فى النقود، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

وقد تطورت النقود والأساليب المصرفية الدولية فى العصر الإسلامى . وكان هذا دليلا على الوحدة الاقتصادية للدولة الإسلامية . أما كبار رجال هذه الحركة المصرفية فكانوا من أهل فارس أو من أهل البصرة .

وكانت أهم أداة للمعاملات المستندة إلى الائتمان هى السفتجة . وكانت السفتجة فى استعمالها وبناها مثل الكمبيالة الآن(١) .

وشاع استعمال السفاتج فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى لأهميتها فى التحويل حتى صارت عاملا مهما فى الحياة الاقتصادية(٢) .

ونعرف أن محمد بن طغج الأخشيد أرسل إلى نائبه ببغداد سفاتج بثلاثين ألف دينار ليسلمها للوزير ابن مقلة(٣) . ولم يقتصر استعمال السفاتج على الولاة بل شاع استعمالها بين أفراد الشعب(٤) .

وكان أهم فائدة للسفتجة هى استعمالها من قبل التجار لتصفية حساباتهم بين الأقطار المختلفة بكتابة السفاتج على وكلائهم ، ولتسوية الديون فى المعاملات التجارية فى نفس القطر .

وكانت السفاتج تسحب عادة على التجار والباعة . وكان لكل سفتجة موعد لاستحقاقها وكان يمكن لصاحب السفتجة أخذ النقود دفعة واحدة أو على أقساط(٥) .

واستعملت السفتجة أيضاً كاستعمال الشيك السياحى الآن Travellers Cheques(٦) وعلى أية حال فإن السفاتج كانت وسيلة لتجنب

---

(١) عبد الحكيم الرفاعى : الاقتصاد السياسى ، ج ١ ، ص ٥٦١ .

(٢) أنظر . أرشيبالد لويس : القوى البحرية ، ص ٢٦٣ ، الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص١٧٣ ـ ١٧٤ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٢ ، الدورى : نفس المرجع ، ص ١٧٤ .

(٤) الدورى : نفس المرجع ، ص ١٧٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٧٤ ـ ١٧٦ ، وما ذكره من مراجع .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٧٦ وما ذكره من مراجع .

أخطار المواصلات كما أنها كانت تجرى باتفاق فردى . وتوجد أشارة للسفاتج منذ عهد الخليفة أبى جعفر المنصور(١) .

ولكى نتصور مدى دولية هذا التصرف المالى نذكر أن رجال المال من سكان البصره وأهل فارس ، ظهروا فى كل مركز من مراكز التجارة ، فهم فى جدة فى الحجاز ، وهم فى سجلماسة ببلاد المغرب ، وهم فى طرابلس الغرب وبيروت ومصر(٢) .

أما الوسيله الثانية من وسائل الائتمان فهو الصك ، وهو أمر خطى بدفع مقدار من النقود إلى الشخص المسمى فيه . والصك كلمة فارسية معربة والأصل (جك) ولا يزال يعرف للآن فى عصرنا باسم Cheque(٣) .

وتوجد أشارات قليلة إلى استعمال الصك فى فجر الإسلام ، فكانت الأرزاق والرواتب تدفع أحياناً بصكوك . ويقول اليعقوبى أن عمر بن الخطاب كان أول من « صك وختم أسفل الصكاك »(٤) . وكثرت الإشارة إلى استعمال الصك فى القرن الرابع الهجرى فكان يستعمل فى الدوائر الحكومية لدفع رواتب الجيش بصورة خاصة ثم اتسع استعمال الصك وتعدى دوائر الحكومة إلى الشعب . وكان الصك يطلق أحياناً على « سند الدين » وفى هذه الحالة كان يلزم تصديقه من قبل شهود(٥) .

ومن طريف ما ذكرة الرحالة الفارسى ناصر خسرو ، عن البيع والشراء فى أسواق البصرة فى رحلته فى منتصف القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فقال أن هذه المدينة كانت تقوم فى أنحائها ثلاثة أسواق فى اليوم الواحد ، وأن رواد تلك الأسواق كانوا يودعون أموالهم عند أصحاب المصارف المالية

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٤

(٢) أرشيبالد لويس : نفس المرجع ، ص ٢٦٣ .

(٣) الدورى : نفس المرجع ص ١٧٦ ــ ١٧٧ وما ذكره من مراجع

(٤) تاريخ اليعقوبى ، ج ١ ، ص١٢٢ ــ ١٢٣ (طبعة النجف بالعراق) وكذلك الدورى المرجع السابق، ص ١٧٦ ــ ١٧٧

(٥) الدورى : المرجع السابق ، ص١٧٦ ــ ١٧٩ ، وما ذكره من مراجع

ويأخذون منهم إقراراً باستلامها ، ثم يدفعون قيمة كل ما يشترونه « صكا » أو « إذناً » أو « شيكا » يقبض البائع قيمته من صاحب المصرف . وهكذا لا يستعمل التجار النقود فى معاملاتهم ، وإنما يستخدمون الشيكات أو « إذنات الصرف » يدفع قيمتها أصحاب المصارف(١) .

وكانت الدولة الإسلامية الوحيدة التى ظهرت فيها النقود الورقية هى دولة ايلخانات المغول فى فارس التى قامت فى إيران بعد أن قضى المغول على الخلافة العباسية فى بغداد .

وكان سبب إصدار العملة الورقية أن ايلخان المغول ليخاتو كان مسرفاً كريماً إلى حد بعيد ، وأصبح بيت المال بسبب إسرافه خالياً من الصفراء والبيضاء ، أى من الذهب والفضة وظهرت الحاجة الملحة إلى المال ورأى وزيره صدر جهان (أى صدر العالم) أن يصدر عملة مالية ورقية اسمها « الجاو » وهى العملة التى كان يتعامل بها فى بلاد الخطا (الصين) بدلا من الدراهم(٢) .

ونحن نعرف أن بلاد الصين عرفت أوراق النقد الحكومية نحو أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) قبل أن تعرف فى أى بلد آخر فى العالم(٣) .

ووصف المؤرخ الفارسى عبدالله بن فضل الله ، المعروف بوصاف الحضرة فى كتابه « تاريخ وصاف » هذه العملة الورقية ونقلها عنه براون Browne فى كتابه تاريخ الأدب الفارسى (الجزء الثالث) A Literary History of Persia فقال : أن هذه العملة مستطيلة الشكل قائمة الزوايا كتب عليها كلمات صينية يعلوها باللغة العربية عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكتبت

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، ص ٦٢ — ٦٣ القاهرة ١٩٤٥ م .

(٢) رشيد الدين فضل الله الهمذانى . جامع التواريخ . تاريخ المغول — المجلد الثانى — الجزء الثانى ١٨١ — ١٨٢ ، ترجمة محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطى الصياد .

(٣) زكى شافعى : المرجع السابق ص ٤١ .

قيمة الورقة فى وسط دائرة ، وكانت هذه القيمة تختلف بين نصف درهم وعشرة دنانير ، وإذا تمزقت هذه الورقة المالية أو تأكلت فان صاحبها يستطيع أن يردها إلى دار الضرب وأن يأخذ بدلا منها ورقة مالية جديدة تقل قيمتها عن قيمة الورقة المستبدلة بعشرة فى المائة . وعلى كل ورقة كتبت هذه العبارة « أصدر ملك العالم هذه الورقة المالية المباركة فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة »، وإذا حاول أحد أن يغير أو يمحو قيمتها قتل هو وزوجاته وأولاده وصودرت أملاكه وتحولت إلى بيت المال .

ويذكر المؤرخ الفارسى رشيد الدين فضل الله الهمذانى فى كتابه جامع التواريخ أن عمله الجاو (تشاو) صدرت فى مدينة تبريز فى يوم السبت ١٩ من شوال سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م . وصدرت الأوامر بقتل كل من لا يتعامل بها فى الحال . ويذكر أن الناس تداولوا هذه العملة أسبوعاً واحداً خشية السيف لـكنهم لم يعطوا أحداً شيئاً فى مقابل هذا الجاو واضطر معظم سكان تبريز إلى الرحيل عن بلدهم ، وأخفوا الأقمشة والأغذية من الأسواق بحيث لم يعد يوجد شيء قط وهـكذا خلت مدينة تبريز من الناس بعد أن كانت تموج بالسـكان(١) .

ونلاحظ أن المؤرخ رشيد الدين يعنون فصلا فى كتابه بهذا العنوان :

« حكاية وضع الجاو المشئوم ، والاضطرابات التى ظهرت فى البـلاد بسببه »(٢) ، والواقع أن ظهور « الجاو » كان كظهور الأوراق النقدية فى العصر الحديث ، أى فى أوقات الأزمات والحروب وحين يتعـذر الأذعان للقواعد الذهبية أو الفضية فينتقل النظام النقدى إلى قاعدة الأوراق(٣) .

وما أشبه كلام رشيد الدين عن الجاو بكلام المقريزى عن إنتشار الفلوس أو العملة النحاسية زمن المماليك البرجية ، والحق أن أصدار « الجاو » كان

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص ١٨٢ — ١٨٣

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨١

(٣) زكى شافعى : المرجع السابق ، ص ١٢٥ — ١٢٦

جديداً فى دولة الايلخان وفى الدولة الإسلامية عموماً وظهر الجاو فاقداً ثقة حاملة ، والثقة شرط أساس فى النقود الائتمانية . ولذا نرى كيخاتو يضطر إلى إلغاء التعامل بهذه العملة الورقية بعد أن إنتشر التذمر والاضطراب فى العاصمة تبريز وفى كثير من المدن الإيرانية وبعد أن ثار الناس فى يوم جمعة فى مسجد تبريز ثورة عنيفة ، وبعد أن قتل جمع من الناس بسبب تلك العمله ، وبعد أن سببت تلك العملة إرتباك الحالة المالية فى البلاد بدلا من معالجتها(١) .

وبعد فهذه لمحات سريعة عن النقود فى العصر الإسلامي ولاشك أن لدراسة النقود الإسلامية جوانب كثيرة متنوعة كما مر بنا يمكن أن تكون مجالا لابحاث كثيرة علمية ومفيدة .

سيده إسماعيل كاشف

(١) رشيد الدين : المرجع السابق ، ص ١٨٢ ــ ١٨٤

المرحلة الإفريقية من تاريخ المرابطين

هذا المقال يتناول قطاعاً صغيراً من تاريخ طويل لإقليم فسيح ، وهو غرب إفريقيا .

كان هذا الإقليم فى العصور الوسطى جزءاً من عالم إسلامي واسع ، تربطه أوثق الصلات بدولة المماليك فى مصر ودولة الشرفاء فى مراكش . وتبادل هذا الإقليم مع هاتين الدولتين عدداً كبيراً من الطلاب والأساتذة والمؤلفات ، وشهد قيام مدن كانت حواضر للثقافة الإسلامية العالية ، كما شهد دولا إسلامية تنفعل بالحضارة الإسلامية وبالجهاد. ولم تنفصم عرى هذه الصلات الوثيقة إلا بسبب الغزو الاستعمارى ، وتقسيم القارة الإفريقية فى القرن التاسع عشر .

وأدت الجماعات الإسلامية فى غرب إفريقيا دوراً رائعاً فى التاريخ المعاصر ، فكانت مثلا طيباً للصمود الإفريقى أمام جماعات المستعمرين، وكانت نظم الإسلام وحضارته مما ألهم هذه الجماعات الصمود والمقاومة بفضل دينهم . وقنعت الجماعات الإسلامية أولاً بالانطواء والعزلة ،مع الاستعداد للنهوض ، ولذا اعترف كل من المؤرخان ترمنجيهام وميك بأن الحضارة الإسلامية كانت الخطر الخفى الذى واجهه الاستعمار .

ثم لاحت نذر التحرر فى القارة ،وبدأت قبضة الاستعمار تتهاوى، فكانت الجماعات الإسلامية هى التى غذت حركات التحرير، بزعامات وقيادات لم يمسسها الاستعمار بمغرياته، فقامت هذه الجماعات من وراء الأحزاب الوطنية تمدها بالتأييد والمساندة ، وقدمت للحركة الإفريقية قيادات لا تزال ماثلة لنا حتى اليوم ومنها سيكوتورى والمرحومان وأبو بكر تيفاوا باليو أحمد وبللو .

وهذه الجماعات الإسلامية التى يقدر عددها اليوم بأكثر من ثلاثين مليون نسمة سوف تقوم بدور عظيم فى مستقبل هذه القارة ، وفى تحقيق الوحدة الإفريقية ،

وتأكيد أواصر الصداقة التقليدية ، وهو واضح من الصلات النامية بين نيجيريا ومالى والسنغال وغينيا ، وغيرها من البلاد .

ولعل هذا كله يدعونا إلى أن نتدبر الماضى ، ونتعمق وراء هذا الميراث ، باحثين عن جذوره الأولى ، وكيف ضربت فى الأرض ، وأنبتت هذه الثمرات المباركات .

والجنود المجهولون فى هذا الميدان هم جماعات الطوارق أو الملثمين ، أو صنهاجة الرمال أو صنهاجة الجيل الثانى ، كما يقول ابن خلدون ، . وكان دور هذا الجماعات دوراً شبيهاً بدور العرب فى النوبة والسودان ، أو دور الأعفار والدناقل والجالا فى شرق إفريقية ، إذ قاموا بدور الوسيط بين المغرب الأقصى وغرب إفريقية ، وهم الذين حملوا الإسلام إلى هذه الجهات ، وكانوا العامل التوجيهى لتاريخه وثقافته .

كانت هذه القبائل تنتشر فى وطن فسيح يمتد من غدامس فى طرابلس إلى المحيط الأطلسى ، كما يمتد فى المناطق الصحراوية التى تلى جبال درن وامتد هذا الوطن كذلك من جبال أطلس الكبرى حتى مصب نهر السنغال ، بل امتد أحياناً إلى مقربة من منحنى نهر النيجر ، ومن هذا النهر صوب الشرق ، إلى مدينة تادمكة فى قلب الصحراء الكبرى . وأحصى ابن خلدون من هذه القبائل نحو السبعين ، لكن يكفى أن نشير إلى الأحلاف والمجموعات القبلية الكبرى ، وإلى الوطن الذى تنزله ، لأن وجودها فى هـذا الموقع أو ذاك حدد لها دوراً واضحاً فى تاريخ هذه المنطقة الشاسعة .

وأول هذه الجماعات قبائل لمطة وجزولة التى نزلت قرب المغرب الأقصى ، من جبال درن حتى وادى نول على المحيط ، ثم قبائل لمتونة المنتشرة جنوباً حتى رأس بوجادور ، أما قبيلة جدالة فتمتد ديارها جنوب قبيلة لمتونة حتى مصب السنغال ، على حين تنتشر بطون قبيلة مسوفة فى المناطق القاحلة الممتدة صوب الغرب .

وكان يقابل هؤلاء وأولئك جماعات من الزنوج اتصلت بهم ، وتعاملت معهم ، وتعرضت لإغاراتهم أحياناً ، أولدعوتهم المسالمة أحياناً أخرى ، ودخلت معهم فى معاملات ومبادلات جماعات التيوكولور ، والولوف ، والسرير ، وكلها فى جنوب السنغال مباشرة . وعلى الضفة اليسرى من النيجر نزلت جماعات الفلاحين

من السنغاى ، وبين وأولئك وهؤلاء نزلت الشعوب المتكلمة بلغه الماندى ، وتسمى أحياناً بجماعات الماندنجو .

وكانت اتصالات الطوارق بهذه الأوطان وهذه الشعوب ظاهرة واضحة منذ القرن الأول الميلادى تقريبا ، ولكن هذه الاتصالات لم تكن تتجاوز أبداً أنواع الانتقالات الموسمية ، ثم الاحتكاك ببعض المراكز الأمامية التى أنشأتها الشعوب الزنجية ، أو إغارات خاطفة على أوطان هؤلاء الزنوج ، لاقتناص العبيد وحملهم إلى أسواق المغرب أو البحر الأبيض المتوسط .

وظل الحال على ذلك حتى كان القرن الثالث الهجرى ، ثم شهد المغرب تطوراً جديداً ، حين رسخت به قواعد الإسلام ، ووضحت معالم المدرسة المالكية فى القيروان ، فى ظل الأغالبة فى تونس . وكان الأغالبة فى تونس يجاهدون فى صقلية والبحر الأبيض المتوسط ، وكانت مدينة فاس قد أضحت فى ظل الادارسة قاعدة هامة فى نشر الثقافة العربية الإسلامية .. وغدا الجهاد فرضاً على هذه الإمارات الناشئة، تكتسب منه تراثها ووجودها ، فاذا كان جهاد الأغالبة فى حوض البحر الأبيض المتوسط، فقد كان جهاد الأدارسة صوب جنوب المغرب الأقصى إلى ديار الملثمين . وعكف الأدارسة على الدعوة الإسلامية بين ديار الملثمين ، واستطاعوا فى القرن الثالث الهجرى أن يمدوا نفوذهم إلى مدينة أغمات والسوس الأقصى وبلاد نفيس وصنهاجة الرمال، وتأكد إسلام الطوارق فى القرن الثالث الهجرى ، ودخلوا فى الاتحاد الذى أقامه الأدارسة بزعامتهم .

وأحدث تمكن الإسلام منهم على هذا النحو تغييراً جذرياً فى حياتهم ، بل فى تاريخ المنطقة كلها، فلم تعد القبائل تنصرف إلى الجنوب ، كما كانت تفعل دائماً بل تحركت بدافع للجهاد وتأكيداً لإسلامهم الجديد. وكان هذا أشبه بتحول الاعفار والدناقل إلى الإسلام ، وانصرافهم إلى الإغارات المتلاحقة على حافة الهضبة الحبشية . وقد أدى إسلام هذه القبائل إلى قيام حلف قوي جمع قبائل الطوارق كلها بزعامة لمتونة ، وكان هذا التوحيد نذيراً بموجة من التوسع صوب الجنوب، والاصطدام بمملكة غانة، كما اصطدمت القبائل العربية المندفعة من مصر بممالك النوبة المسيحية .

ومملكة غانة هذه أسستها قبائل الماندى أو الماندنجو، وتبادل الزعامة وإياها أحياناً قبائل السوننكه . واسم غانة هو الذى اتخذته الجمهورية الإفريقية الحديثة اسماً لها ، إحياء لهذه الذكرى القديمة وهو، اسم كان يطلق على الطبقة الحاكمة ، ثم أصبح علماً على العاصمة التى الماندنجو، أسسوها، وحدد المؤرخون ظهور هذه المملكة الإفريقية الخالصة بعام ٣٠٠ ميلادية ، بسبب تأثيرات وصلت من الخارج لم يحدد كنهها . توسعت هذه الدولة فى السنوات الممتدة من القرن الرابع الميلادى إلى القرن الثامن الميلادى ، من منحنى النيجر حتى أطراف المغرب الأقصى . ثم استولى السوننكه على الزعامة فيها سنة ٧٧٠ م ، وتم لهذه الدولة إخضاع منطقة فوتا حيث قبائل الولوف والسريرو والتكرور، وبلغت هذه الدولة أوج اتساعها فى القرن الحادى عشر .

ثم بدأ الطوارق منذ إسلامهم يشنون حرباً لا تنقطع على مملكة غانة ، ووصل لاشتباك إلى ذروته مرتين ، عام ٣٠٧ هـ ، مرة أخرى وعام ٤٠٧هـ ، وخل الطوارق واحة أودغشت الغانية أكثر من مرة ، وفرضوا الجزية على المغلوب ، وإذا كانوا لم يستطيعوا أن يستأصلوا غانة نهائياً من الوجود الإفريقى فإن حركاتهم أدت إلى وصول الإسلام إلى ديارهم خلال القرن الحادى عشر .

وزار البكرى الرحاله هذه البلاد عام ١٠٦٧ ميلادية ، وذكر أن بالعاصمة اثنى عشر مسجداً وعدداً من الفقهاء وأهل العلم ثم ستأنف الطوارق النضال ضد غانة مرة أخرى عام ٤٢٩ هـ، وفتحوا ثغرات فى المجتمع الغانى ، ونفذ من خلالها التيار الإسلامى منطلقاً نحو الجنوب حتى حوض السنغال الذى قدر له أن ينفعل انفعالا إسلامياً ينبع من ترابه وأرضه، شانه فى ذلك شأن كل قطر تستظله الراية الإسلامية ، وتستهويه الحضارة الإسلامية .

وهنا تنتقل هذا إلى القرن الخامس الهجرى الذى شهد خروج قبائل الطوارق والسنغال على مسرح الأحداث فى الغرب الإسلامى كله . وهكذا هو القرن الذى شهد تطوراً على الجناح الشرقى لدار الإسلام ، إذا اندفع السلاجقة من وراء النهر إلى بغداد لتخليص الخلافة السنية من البويهيين المتشيعة ، ثم اندفعوا إلى قلب آسيا الصغرى وأحرزوا للاسلام نصره الكبير .

وجرت أحداث مشابهة على الجناح الغربى لدار الإسلام حيث وجد زعماء قبيلة جدالة من الطوارق أنفسهم ، أمام تجربتين عظيمتين ، أو محاولتين كبيرتيين ، للقضاء على غانة غير أنهم لم يستطيعوا ذلك تماماً ، بسبب سرعة تفرق الأحلاف التى تلم شعثهم ، وتوحد صفوفهم، ورأوا أن الوحدة لن يتم إلا بدعوة دينية تنبثق من صفوفهم .

ولذا استقدم زعيمهم جدالة فقيهاً مالكياً من صناع التاريخ ، يدعى عبد الله ابن ياسين وأخذ هذا الرجل أخذ يبث الدعوة الاسلامية على مذهب المالكية ، ولكنه لم يلبث أن وجد سياسة الوعظ لا تجدى ، فآوى إلى رباط فى جزيرة نائية فى مصب السنغال ، وعاش عيشة الزهد والتقشف . وتسارعت إليه الصفوة ، ثم زاد أتباعه من المرابطين ، وعكفوا على الرياضة الروحية والبدنية ، وتعليم الإسلام الصحيح والقول بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا بلسانهم أضعف الإيمان بل بأيديهم وأسلحتهم علما منهم بأن هذا هو النهج السوى لإصلاح حال الطوارق وجمع شملهم .

وشن عبدالله بن ياسين حرباً على غانة فى الجنوب واشتبك مع بقيتها فى قتال عنيف انتهى بدخوله مدينة أودغشت حالفه التكرور فى هذا الجهاد بعد أن حسن إسلامهم .

ثم اندفعت موجة من جماعات المرابطين إلى المغرب الأقصى أشبه باندفاعة سلاجقة إلى بغداد ، وذلك لتخليص البلاد من عبث الزناتية وبغيهم وللأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بينهم .

ثم عبر المرابطون جميعا البحر إلى الأندلس ، مثلما اندفع السلاجقة إلى آسيا الصغرى ، وأحرز زعيمهم يوسف بن تاشفين النصر المعروف فى معركة الزلاقة ، عام ٤٧٩هـ .

ولم يغفل المرابطون عن الجنوب كما لم يغفل السلاجقة عن ما وراء النهر فكان الأمير الشرعى أبو بكر بن عمر يقود المجاهدين فى الجنوب ، وقد واستطاع بعد جهاد استمر أكثر من خمس عشر سنة أن يستولى على البقية الباقية من غانة وأن يضمها إلى دولة المرابطين الشاسعة ومات فى ميدان المعركة ودفن هناك وانتهت غانة من الوجود التاريخى فى غرب إفريقيا .

وقطع المرابطون بهذا كله شوطاً بعيداً فى إكساب غرب إفريقيا صبغته الإسلامية . إذ انفسح المجال أمام الطوارق لمزيد من الهجرات والاندفاعات، تحت علم المرابطين ،فانتشروا صوب الشرق على حافة المنطقة شبه الاستوائية، مارين بمنحنى النيجر شمال نيجيريا الحالية،عبر مدن تشاد ثم بلاد الكانم والبرنو ودارفور .

وتركت هذا الحركات أثراً عظيماً فى انتشار الإسلام بين أهل البلاد الأصليين، فضلا عن جميع الشعوب المكونه لغرب إفريقيا .وهكذا أسلم فى عصر سيادة المرابطين السنغى والماندى والتكرور والسرير والحوصا وغيرهم .

وأسلم ملوك غانة وأخلصوا فى إسلامهم ، وعملوا بدورهم على متابعة الجهاد ونشر الإسلام بوسائلهم ، وتحولت غالبية الغانيين إلى الإسلام . وقام دعاة المرابطين بنشر الإسلام فى المنطقة الواقعة بين السنغال والنيجر، بل نشروا الاسلام على ضفاف السنغال ،وأسلم شعب التكرور والماندنجو، أما الشعوب التى لم تذعن فإنها فرت ما إلى الجنوب أو إلى الغرب .

وأصبح شطر كبير من غرب إفريقيا جزءاً من إمبراطورية المرابطين الذين جمعوا بين الأندلس والمغرب وغرب إفريقية فى وحدة سياسية واحدة ، وكان لأميرهم ، واسمه أمير المسلمين نائب فى الأندلس ، وأكثر من نائب فى المغرب ، ويحيل إلى أنه كان لهم نائب فى مدينة أودغشت ، وكان أولئك النواب يعيشون فى مقاطعاتهم كأنهم الملوك .

وفى ركاب المرابطين دخلت الثقافة الإسلامية متدفقة إلى غرب أفريقيا من مدارس المغرب والأندلس . وفى عهدهم تم أعظم مجهود فى الميدان الثقافى فى تاريخ غرب إفريقيا ، حينما أسست مدينة تنبكت التى أضحت حاضرة الثقافة العربية هناك ، وأدت نفس الدور الذى أدته القيروان فى تونس وفاس فى المغرب الأقصى .

وتأسست مدينة تنبكت فى آخر القرن الخامس الهجرى ،فيذكر السعدى

مؤلف تاريخ السودان أن الطوارق هم الذين اختطوا هذه المدينة. إذ كانو يصيفون على ضفاف النيجير عند موقع المدينة ثم يرحلون فى الخريف إلى أوطانهم، ثم استقر بهم المقام على مقربة فى عهد دولة المرابطين، حيث نشأت المدينة نهائياً، وأضحت سوقاً هامة يؤمها التجار بطريق النهر وتصل إليها، القوافل عن طريق مراكش. وسرعان ما أقتفى العلماء أثر التجار، فشخصوا إليها من المغرب الأقصى والأندلس، ومن مصر وغدامس وتوات. وبنى بها المسجد الجامع والمساكن والأسواق يقول السعدى فى وصفهما (ص ٢١) «ما دنستها عبادة الأوثان، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى العلماء والعابدين، ومألف الأولياء والصالحين».

وامتد الإسلام إلى مدينة أخرى، كان لها فى تاريخ الإسلام والثقافة العربية مثل ما لتنبكت، وهى مدينة جنى التى أسلم أهلها فى القرن السادس، وأمها العلماء والفقهاء. ويذكر السعدى أنه كان بهذه المدينة أكثر من أربعة آلاف من المشتغلين بالعلم.

وقبل منتصف القرن الثانى عشر، وفى ١١٤٥ م على وجه التحديد، شهد المغرب تطوراً آخر قدر له أن يزيد حركة المرابطين تأصلا ورسوخاً، قامت دولة الموحدين على أنقاض نفوذ المرابطين فى المغرب والأندلس، فكان هذا أشبه بقيام دولة المماليك المندفعة صوب النوبة والسودان، ذلك أن ازداد ضغط الموحدين على قبائل الطوارق، وتدفقت الهجرات إلى المنطقة على نطاق أوسع فهاجرت القبائل التى تكونت منها شعوب الحوصا إلى واحة أير، ثم اندفعت إلى الجنوب مكونة إمارات الحوصا فى شمال نيجيريا، كما اندفعت قبائل أخرى صوب بلاد الكانم والبرنو، أو صوب دارفور.

وأدى هذا إلى مزيد من الاختلاط إذ كانت القبائل المهاجرة حتى ذلك الوقت تحيا حياة مستقلة، وتتخذ الطابع الحربى محافظة على كيانها وكان اعتمادها على الخيل يجعل نطاق أعمالها العسكرية واسعاً شاسعاً، حتى إذا كان عصر الموحدين بدأ الاختلاط التدريجى عن طريق التزاوج، ونشأت طبقة جديدة من المولدين، وأحبت أن تستقل بشأنها بعد إسلامها، فأسست الإمبراطوريات، بعد أن تعلمت من سادة الأمس فنونهم العسكرية ونظمهم وتقاليدهم الاجتماعية والدينية.

كانت الظاهرة الجديدة نشأة دويلات إسلامية جديدة على أكتاف جماعات المولدين ، ولم يكن معنى هذا استبعاد نفوذ الطوارق نهائياً ، لأنهم ظلوا العامل المؤثر الفعال فى تاريخ البلاد ، فكانوا مستشارى الملوك ووزراءهم وقوادهم ، وأدت الدويلات التى ظهرت فى هذه المنطقة دوراً واضحاً فى تاريخ البلاد ، فكان ملوكها يعنون أكثر ما يعنون بالخروج إلى مكة للحج ، فى مواكب وفق رسوم معينة ، كما حرصت كل دويلة منها على تأكيد روح الأخوة الإسلامية ، عن طريق الاتصال بمصر المملوكية ، أو بمراكش فى عهد الشرفاء . وعملت كل هذه الدويلات على تشجيع اللغة العربية ، وحماية الثقافة ، وإيفاد الطلاب واستقدام الأساتذة ، كما التزمت سياسة الجهاد توكيد للروح الإسلامية التى غلبت عليهم ، ولذا نشأت فى كنفهم أنماط من الحضارة الإسلامية متأثرة بعاداتهم ورسومهم وتقاليدهم القديمة .

ومن هذه الإمبراطوريات التى نهضت وقتذاك إمبراطورية مالى وهى التى أسسها شعب الماندنجو الذى أسلم على يد المرابطين وبلغت هذه الإمبراطورية إلى إلى ذروة التوسع فى عهد منسى موسى (١٣٠٧ — ١٣٣٢) ، إذ نشر نفوذه شرقاً حتى بحيرة شاد ، ودخلت منطقة السافانا كلها فى ملكه ، وكانت له مراسلات وصلات مع مصر المملوكية . وزار ابن بطوطة هذه البلاد فى القرن الرابع عشر ، ورأى فيها حياة إسلامية أصيلة ، وعلماء من كل بلد إسلامى ، كما زارها ليو الإفريقى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، فوجد حياة إسلامية فى غاية الازدهار ، ومن هذه الإمبراطوريات كذلك إمبراطورية سنغهاى وصلت إلى قمة التوسع فى عهد ملكها إسكى محمد عام ١٥١٣ ، ونهضت بنفس الدور الذى لعبه الماليون من قبل .

وكان من أثر جهود الطوارق عبر هذا التاريخ الطويل انطبعت أن الثقافة العربية فى المنطقة بطابع مغربى واضح ، إذ كانت المالكية مذهب الناس ، والمدارس مغربية بحته ، والكتب المتداولة هى كتب عياض وسحنون وموطأ مالك ، والقلم هو القلم المغربى . أى أن الثقافة كانت فى ثقافة مغربية على أرض إفريقية .

حسن أحمد محمود

دولة سلاطين المماليك الأتراك فى الهند

وأوجه الشبه بينها وبين دولة المماليك الأولى فى مصر

على الرغم من أن الولاة المسلمين بالسند الهندية زمن الأمويين والعباسيين لم يحاولوا توسيع أراضي ولايتهم ، حتى أواخر القرن العاشر الميلادى ، فإنهم عملوا على التوسع فيما بعد فى إقليم أفغانستان الممتد على طول التخوم الهندية الشمالية الغربية ، حيث قامت فى إقليم غزنة فى قلب جبال سليمان دولة تركية فتية ، وهى الدولة الغزنوية (٩٦٢ — ١١٨٦ م = ٣٥١ — ٥٨٢ هـ) .
وأول توسع قامت به الدولة الغزنوية فى الهند كان فى عهد ملكها ناصر الدين سبكتكين ، وهو الذى فتح مدينتى بست وقصدار سنة ٩٧٨م ، وهزم جيوش جيبال صاحب إقليم لاهور ، وشتت شملهم على حدود البنجاب ، ثم مالبث أن أسر جيبال ، ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد له بالجزية .

وجاء بعد سبكتكين ابنه محمود الغزنوى (٩٩٨ — ١٠٣٠ م) الذى غزا بلاد الهند اثنتى عشرة مرة (١٠٠١ — ١٠٢٤ م) ، مدفوعاً فى ذلك بعامل الجهاد الدينى ، والرغبة فى نشر الإسلام بين الهنود الوثنيين . واستطاع السلطان محمود الغزنوى أن يبسط نفوذه إلى ما وراء كشمير والبنجاب ، وأن يجعل من إقليم البنجاب ولاية إسلامية يحكمها ولاة مسلمون من قبل الغزنوية .

ويقول وولزلى هيج فى هذا الصدد : « نستطيع إلى حد ما أن نعد محمود الغزنوى سلطاناً هندياً خالصاً ، إذ فتح فى خريف حياته إقليم البنجاب ، ونشر الإسلام فى ربوع الهند ، وافتتح طريقاً سلكه كثيرون بعده . أما خلفاؤه ، فقنعوا بحكم إقليم البنجاب ، وكونوا أسرة هندية خالصة » (١) . بعد أن جردوا من أملاكهم فى فارس وافغانستان وبلاد ما وراء النهر .

---

(١) راجع Wolseley Haig: Camb. Hist. of India, vol. III p. 26.

وكيفما كان الأمر فإن حملات الغزنويين فى بلاد الهند ، واتخاذهم لاهور مقراً لهم ، هى التى مهدت السبيل للسلاطين الغوريين بعدهم ، ثم لخلفاء الغوريين بعد ذلك وخلفائهم من المماليك الأتراك . وأولئك المماليك لأتراك هم الذين أسسوا سلطنة دلهى نشروا نفوذ المسلمين فى كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية(١) .

قامت الدولة الغورية (١١٤٨ — ١٢١٥ م = ٥٤٣ — ٦١٣ هـ) على أنقاض الدولة الغزنوية أو السبكتكينية ، وتنسب هذه الدولة إلى مكان نشأتها ، وهو الغور أى جبال بين هراة وغزنة .

واستطاع الغوريون منذ سنة ١١٤٨ م أن يوسعوا مملكتهم حتى ملكوا بلاد الغور والأفغان والهند . فالدولة الغورية هى ثانى دولة إسلامية هندية بعد الدولة الغزنوية ، غير أن السلطان محمد بن سام الغورى ، وهو من عظماء ملوك الهند، لم يقم فى الهند دائماً ، بل كان يقيم فى مدينة غزنة عاصمة ملكه، وصار يحكم الهند عن طريق مملوكه قطب الدين أيبك، بعد أقطعه مدينة دلهى . وجلب السلطان محمد الغورى عدداً كبيراً من المماليك الأتراك، واعتنى بتربيتهم وإعدادهم لمهمة الغزو والجهاد . ويؤثر عنه أنه صار كلما ناقشه أحد عن ضرورة الحاجة إلى ابن يحافظ على ملك دلته، من بعده ، أجابه بأن لديه ألوفاً من الأبناء ، وهم مماليكه الأتراك(٢) . وتذكرنا هذه العبارة بعبارة الملك المنصور قلاوون أحد سلاطين الدولة المملوكية الأولى بمصر أكثر هذا السلطان من جلب المماليك الصغار السن واعتنى بتربيتهم وكان يقول فى هذا الصدد « كل الملوك عملوا شيئاً يذكرون به بعد أن ما بين مال وعقار ، وأنا عمرت أسواراً، وعملت حصوناً مانعة لى ولأولادى وللمسلمين ، وهم المماليك »(٣) .

واستطاع السلطان محمد الغورى بفضل مجهودات مماليكه وعلى رأسهم

---

(١) راجع Lane—Poole « Mohammadan Dynasties. p. 284

(٢) أنظر Ibid : Medieval India under Moham. Rule, p 65.

(٣) راجع المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

أيبك (١) ، أن يمتلك جميع البلاد الواقعة شمال جبال فندهيا حتى مصبات نهر الكنج . وارتفع بعض هؤلاء المماليك إلى مناصب الحكم والقيادة ومنهم ، تاج الدين يلدز فى غزنة ، وناصر الدين كوباشا فى السند ، وبختيار فى البنغال ، ثم قطب الدين أيبك نفسه فى دلهى وهو أقوى الجميع نفوذاً. وكان أيبك رجلا مسلماً متمسكاً بقواعد الإسلام ، ويظهر ذلك بوضوح فى معاداته لنظام الطبقات فى الهند ، ومعاملته للناس على اختلاف طبقاتهم على أساس المساواة التى ينص عليها الإسلام . ويروى الأستاذ لين بول أن لأيبك فى دلهى مسجداً عظيماً ذا منارة ارتفاعها ٢٥٠ قدماً ، وهى أطول منارة فى العالم ، ولا تزال قائمة إلى اليوم ، وتعرف بمنارة قطب نسبة لاسمه ، وهى محلاة بزخارف ونقوش تمتاز بالطابع العربى والهندى (١) . غير أن وولزلى هايج يرجح بناء هذه المنارة فى عهد مملوك أيبك وخليفته على عرش دلهى ، وهو السلطان التتمش ، الذى بناها فعلا فى سنة ١٢٣١ — ١٢٣٢ م ، تكريماً لولى الله الخواجه قطب الدين بختيار كاكى وهو الذى أقام فى غزنة والملتان بعضاً من الوقت ثم استقر أخيراً فى دلهى حتى وفاته فى ديسمبر سنة ١٢٣٥ م (٢) .

وفى ١٥ مارس سنة ١٢٠٦ م اغتيل السلطان محمد الغورى على ضفاف نهر السند ، بيد أحد غلاة الاسماعيلية ، وبموته اختفت غزنة والغور من التاريخ وظهرت العاصمة الإسلامية دلهى فى الهند .

وتوفى أيبك بعد وفاة سيده ببضع سنوات ، إذ انتهى حكمه على هندستان فى نوفمبر سنة ١٢١٠ م ، وذلك على أثر سقوطه عن ظهر جواده أثناء

---

(١) نقل أيبك فى حداثته من تركستان إلى نيسابور حيث بيع إلى والى تلك المدينة . وبعد وفاة سيده بيع ثانية ، واستقر أخيراً فى يد محمد الغورى . واستطاع أيبك أن يصل إلى أعلا المناصب ، وأن يكسب ثقة سيده بفضل كرمه وسخائه حتى إنه لقب باسم لأقبقاس أى المانح بالآلاف . وأيبك لفظ تركى معناه أمير قمر . راجع Wolseley Haig : Op Vol. III., p. 41.

(٢) أنظر Lane-Poole : Medieval India under Mohammadan Rule. p. 67—69.

لعبه الكرة أو البولو الفارسية. وسادت الفوضى بعد موت أيبك مدة من تولى الملك فيها ابن غير كفؤ يدعى أرام شاه ، وانتهى الأمر بأن خلعه أحد مماليك أبيه البارزين وهو شمس الدين التتمش ، واستأثر بعرش دلهى لنفسه(١) . ويعتبر التتمش المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك بالهند ، وفى عصر ذلك السلطان ظهور الخطر المغولى تحت زعامة جنكيزخان الذى هدد العالم الأسيوى بأجمعه . وكان أول نذير لاقتراب هذا الخطر فرار يلدز حاكم غزنة إلى داخل الهند من ضغط الجيوش الخوارزمية المنهزمة أمام الجيوش المغولية .

خرج ألتتمش من هذه المحنة أقوى مما كان ، إذ أحدقت القوات المغولية والخوارزمية بقوات منافسيه فى الشمال، أمثال يلدز وكوباشا ، وصار من السهل عليه بعد ذلك أن يستعيد جميع ممتلكات سلفه أيبك شمال جبال فندهيا(٢) .

وبلغ فوز ألتتمش أقصاه عندما اعترف به خليفة بغداد المستنصر بالله ، وبعث له بالعقد والخلع التقليدية فى ٨ فبراير سنة ١٢٢٩ م. فأصبح ألتتمش بذلك أول ملوك المسلمين الذين تسلموا مثل هذا التقليد فى الهند ، ومنذ ذلك التاريخ ضرب السلطان تألتمش نقوداً فضية نقش عليها اسم الخليفة العباسى

---

(١) نجد هذه الظاهرة فى طول تاريخ المماليك فى مصر ، حيث كان السلطان المملوكى يهتم بتولية ابنه من بعده، ويحصل على موافقة أمراء المماليك بذلك، فإذا توفى السلطان أقيم ابنه فى السلطنة فعلا، حسبما سبق الاتفاق عليه، ويظل الإبن سلطاناً مدة تطول أو تقصر، وهى على كل حال لا تزيد يوماً واحداً عن المدة التى يكون أمراء المماليك ، استغرقوها فى مؤامراتهم عمن تكون له السلطنة . فاذا تم ذلك خلعوا الابن، وتولى السلطنة المملوك الأصلح للبقاء ، لأنه لم يكن من المنتظر أن يقبل المماليك أن يكون ابن أحدهم سلطان عليهم ، وهو لم ينشأ نشأتهم ، انظر المقريزى: كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٥ ، حاشية الدكتور محمد مصطفى زيادة.

(٢) استطاع ألتتمش أن يأسر يلدز، ويقتله سنة ١٢١٨ م بعد أن طاف به شوارع دلهى . أما كوباشا فقضى على مقاومة السلطان جلال الدين خوارزمشاه وجنوده الخوارزمية سنة ١٢٢١ ، واستقر الخوارزمية فى إقليم السند، ثم رحلوا إلى فارس سنة ١٢٢٤ ، ولم يجد السلطان ألتتمش صعوبة بعد ذلك فى طرد كوباشا من السند، بعد أن أنهك الخوارزميون قواه ؛ ويقال إن كوباشا غرق فى نهر السند انتحاراً أثناء فراره سنة ١٢٢٨ . انظر Camb. Hist. of India, vol. III., p. 52—55

بجوار اسمه . وكان ذلك شيئاً جديداً على نظام العملة الهندية ، إذ كان الغزاة قبل ذلك يضربون نقوداً معدنية صغيرة على غرار النقود الوطنية ، تنقش عليها أشكال مألوفة لدى الهندوس ، كما كانت أسماء الغزاة تكتب بحروف هندية فى غالب الأحيان . فالتتمش يعتبر أول من ضرب نقوداً فضية عربية خالصة فى الهند(١) .

وتوفى السلطـان ألتتمش سنة ١٢٣٦ ، ولم تكن هناك شخصية أكثر صلاحية للملك من بعده سوى شخصية ابنته رضية الدين التى جلست على عرش دلهى أربع سنوات تقريباً (١٢٣٦ — ١٢٤٠ م) . وكانت هذه السلطانة على قدر كبير من الذكاء ، وحفظت القرآن الكريم وتعلمت الكثير من التعاليم الإسلامية ، ولهذا فضلها أبوها على إخوتها الذكور ، لانغماسهم فى اللهو ، ونادى بها ولية لعهده . ولما آلت السلطنة إلى وضنة الرتب لم تلبث أن دلت على مقدرة عظيمة وعقل وافر ، وسماها مؤرخو الهند « ملكة دوران بلقيس جهان »(٢) . وبذلت رضية الدين جهدها لتتظهر بمظهر الرجال ، فارتدت أزياءهم ، وقادت جيشها إلى الحرب على ظهر فيلها . وكان النظام المملوكى فى الهند قد تدعمت أركانه على يد أيبك ومملوكه التتمش ، الذى ينسب إليه تأسيس فرقة خاصة من المماليك الأتراك عرفت بالأربعين ، فاستأثر أولئك بالنفوذ والثروة بعد موت التتمش ، وتقاسموا المملكة ووظائفها فيما بينهم ، بعد أن قضوا على جميع الأحرار فى مختلف الوظائف . وأنف أولئك المماليك من رؤية امرأة على العرش ، ولاسيما بعد أن قربت إليها رجلا عباسياً — وقيل أفريقيا — كان يشغل وظيفة قائد الفرسان ، فقاموا بثورة ، حاولت السلطانة رضية

---

(١) انظر Wolseley Haig : Op. cit., p. 54. & Arnold : The Caliphate. p. 86—87. & Lane—Poole : Med. India under Mohammadan Ru'e., p. 73. & Ency. Isl, Art. Illtutmish.

(٢) راجع مقدمة كتاب Blochet : Hist. des Sultans Memlouks. vol. 1., p. 373 (مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد) .

الدين قمعها بكل شجاعة ، ولكنها هزمت وانتهى الأمر بقتلها فى ١٣ أكتوبر سنة ١٢٤٠ م(١).

فى هذا الوقت ظهر المغول فى إقليم السند من جديد ، واستولوا على مدينة لاهور فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٢٤١ م، وذبحوا سكانها، وفر حاكمها قراقوش إلى دلهى . أصبح الموقف يستدعى ظهور شخصية قوية تقبض على زمام الحكم بيد من حديد ، وهذا مما ساعد على ظهور بهاء الدين بلبان أحد مماليك التتمش .

وحكم بلبان هذا فى بادىء الأمر وهو وزير للمدعو ناصر الدين محمود شاه ابن التتمش الذى كان ملكا متقشفاً متديناً منصرفاً لقراءة القرآن ومجالسة العلماء . وتزوج محمود شاه من ابنة وزيره بلبان سنة ١٢٤٩م ، وأدى هذا بطبيعة الحال إلى إزدياد نفوذ بلبان واستئثاره بكل نفوذ فى الدولة(٢) . وبعد موت هذا الملك فى ٨ فبراير سنة ١٢٦٦ م ، اعتلى بلبان عرش السلطنة وتلقب بغياث الدين(٣) .

وتروى الروايات المعاصرة أن بلبان كان ذا أصل عريق ، وأن تحمسه للجهاد ضد المغول هو الذى جعله يرحل فى حداثته عن تركستان تاركا قبيلته وأصحابه . ثم حدث أن سرق بلبان وبيع فى الهند، فاشتراه السلطان التتمش . وتضيف الرواية أيضاً أن السلطان التتمش رفض شراء بلبان فى بادىء الامر، لقصر قامته ودمامته ، فصاح به بلبان « يا سيد العالم ! ولماذا تشترى المماليك الاخرين؟ » فأجابه ضاحكاً « أشتريهم لنفسى » فقال بلبان « إذن فاشترينى لله » ، فأجابه التتمش إلى طلبه ، ثم سرعان ما ظهرت مواهبه ، فصار يتدرج حتى اندمج فى جماعة الأربعين مملوكاً(٤) .

---

(١) انظر (Camb Hist. of India, III. p. 606 & Ency-Isl. Art. Ridiya.

(٢) انظر Camb. Hist. of India., III., p. 67.

(٣) نفس المرجع Ibid. III p. 73.

(٤) راجع Lane—Poole : Op. cit. p. 81.

اشتهر السلطان بلبان بصفات عسكرية صارمة، وعدالة لا تفرق بين شخص وآخر، وأول عمل اهتم به هو القضاء على طغيان جماعة الأربعين مملوكا . ومن أمثلة ذلك ما فعله بالأمير بقبق حاكم إحدى المدن ، عندما علم أنه ضرب خادماً له ضرباً مبرحاً أفضى إلى موته ، إذ أمر بلبان بقتل هذا الأمير جلداً، كما أمر بشنق صاحب أخبار تلك المدينة، لتستره على هذا الحادث . ثم هناك الأمير هايبث خان الذى قتل رجلا بتهمة السكر والعربدة ، فلما بلغ بلبان هذا الخبر ، أمر بجلد هذا الأمير خمسمائة جلدة وإرساله إلى أرملة القتيل فى هيئة عبد رقيق ، بحيث يحل لها قتله كما قتل زوجها ، ولم ينقذ هذا الأمير من الموت سوى وساطة بعض إخوانه الذين افتدوه بمبلغ كبير من المال . ولم يتردد بلبان فى شنق أحد قادته ، لفشله فى قمع ثورة من الثورات ، ولم تكن هذه العقوبة ضد لتقصير هذا القائد فى مهمته ، بل لأنه كان على شاكلة بقبق وهايبث خان من جماعة المماليك الأربعين .

وكان تعيين أصحاب الأخبار فى المدن المختلفة ، موضع عناية بلبان واهتمامه الشخصى ، وذلك لأهمية الأعمال التى يقومون بها فى كافة أرجاء الدولة ، إذ عن طريق تقاريرهم كان السلطان يلم بأحوال كل مدينة ، ولهذا السبب حرص بلبان على أن يجعلهم مستقلين عن سيطرة الولاة المحليين، خاضعين لسلطانه المباشر ، كما حرص على أن يتوخى الدقة والحذر عند اختيارهم أو ترقيتهم(١)

وتظهر لنا صرامة بلبان وقسوته فى السياسة التى اتبعها للضرب على أيدى عصابات المجرمين وقطاع الطرق الذين انبثوا فى المسالك والطرقات الموصلة بين دلهى والبنغال يعيثون فساداً وتخريباً . وقسم بلبان تلك الجهات إلى مناطق ، وخصص لكل منطقة قائداً من قادته ثم حمل عليها فأزال منها الغابات التى كانت وكرا لتلك العصابات، وشيد فيها القلاع الحصينة المزودة بالأسلحة والذخائر والجنود الأفغانيين . وبهذه الإجراءات الحاسمة استتب الأمن فى تلك الجهات وعاد الإتصال بين دلهى والبنغال .

وتتجلى صرامة بلبان أيضاً فى سياسة العنف التى اتبعها فى قمع الثورات التى

---

(١) أنظر Camb. Hist. of India, III., p. 75

قامت فى عهده، ونخص بالذكر منها ثورة لأمير طغريل حاكم البنغال سنة ١٢٧٩م، وهى الثورة التى قضى عليها بلبان قضاء تاماً ، وعلق رؤوس الثوار على جانبى طريق طويل، وصرح قائلا بأن بلاد البنغال لا تستطيع بعد ذلك أن تثور على دلهى بأى حال من الأحوال .

وتجلت مواهب بلبان فى انتصاره على قوات المغول التى اقتحمت إقليم السند سنة ١٢٧٩ م ، فاستحق بذلك لقب « الق خان » أى الأمير القوى . وترجع انتصارات بلبان على المغول إلى الاستعدادات العظيمة التى قام بها لدفع ذلك الخطر الداهم ، إذ اهتم بتحصين الثغور الهندية وتجنيد قبائلها تحت قيادة ابن عمه شيرخان سنقر ، كما أعد جيشاً قوياً مستعداً لصد أى هجوم مغولى خاطف فى أية لحظة حتى لا يعرض دلهى لما كان من مصير بغداد .

وفى ٩ مارس سنة ١٢٨٥ م فقد بلبان ابنه الأكبر محمد خان فى واقعة ضد المغول فى إقليم الملتان ، فحزن عليه حزناً شديداً ، ومات بعده بسنتين(١) .

كان بلبان من أولئك الأشخاص الذين لا يتركون وراءهم خلفاء أقوياء ، لأن قسوته حالت دون ظهور شخصيات قوية فى الميدان ، إذ قضى على جماعة المماليك الأربعين ، ونفى كثيراً من ذوى النفوذ فى الدولة ، سواء من الحكام والأدباء، ومنهم الشاعر أمير خسرو. وكانت كل آماله مركزه فى ابنه الأكبر الذى مات فى عهده ، ولهذا اضطربت شئون المملكة بعد مماته مما أتاح الفرصة لقيام أسرة جديدة هى الأسرة الخالجية(٢)، وهى التى استولت على عرش دلهى سنة ١٢٩٠ م تحت زعامة جلال الدين فيروز شاه .

---

(١) هناك وجه شبه عجيب بين السلطان بلبان والسلطان قطز، ثالث سلاطين الدولة المملوكية الأولى فى مصر ، فكلاهما ينحدر من أصل عريق ، وكلاهما بيع بيع الرقيق ، فاشترى الأول السلطان التمش ، واشترى الثانى السلطان أيبك التركمانى . ثم أخذ كل منهما يتدرج فى مراتب الرقى حتى استأثر بالملك بعد موت أستاذه . وكلاهما كان متحمساً للجهاد ضد المغول ، وقد استطاع كل منهما أن ينقذ بلاده من ذلك الخطر المغولى الداهم الذى اجتاح بقية العالم الإسلامى فانتصر عليهم بلبان فى السند فانتصر عليهم قطز فى فلسطين عند عين جالوت سنة ١٢٦٠ .

(٢) تنتسب هذه الأسرة الأفغانية إلى بلدة خالج ، وقيل ، إنها تركية الأصل نزحت إلى أفغانستان، وأخذت عن أهلها عاداتهم وطرائقهم . راجع W. Haig : Camb. Hist of India, III. p. 91.

نرى كل ما تقدم أن هناك أوجه شبه عديدة بين دولة المماليك الأتراك فى دلهى ودولة المماليك الأولى فى القاهرة ، إذ عاصرت كل منهما الأخرى تقريباً عند أن دولة المماليك فى الهند قامت سنة ١٢٠٦م (٦٠٢هـ)، أى أربعا وأربعين سنة قبيل قيام الدولة المملوكية الأولى فى مصر ، وظلت تلك الدولة المملوكية الهندية حتى سنة ١٢٩٠ م (٦٨٦ هـ) .

وكان سلاطين هاتين الدولتين من فى مصر والهند المماليك الذين جلبوا من أسواق النخاسة ، ربوا تربية عسكرية إسلامية للحرب والجهاد ، ثم تمكنوا بقوة نفوذهم من التدخل فى تولية السلاطين وعزلهم ، ثم الاستئثار بالملك لأنفسهم . هذا وكان العنصر التركى هو الغالب على مماليك الدولتين ، ونتج عن ذلك وجود تشابه فى الأسماء أمثال أيبك وبلبان وسنقر وقراقوش وبختيار وبقبق وغيرهم . وهدد الخطر المغولى كلا من الدولتين ، ولولا قوة المماليك فيهما ، لاجتاح مصر والهند كما اجتاح بقية العالم الإسلامى . وشاهدت كلتا الدولتين ظاهرة فريدة من نوعها فى العالم الإسلامى ، وهى جلوس ملكتين على عرشيهما ، فعلى عرش دلهى جلست الملكة رضية الدين (١٢٣٦ — ١٢٤٠) ، وجلست شجرة الدر على عرش مصر سنة ١٢٥٠ . وهناك وجه شبه أخير نلمسه فى تقرب سلاطين الدولتين للخلافة العباسية(١) ، لأن اعترافها بهم ورضاءها عنهم سوف يقوى من نفوذهم الأدبى ، ويكسبهم صفة شرعية للحكم ، ويحيطهم بسياج مكين ضد محاولات منافسيهم .

مختار العبادى

---

(١) ظلت دولة المماليك الأتراك فى الهند على ولائها للخلافة العباسية فى بغداد حتى بعد أن قضى المغول عليها سنة ١٢٥٨ م ، إذ ظل السلطان بلبان ينقش اسم الخليفة المستعصم المقتول على النقود ، ويذكر اسمه فى الخطبة من المنابر طوال حتى سنة ١٢٨٧ م وهى سنة وفاة بلبا راجع (Arnold : The Caliphate. p. 87)

الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال

فى المحيط الهندى وشرق أفريقيا والبحر الأحمر

افتتح الأمير هنرى الملاح البرتغالى سنة ١٤٢٠ سلسلة المحاولات الأوربية للكشوف الجغرافية، وكان استيلاء العثمانيين على مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣ سبباً من الأسباب الإضافية التى أدت إلى ازدياد هذه المحاولات، لمناهضة السيطرة البحرية الإسلامية عموماً. وكان أول عمل لهذا الأمير هو الاستيلاء على ميناء سبته، واكتشاف المنطقة الواقعة جنوبى إقليم موريتانيا. وتمكن البرتغاليون بذلك من جمع المعلومات عن تجارة العرب وقوافلهم التى تسير بين المغرب وتمبكتو والسنغال، وحاولوا تحويل هذه التجارة إلى أيديهم. وكانت الأحوال المالية لا تسمح بإرسال أكثر من سفينتين أو ثلاث، لكشف ساحل أفريقيا الغربى، ولهذا لم يتقدم البرتغاليون فى خطواتهم، بالرغم من كثرة عدد مشروعاتهم، إذ لم تصادف حملاتهم فى طريقها سوى شواطىء تغطيها الرمال، وتنعدم فيها الحياة، كما أنهم لم يجدوا ميناء لدخول سفنهم، واعتقدوا بذلك أنه لا توجد حياة فى الجنوب، كما تقول الخرافات القديمة. وبعد محاولات ظلت حوالى الثلاثين عاماً وصلت السفن البرتغالية إلى أرض غنية بخضرتها ومزروعاتها وحيواناتها، وتسيطر عليها مجموعات قوية من الإفريقيين، فكان هذا الكشف مدعاة لدحض المزاعم القديمة التى توارثها الأوروبيون.

وازداد أمل البرتغاليين فى الوصول إلى الهند بعد سنة ١٤٩٧ م، وهى السنة التى مرت فيها أول سفينة برتغالية على ساحل أفريقيا متجهة نحو الشرق. ووصلت الأخبار إلى الملك عمانويل الأول بوجود موانىء على ساحل أفريقيا، فجعل النشاط البرتغالى على ساحل أفريقيا الشرقى ضمن مسئوليات موظفى الدولة، ولذلك لم يسمح لأى فرد بالقيام برحلة نحو الشرق (آسيا)... وكان

الملك عمانويل الأول هو الذى يمول هذه الرحلات من الموارد الملكية، أو من أموال القروض ، وحاول أن يكون له نصيب الأسد فى التجارة بين أوربا وآسيا ، ما عدا بعض استثناءات قليلة .

ويبدو من الضرورى هنا أن ننتقل إلى موضوع العلاقات بين الدولة العثمانية ودول البحر المتوسط ، قبل أن ننتقل إلى موضوع الصراع البرتغالى فى المحيط الهنـــدى والمناطق المجاورة له .

فمن المعروف أن جماعات من القراصنة الأوربيين كانوا ينقضون على السفن الإسلامية فى شرق البحر المتوسط ، وتعودوا بيع غنائمهم والحصول على ما يحتاجون إليه من موانى البندقية على البحر الإدرياتى وبحر إيجه . وكانت هنالك أيضاً اشتباكات بين جماعات من الجنود المرتزقة ، من اليونان والألبان، وبين العثمانيين . وكانت البندقية تخشى وقوع اصطدام بين القوات العثمانية وقواتها ، ولذا أصدرت التعليمات إلى ضباط بحريتها بأن يتحملوا المشاق ، وألا يفقدوا سيطرتهم على أنفسهم ، تحت أى ضغط عثمانى ، لأن أية حادثة خطيرة سوف تجلب المآسى للبندقية التى فقدت حينذاك الكثير من نفوذها لدى الباب العالى ، وخاصة بعد أن فقدت صديقها إبراهيم باشا الذى أعدم فى عام ١٥٣٦ . ورأت البندقية أنه فى حالة وقوع حادث ، فإنه سوف يكون من الصعب لديها أن تسترضى السلطان ، ووضحت هذه الصعوبة عندما هاجمت سفن بندقية عدداً صغيراً من السفن العثمانية كانت تحمل مبعوثاً من السلطان سليمان إلى البندقية . وقامت القوات العثمانية بتخريب كورفو أخذاً بالثأر ، ووجدت البندقية أنه لا أمل فى الوصول إلى اتفاق سلام مع العثمانيين ، لذلك رحبت بالدخول فى حلف مع البابا والإمبراطور شارل الخامس ، ووقعت الاتفاقية فى ربيع عام ١٥٣٨ م

وفى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية تدافع عن نفوذها فى البحر المتوسط ، كان البرتغاليون يثبتون سيطرتهم فى المحيط الهندى ، وهو الأمر الذى شكل أخطاراً هددت كيان مصر ، لأن البرتغاليين كان همهم الأول

منع التجارة بين الهند والبحر الأحمر والخليج الفارسى العربى ، وتحويل تجارة التوابل والمنتجات الأخرى إلى لشبونه . لذا أرسل السلطان قنصوه الغورى ، مدفوعاً بضرورة المحافظة على تجارة الشرق التى تردإلى ساحل البحر الأحمر ، أو عن طريق القوافل إلى الموانىء المصرية ، أسطولاً بقيادة الأمير حسين الكردى وأبحر هذا الأسطول فى أكتوبر عام ١٥٠٥ م ،وكان قوامه حوالى خمسين سفينة . وبعث السلطان الغورى مع هذا الأسطول عدداً من الصناع والبنائين ، لبناء سور حول ميناء جدة .

وجاء فى ذلك الوقت أسطول برتغالى إلى البحر الأحمر ، فى محاولة للاتصال بالنجاشى الذى كان معروفاً لدى الأوربيين باسم برسترجون ، وذلك للوصول إلى اتفاق لإعداد حملة مشتركة يشترك فيها ملك فرنسا الذى عليه أن يحتفظ بقوة عسكرية فى سواكن ، ثم ملك أسبانيا الذى عليه أن تحتل قواته زيلع ، أما ملك البرتغال فعليه أن يتخذ من مصوع قاعدة لقواته .

وخرج الأسطول البرتغالى من سواكن إلى جدة ، املا فى الزحف إلى المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة . غير أنه لما علم البرتغاليون بوجود الأسطول المصرى فى جده هربت السفن البرتغالية نحو الجنوب ،ثم إلى ساحل الهند ، وخرج قائد الأسطول المصرى إلى سواكن ، ثم سار جنوباً متعقباً السفن البرتغالية إلى أن وصل إلى ساحل الهند ، حيث التقى بالأسطول البرتغالى فى ميناء شول على ساحل الهند الغربى . واشتبك الأسطولان فى موقعة انتهت بهزيمة البرتغالين وذلك فى صيف عام ١٥٠٨ م . ثم استطاع الأسطول البرتغالى أن يستجمع قواته، وأن تصل إليه الإمدادات، فأنزل فى العام التالى ١٥٠٩ هزيمة ساحقة بالاسطول المملوكى ، حيث أغرقت جميع سفنه فى مياه ديو . ثم فرض البرتغاليون حصاراً قوياً لمنع السفن القادمة من الهند من دخول البحر الأحمر والموانىء العربية ، واستطاعت السفن البرتغالية بهذه العملية أن تعزل موانى البحر الأحمر وبخاصة جدة وسواكن والسويس، وأن تمنع وصول التوابل والسلع الأخرى إليها . ولذا ضعف النشاط التجارى فى البحر الأحمر،وهو الأمر الذى دفع تجار الفرنجة إلى أسواق لشبونه بدلا من

أسواق مصر والشام . واشتدت الأزمة الاقتصادية بسبب ذلك فى مصر عام ١٥١٤ م(٩٢٠ هـ)، وأدت إلى خراب الإسكندرية وجدة ودمياط، بسبب عدم وصول سفن من الموانى الشرقية. واستمر الحال على هذا النحو حوالى ستة أعوام ، وباتت الإسكندرية فى حالة خراب ، ومرجع ذلك أن عمال النائب فى الإسكندرية كانوا يمارسون أعمالهم دون الأخذ بالأمر الواقع ، فصاروا يطالبون التجار بدفع العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنجة والمغاربة من دخول الثغر . وامتنع التجار أيضاً من دخول ميناء جدة ، وآلت إلى الخراب، وعز وجود الشاشات من مصر ، واشتد الظلم، وانقطع ورود السلع التى كانت تأتى من أوربا .

* * *

وعندما وصلت إلى الحبشة أخبار الانتصار البرتغالى على الأسطول المملوكى، قامت الملكة هيلانة الوصية على ابنها الملك لبنادنقل (١٥٠٨ — ١٥٤٠ م) بمحاولة توطيد العلاقات مع الإمارات الإسلامية فى الحبشة ، لفتح طرق التجارة وهو الأمر الذى كان السبب الرئيسى فى المشاحنات بين هذه الإمارات والحبشة. وأرسلت الملكة هيلانة البعوث إلى البلدان التى يهمها الامر، ومنها مصر، غير أن هذه المساعى لم تكلل بالنجاح ، فاتجهت الملكة هيلانه نحو الغرب ، وأرسلت مبعوثها متى الارمنى (ماتيو) إلى نائب الملك البرتغالى الفونسو البوكرك الذى تقابل معه فى ميناء ديل الهندية . وطلبت الملكة من ملك البرتغال أن يزوج بناته لأبنائها .

وسافر مبعوث الملكة من الهند إلى لشبونة ، رفقة نائب الملك المشار إليه ، وقابل رجال حكومة البرتغال ، وعاد فى عام ١٥٢٠ م ، ومعه سفير برتغالى اسمه دون رود ريجودى ليما . ومات المبعوث الحبشى بعد عودته من البرتغال ، دون يقابل الملكة هيلانة وبقى السفير البرتغالى فى الحبشة حوالى خمسة أعوام، لدراسة خطة تهدف نحو تحويل مجرى النيل ، والقيام بهجوم

على مصر والجزيرة العربيــة . غير أن هـذه الخطـة التى فكر البرتغـاليون فى تنفيـذها على أن يشـترك معهم ملوك فرنسا وإسبانيـا والبرتغـال ، كما أشرنا من قبـل ، لم يـكتب لهـا النجـاح، لأن البرتغـال بعد أن تغلبت مع الحبشة على قوات المسلمين فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، طالبت الحبشة بالدخول فى الكاثوليكية ،أى أن تتبع البابا فى روما ، بدلا من تبعيتها للكنيسة المرقسية فى مصر. غير أن الشعب الحبشى قاوم هذه الفكرة، وذهب البرتغاليون من الحبشة .

* * *

واستطاع السلطان قنصوه الغورى بعد غرق الأسطول المملوكى أن ينزل وحدات بحرية جـــديدة بميناء السويس ، وأرسل الأسطول الجـديد تحت إمرة حسين الكردى النائب فى جدة، لمطاردة الأسطول البرتغالى الذى أسرع فى الانسحاب من البحر الاحمر إلى الساحل فى الهند وأبحر الأسطول المصرى إلى المياه الهندية ، غير أنه لم يستطع إنزال هزيمة بالأسطول البرتغالى وطلب قوة من مصر فجاءت إليه قوة بحرية بقيادة الريس سليمان العثمانى. ولم تتمكن القـوتان من إنزال هزيمة بالأسطول البرتغالى ، بسبب ما كان للبرتغاليين من قواعد قوية على الشاطىء الهندى . لذا انسحب الأسطول المصرى إلى جده ، ونجح فقط فى إبعاد خطر دخول البرتغاليين إلى البحر الاحمر. وفى هذه الأثناء دخلت الدولة المملوكية فى مرحلتها النهائية، حيث كانت الأقدار أقوى من عزيمة السلطان الغورى الذى كان كبير الأمل فى الإنتصار على البرتغاليين، لو لم يتحرك العثمانيون ضده . وكان الغزو العثمانى لمصر مفاجأة أيضاً للفرنجة، ومخيبا لآمالهم بعد أن نجحوا فى حرمان الدولة المملوكية من مصدر ثرائها وقوتها ومناعتها .

والحق أن هذه نقطة جديرة بالوقوف عندها ، فالسلطان العثمانى كان يعلم بنشاط مصر فى محاربة النفوذ البرتغالى، وبما يبيته الأوربيون لمصر ، فبدلا من

مساندة السلطان العثمانى لمصر حتى تتغلب على أزمتها، أنزل بها ضربة قاسمة أضاعت معها جهودها فى المحيط الهندى والبحر الاحمر، ولم تستطع الدولة العثمانية من مواصلة نشاط مصر فى تلك المناطق إلا بعد حوالى عشرين عاماً، استطاع البرتغاليون خلالها من تقوية مراكزهم. وجاء الأسطول العثمانى، ولم يكن فى تصميمه ما يجعله قادراً على الملاحة فى المحيط الهندى لإنه بنى على تصميمات السفن للملاحة فى البحر المتوسط.

* * *

وحاول السلطان سليم العثمانى بعد دخوله مصر إرسال قوة بحرية إلى المحيط الهندى، لحماية البحر الأحمر والخليج العربى من نشاط البرتغالين، وأنشأ لهذا الغرض ترسانة فى السويس وعهد إلى كبير وزرائه، ابراهيم باشا بتنظيمها وأرسل السلطات، فى عام ١٥٢٥م قطعاً بحرية إلى اليمن لبسط النفوذ العثمانى عليها، وبعد دخول العراق تحت سيطرة الحكم العثمانى نقلت الأخشاب لبناء أسطول كبير للقيام بإغارة بحرية على والمراكز البرتغالية فى المحيط الهندى. وتم بناء الأسطول العثمانى عام ١٥٤١م، وكان بحارته من رعايا البندقية. واحتل العثمانيون ميناء عدن وبعد ذلك بسنوات قليلة قام قائد برتغالى اسمه استيفاو — دى — جاما بغزوة جريئة على ميناء السويس، وذلك فى عام ١٥٤١م واتصل البرتغاليون بالحبشة، وقدموا لهم مساعدات عسكرية فى حربهم ضد الإمام أحمد قرين الذى قدمت له الدولة العثمانية قوة من رجالها، غير أن هذه القوة انسحبت بعد الانتصار الذى أحرزته قوات الإمام، وظهر البرتغاليون مع الحبش، فكانت لهم الغلبة على جيش الإمام فى عام ١٥٤٨م.

* * *

والمعروف أن البرتغاليين جاءوا إلى المحيط الهندى وقلوبهم مليئة حقداً على المسلمين، وفى عزمهم اقتلاع النفوذ الإسلامى من المنطقة باجمعها، والتحالف مع الحكام المحليين على ذلك السعى. ومن ذلك أن الحملة البرتغالية الأولى عادت إلى البرتغال، وحملت معها نماذج من السلع الآسيوية، كما نقلت إلى الملك عمانويل

أن سكان المبار من المسيحيين على مذهب هرطقي . وعلى ضوء هذه المعلومات الخاصة بالعقائد أراد الملك أن يجتذب إليه ملك الهند الذى كان يعرف بالساموري، للعمل ضد المسلمين. وقامت الحملة البرتغالية الثانية — وكانت أكبر من الحملة الأولى —مكونة من ثلاثة عشر مركباً، وعليها ١٥٠٠ رجل. وأعطيت قيادتها إلى بدر والفارس كابرال وكانت الأوامر التى صدرت إليه إقامة محطات تجارية، ووكالة أعمال فى قليقوط، وأن ينزل القسس فى هذه الأماكن لتعريف الأهالى بالمسيحية الصحيحة، كما يعلمها البرتغاليون . وكان على القائد البرتغالى أن يشحن بضاعته، وبعد ذلك يتحدث إلى الحاكم باتجاه البرتغاليين نحو معاملة المسلمين وذلك بالاعتداء على سفنهم فى البحار، وأن يطلب من الحاكم طرد العرب المسلمين من مدينته قليقوط بوصفه حاكماً مسيحياً .

وصل كابرال فى شهر سبتمبر سنة ١٥٠٠ إلى قليقوط، ومعه ستة مراكب فقط، وحاول إقامة محطة تجارية فى هذه المدينة غير أن المسلمين لم يلبثوا أن دبروا حالة شغب محلية قتل فيها ٤٨ برتغالياً. وخربت مستودعات المحطة التجارية البرتغالية الجديدة ثم أطلق البرتغال نيران مدافعهم على المدينة الموكولة إلى دالميدا وتركوها وساروا إلى كوشين الواقعة جنوب قليقوط، على ساحل المبار . ووجد كابرال أن حاكم قليقوط لا يدين بالمسيحية بل هو هندوسى، ففشلت بذلك الخطط التى وضعها ملك البرتغال ولم ينجح مبعوثه فى مهمته إلا قليلا، بسبب معارضة العرب . وأرسل الملك عمانويل فى عام ١٥٠٢م فاسكو دى جاما إلى الهند للحصول على تعويض عن حوادث عام ١٥٠٠م التى قتل فيها ٤٨ برتغالياً ، وخربت فى أثنائها الممتلكات البرتغالية . وأرسلت أيضاً بعض قطع بحرية إلى مدخل البحر الأحمر للهجوم على سفن المسلمين. وعين ملك البرتغال فى هذه السنة دوق فرانسيسكو فى الشرق، وزوده بتعليمات كثيرة ، منها إنشاء حصون فى كلوه وانجديقا وكانت كلوه مدينة إسلامية معادية للبرتغال . وكان الغرض من إقامة هذه الحصون تزويد السفن البحرية بالمياه العذبة الحصنين على أن يبدأ دوق دالميدا فى بناء حصنين خرين أحدهما فى كوشين والثانى فى كنور وكانت المهمة الثالثة هى الذهاب إلى مدخل البحر الأحمر ، لبناء حصن فى موقع مناسب لمنع السفن التى تحمل التوابل من الدخول إلى مصر . وبذا يفقد الهنود أملهم فى المتاجرة مع غير البرتغاليين وبعد

الانتهاء من هذه المأموريات كان على داالميدا أن يذهب إلى ساحل الملبار لإقامة حصن فى كولام الهندية، وهى مركز تصدير الفلفل وتقع جنوب كوشين وكان على نائب الملك كذلك أن يراقب شحن الفلفل إلى البرتغال وأن يتخذ ما يراه من إجراءات ضد قليقوط، وأن يتعامل فى سلام مع راجا كوشين إذا وافق هو على طرد المسلمين . وكان على الميدا أيضاً أن يرسل سفناً برتغالية إلى هرمز فى الخليج الفارسى العربى وإلى ساحل الهند — ولا سيما دبول وكوجرات وشول ويتخذ من هذه البلاد قواعد للهجوم على السفن العربية . واشترط الملك البرتغالى فى تعلياته أنه فى حالة قبول الحكام المسلمين فى هذه المدن للبرتغاليين أن يدفعوا أتاوة وأن يسمحوا للسفن البرتغالية بدخول الموانى لشراء الحاجيات المطلوبة .

واستطاع داالميدا تنفيذ تعليات بناء الحصون فى كلوه وميسه وانجديقا وكونور وكوسين ، وحاول الهجوم على السفن الإسلامية فى عام ١٥٠٦ م، غير أنه لم يوفق . ولم يتمكن نائب الملك من بناء الحصن المطلوب عند مدخل البحر الأحمر واستعاض عنه باحتلال جزيرة سقطره التى اختارها لتكون قاعدة للهجوم على السفن التجارية التى تحاول الدخول إلى البحر الأحمر، وتم ذلك فى عام ١٥٠٧ . غير أن رفض الفونسو دى البوكيرك قائد السفن البرتغالية رفض إطاعة أوامر نائب الملك وذهب إلى هرمز بدلا من الهند وحاول إقامة حصن هناك لكن مقاومة السكان وهرب بعض البرتغاليين جعلت مهمته عسيرة. وأرسل نائب الملك حملات برتغالية لبناء حصون فى سوفاله وموزنبيق .

وبدأت عمليات القرصنة على سفن المسلمين، واستمرت هذه الحركة التى قصد بها اقتلاع جذور النشاط العربى من منطقة المحيط الهندى، واحتكار التجارة فى أيدى حكومة البرتغال . ووجد البوكيرك أن هذه العمليات سوف تخلق جواً من عدم الثقة كما أنها لم تدخل إلا ربحاً قليلا إلى خزانة الدولة ، ووجد أيضاً أن غالبية الغنائم الغالية الثمن يختلسها الضباط والجنود. فكان عليه أن يغير من سياسة البرتغال التى ترمى إلى احتكار التجارة كلية وطرد العرب المسلمين . وقد أخذ بعين الاعتبار فى قراره هذا وجود قوات بحرية مصرية وقوات أخرى من سلطنة كوجرات ، ووجد البوكيرك أن الأمل ضعيف فى إرضاء العرب لذلك

رأى أنه من الضرورى أن يقيم حصوناً فى المراكز التجارية الرئيسية، وهى عدن . وهرمز .ديو .وجوا. وهذه كانت فى فكرته منذ زمن وأضاف إليها مصوع الواقعة جنوبى سواكن على ساحل البحر الأحمر وأراد البوكيرك أيضاً أن يجعل حكام هذه المراكز من البرتغاليين على أساس أن قيام منشآت برتغالية فى هذه المراكز وعليها حكام من بنى جنسه يخفف الضغط من جانب، الآسيويين ويطلق يدهم فى إدارة شئونهم التجارية وغيرها . وكان البوكيرك يخشى دخول الأسطول المصرى إلى بحر العرب لمقاومة الأسطول البرتغالى لأن دخول الأسطول المصرى إلى هذه المياه سيقوى أعداء البرتغال فى الهند وغيرها . ووجد البوكيرك أن بناء الحصون فى المراكز التى سبقت الإشارة إليها سوف يجعل مركز البرتغال فى الهند فى أمان وسوف يفتح الطريق إلى البحر الأحمر للهجوم على جده ، وأراد بذلك أن يحول الصراع على التجارة فى المحيط الهندى إلى حرب صليبية لأنهـــا فى رأيه ضرورة لازمة لحكومة البرتغال ولخدمة المسيحية ورأى البوكيرك أن الهندوس والمسيحيين المحليين لا يملكون سوى رأس مال قليل ، ولا يستطيع هو تدمير تجارة المسلمين فى سرعة لأن المسلمين لهم مال وفير وتخدم تجارتهم أعداد كبيرة من السفن . واستقر رأيه على أن التجارة مع الشرق يجب أن تكون مع المسلمين الذين كان اشتغالهم بالتجارة بعيد الجذور ، وليس من السهل على البرتغاليين اقتلاعهم . وأخذ يفكر فى الوسائل التى تساعد على نجاح مهمته، ومن هذه الوسائل الاستيلاء على جزء من تجارة المسلمين، وتحويل الجزء الباقى عن طريقه مع المراكز التى كانت معدة لإقامة الحصون إلى مراكز تجارية ، التجارة إلى البحر الأحمر . نهائيا إلا بعد الحصول على إذن خاص .

واحتل دالبوكيرك مدينة جوا التى أراد أن يجعل منها مركزاً تجارياً للبرتغال فى آسيا، واحتل بعد ذلك الملقا . ثم انسحبت القوات البرتغالية من جزيرة سقطره، لأن دالبوكيرك وجدها ليست بذات فائدة ما، وحاول احتلال عدن، ولكنه فشل .

ودخلت القطع البرتغالية إلى البحر الأحمر، وهو الأمر الذى ترك انطباعاته القوية فى مصر المملوكية والدولة العثمانية. وحاول دالبوكيرك إنشاء حصن فى ميناء ديو عن طريق المفاوضة، غير أنه لم ينجح. وعمل فى نفس الوقت على إنهاء حالة الحرب

مع قاليقوط التى تولى حكمها ساموری جديد ، بعد مقتل سلفه عن طريق السم بإيعاز دالبوكيرك . وأعطى الساموری الجديد للبرتغال إذناً ببناء حصن فى قاليقوط ، كما منحهم حق الاتجار فى الفلفل . وسافر دالبوكيرك بعد ذلك إلى هرمز ، لتقوية النفوذ البرتغالى ، وقرر أن تمتد رحلته إلى البحر الأحمر فى عام ١٥١٦ م غير أن ظروف إبعاده عن مركزه وموته حالت دون ذلك .

وفى عهد دالبوكيرك وصل نفوذ البرتغال من الخليج الفارسى العربى إلى الملايو ، واستطاع البرتغاليون أن يكون لهم سلطان ونفوذ سياسى على ساحل الهند الغربى بالقرب من مدن الملقا وهرمز ، كما أنهم استطاعوا بناء الحصون فى المراكز الاستراتيجية وصار بذلك لأسطولهم نفوذ قوى على التجارة ، غير أن دالبوكيرك أغفل أن يجعل النشاط البرتغالى قائماً على كفاية ذاتية من حيث المال والرجال .

ويبدو أن دالبوكيرك بالغ فى تقديره لثروة أرخبيل بلاد الملايو، لأن سياسته هذه شجعت عدداً من مواطنيه على السفر إلى تلك البلاد . وأعطى دالبوكيرك للتجار أهمية كبرى فى الشئون البرتغالية ، وهو الأمر الذى جعل البرتغاليون لا يفكرون كثيراً فى منازلة المسلمين . وقرر دالبوكيرك أن بناء الحصون التى اقترحها دالميدا سيكلف مالاً كثيراً ، وأنه لا ضرورة لها ، ويقول فى رسالة بعث بها إلى الملك « إن العدد الكبير من الحصون التى نقيمها سيكون له أثره فى إضعاف القوة المحاربة ، واجعل كل الاعتماد على الأسطول ، لأننا إذا لم نكن أقوياء فى البحر فإن كل شىء سوف يكون علينا .

ويبدو أن الأمر الذى دفع دالميدا إلى التفكير فى بناء الحصون هو خوفه من احتمال حدوث كارثة إذا اصيب الأسطول بخسارة . وكان دالميدا يأمل فى المنفعة التى تنجم عن بناء هذه الحصون ، وكان فى حالات تفكيره فى سياسة بلده يريد أن يجعل من هذه الحصون ما يناسب حاجة بضعة آلاف من الرجال وعدد قليل من قطع الأسطول . وبعد وفاة دالبوكيرك بذل خلفاؤه الجهد الكبير لتثبيت ما كسبه هو فى النواحى السياسية والاقتصادية ، وهذا بالرغم من أن أخطاءه كانت عديدة .

وقرر ملك البرتغال احتكار عدد من السلع التجارية ،وجاء فى قانون الهند البرتغالية لعام ١٥٢٠م بيان هذه السلع ، وهى الفلفل والزنجبيل والقرفة والدارصينى والقرنفل وجوز الطيب والحرير .

ولم يسمح هذا القانون للمسيحيين والمسلمين أو الهندوس بالتجارة فى هذه الأصناف ، دون الحصول على تصريح ملكى ، كما حرم على عدد كبير من موظفى الدولة ممارسة التجارة لحسابهم الخاص . غير أن هذا القانون لم يكن معمولاً به فى كثير من الأحوال ، إذ قام البرتغاليون والآسيويون بخرقه ، ولم يكن من المعقول منع المستوطنين من البرتغال من التجارة ، لأن عدداً كبيراً منهم كان يصرف لهم جزء من رواتبهم عينية ، واستمر ذلك حتى السنوات الأخيرة لحكم الملك عمانويل الأول .وبعد وقف صرف جزء من المرتب من السلع على هذا النحو . لم يكن فى إمكانيات التاج البرتغالى منع ضباطه من التجارة ،لأن المرتبات كانت قليلة وغير كافية .ودخل الفساد فى إيرادات الدولة وهو الأمر الذى جعلها غير قادرة على دفع مرتبات الموظفين، أى أن المرتبات الضعيفة خلقت الفساد ،وجعلته يستشرى ، وسهلت للموظفين ممارسة التجارة التى انتشرت بين الموظفين فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى .

وأظهر الآسيويون طاعتهم للقانون ،عندما لم يكن هنالك اختيار، كما أنهم فى بعض الحالات تجاهلوا القانون ،أو قدموا الرشاوى للسماح لهم بالتجارة .ولم يكن من السهل على حكومة البرتغال إحكام احتكارها بدقة ،وفى منتصف القرن السادس عشر الميلادى أهمل التجار من الآسيويين هذه القوانين ، وأخذوا فى نقل التوابل ومنها الفلفل إلى البحر الأحمر . ثم إن مشروع دالبوكيرك الذى طلب من الأسيويين الحصول على تصريح لسفنهم لم يلق اهتماماً ، ولم يكن فى مقدور القوات البرتغالية المتغيرة أن تباشر رقابتها على التجارة البحرية . وكان هنالك إحكام للرقابة على بعض موانىء ساحل الهند الغربى ومنطقة هرمز ، ومع ذلك كان التهريب سهلاً .

وتولى شئون تجارة ملك البرتغال إدارة اسمها بيت الهند فى لشبونه ، وكان عمل هذا البيت مراقبة شئون الإدارة البرتغالية عامة فى الشرق . وكانت السفن تذهب فى كل عام من لشبونه إلى ساحل الملبار لنقل التوابل للملك ، وكانت السفن تؤجر لهذه السفريات .ومنعت القوانين هذه السفن من قبول الغنائم أو مخالفة أوامر قبطان كل سفينة .

الشاطر بصيلى عبد الجليل

بعض مصادر هذا البحث

ابن أياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . (طبعة القاهرة ، وجمعية المستشرقين الألمان) ، خمسة أجزاء .

Axelson, (Eric) : Portuguese in South - East Africa 1600-1700. (Johannesburg 1960).

Coupland, (Sir Reginald) : East Africa and its Invaders. (Oxford, 1938).

Gray, (Sir John): Early Portuguese Missionaries in East Africa. (L ndon, 1958).

Ibid. History of Zanzibar. (Oxford).

Oliver & Mathew : History of East Africa, Vol I, 1963.

Serjeant, (R.B) : The Portuguese of the South Arabian Coast, (Oxford, 1963).

Stigand, (C.H) : The Land of Zinj. (London, 1913).

Strandes, (Justus) : The Portuguese Period in East Africa. (Nairobi, 1961).

Vambery, (A), The Travels and Adventures of the Turkish Admiral Sidi Ali Reis, (London, 1899).

الأحوال الاجتماعية والنظم الإدارية فى الجزائر

قبيـــل الغزو الفرنســـى

من الشائع أن الحكم العثمانى عزل ولاياته العربية عن العالم الخارجى ، غير أننا لانلمس هذه الظاهرة بالنسبة لنيابة الجزائر العثمانية ، لأن نشاطها البحرى فى حوض البحر الأبيض المتوسط أوجد بينها وبين أقطار هذا الحوض صلات متعددة الوجوه ، وهى صلات تشمل القسم العربى والقسم الأوربى من الولايات العثمانية على السواء .

ولما كان هذا العصر بالنسبة للأقطار العربية العثمانية عصر خمول فكرى ، قلما اهتم فيه الكتاب بالشئون العامة ، فإن أغلب معلوماتنا للأسف تستمد من مصادر أوربية ، أكثرها مكتوب خلال تلك الحقبة العثمانية . فالرحالة الأوربيون بدأوا يفدون إلى الجزائر ويكتبون عنها منذ القرن السادس عشر ، كما أدت الحروب البحرية المتواصلة إلى وقوع عدد من الأوربيين فى الأسر بالجزائر ، وتصدى بعض هؤلاء وأولئك للكتابة عنها ، بعد عودتهم إلى بلادهم ، وطبيعى أن تكون كتاباتهم متحيزة ، لأنها تعبر عن سخطهم على أيام الأسر .

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر يطالعنا مصدر جديد له قيمة أعظم ، وهو مجموعة تقارير القناصل من مختلف الجنسيات الأجنبية ، وكثير منها منشور . وليس معنى ذلك أننا نفتقد المصادر الوطنية فلا نجدها ، إذ حفظت بعض سجلات العهد العثمانى ، وهى موجودة الآن فى مركز أبحاث حوض البحر الأبيض المتوسط الملحق بجامعة إيكس آن بروفانس ، لأن الحكومة الفرنسية حملت معها سجلات الجزائر قبل أن تجلو حديثا عن البلاد .

وترجع أقدم تلك الوثائق إلى ١٥٠ عاماً قبل الاحتلال الفرنسى ، أى إلى عام ١٦٨٠ . ونشر ديفو وغيره من الباحثين مقتطفات من تلك السجلات ، بعد أن ترجموها

للفرنسية ، وذلك فى مجلة Revue Africaine التى كانت تصدرها الجمعية التاريخية الجزائرية فى العهد الفرنسي الاستعمارى ، ومنها مجموعة عن الغنائم البحرية ، وأخرى عن الأوقاف ، وهذه بالذات تلقى أضواء هامة على الحياة الاجتماعية .

والمصدر الجزائرى الوحيد الذى تمكنا من العثور عليه ، هو كتاب المرآة لحمدان خوجة ، وهذا الكتاب نعرفه من خلال ترجمته الفرنسية التى نشرت سنة ١٨٣٣ ، وهو يتناول الأوضاع الاجتماعية الجزائريه ، ليثبت منها أن المجتمع الجزائرى أهل لأن يتولى إدارة نفسه بنفسه .

وترتب على كثرة المصادر الأجنبية أن توفرت لدينا معلومات عن العاصمة الجزائرية ، وهى مدينة الجزائر نفسها ، على أننا حاولنا ما استطعنا فى هذا المقال أن نوسع الدائرة ، وأن نتحدث عن الأقاليم الجزائرية كذلك ، مع العلم بأننا لم نستطع أن نحقق توازناً بين المعلومات التى توفرت لدينا عن مدينة الجزائر ، وبين المعلومات التى توصلنا إليها فيما يخص الأقاليم .

وكان أهل المدن الجزائرية يمثلون نسبة ضئيلة ، إذا قيسوا بمجموع السكان ، وقدرت هذه النسبة بنحو ٦ ٪ . وفيما عدا العاصمة ومدينة قسنطينة لم توجد ببلاد الجزائر مدن هامة ، فوهران لم يزد سكانها عن عشر آلاف ، أما مدينة معسكر التى كانت عاصمة الإقليم الغربى أثناء احتلال الأسبان لهذه المدينة ، فازدهرت بسبب وجود صناعة النسيج بها ، ولا سيما البرانس للرجال ، والحايك للرجال والنساء على السواء .

وهناك مدينة ثالثة فى الغرب هى تلمسان ، وكانت هذه المدينة لمدة ثلاث قرون عاصمة لدولة من الدول المغربية الصغيرة ، وهى دولة بوزيان ، لكنها اضمحلت فى العهد العثمانى ، وإن احتفظت بطابعها كمركز للثقافة العربية الإسلامية . وظلت هذه المدينة هكذا حتى فى عهد الحكم الفرنسى ، إذ قاوم أهلها الغزو الثقافى الأجنبي ما استطاعوا ، ولذا كان الفرنسيون الذين يرغبون فى دراسة اللغة العربية أو اللهجة الجزائرية يتوجهون إلى تلمسان . وربما يرجع ذلك إلى أن اللغة العربية كانت تسود وهران ، على حين احتفظ البربر بلغتهم فى معظم إقليم قسنطينة ، وخاصة فى الشمال ، حيث تقع جبال جرجرة الوعرة وحيث عاش البربر فى عزلة عن العالم الخارجى ، وهم يعرفون فى الجزائر باسم

القبايل(١). وفى العهد العثمانى تكونت فى أقاليم القبايل سلطنات مستقلة استقلالا فعلياً واسمياً عن عاصمة النيابة ، وأطلق بعض الرحالة الأوربيين على القبايل اسم الجبليين. والواقع أن كلمة قبايل تطلق على سكان الجبل دون التقيد بجنس معين ، وربما كانت اللغة وطريقة المعيشة أهم مميزات القبايل عن غيرهم من سكان الجزائر. ونظراً إلى طبيعة البلاد الجبلية اشتغل أهل القبايل بالرى وبزراعة الأشجار ، وخاصة أشجار الزيتون ، على حين اشتغل سكان السهل بزراعة الحبوب .

وكانت قسنطينة تضارع العاصمة من حيث عدد السكان، إذ بلغ عدد سكانها قبيل الغزو الفرنسى ٢٥ ألفا ، وهى تقع على الطريق التجارى بين الجزائر وتونس . ويقيم فيها كثير من ملاك الأراضى الزراعية ، وعدد من الطائفة اليهودية التى تشتغل بالتجارة . أما العاصمة التى كانت من أكبر مدن البحر المتوسط فى القرن السادس عشر فبلغ عدد سكانها حينذاك نحو ١٠٠ ألف ، ثم هبط هذا العدو بالتدريج حتى وصل قبيل الغزو الفرنسى إلى نحو ٣٠ ألفاً . ويفسر الأوربيون هذا التدهور بانقطاع القرصنة ، وليس من موضوع هذا المقال أن نناقش ما إذا كانت الحروب البحرية قرصنة أم نوعاً من الحروب الرسمية التى تعارفت عليها الدول فى ذلك الوقت . ولكن يجب أن نضيف أن تقدم وسائل الملاحة لدى الدول الأوربية، وتخلف البحرية الجزائرية ابتداءاً من القرن الثامن عشر، أدى إلى نقل النشاط التجارى من يد الجزائريين إلى الأوربيين، وإلى التقليل فى نفس الوقت من قدرة الأسطول الحربى الجزائرى على متابعة نشاطه المألوف .

وفى خارج المدن كان العرب المنتظمون فى قبايل ، والبربر الذين اختلطوا بالعرب باصطناع لغتهم ، فضلا عن أولئك الذين انعزلوا فى الجبال ، يشكلون غالبية السكان . أما العثمانيون فعاشوا فى معزل عن السكان الوطنيين، وكان شعورهم الطبقى حاداً. وبينما نجد بعض الأسر العثمانية فى الشام تتحول إلى أسر وطنية أسرة العظم فى دمشق، نلاحظ أن العثمانيون فى الجزائر كانوا أشد انعزالا عن المجتمع الجزائرى بالقياس إلى غيرهم من أتراك الأقطار العربية التى خضعت

(١) يكتب بعض المعاصرين هذا اللفظ بالهمزة المتوسطة، ولكننا عدلنا عن هذه التسمية لسببين، وهما أنها ربما تلتبس مع كلمة قبائل جمع قبيلة، وثانيا أن أهل البلاد ينطقون هذا اللفظ بالياء ، كما هنا .

للحكم العثمانى . ويدل على ذلك أنهم أولئك العثمانيين المقيمين بالجزائر رفضوا أن يتمتع أبناؤهم الذين من أمهات جزائريات بامتيازات الآباء ولذا شكل أولئك الابناء طبقة ثانية تعرف باسم القولوغلان .

ويعزى إلى القائد البحرى العثمانى المشهور عورج وهو مؤسس نيابة الجزائر ، أنه حظر على القولوغلان ارتقا المناصب العليا القاصرة على العثمانيين الخلص فضلا عن تقليد يقضى بأن يمتنع الأب عن التوسط لابنه إذا كان من طبقة القولوغلان . ولذلك حاول القولوغلان القيام بثورة على الحكم العثمانى سنة ١٥٨٠ ، إلا أن البيلربك حسن باشا فنزيانو من قمعها ، واضطر القولوغلان إلى اللجوء لدى قبيلة زلاتن البربرية وامتزجوا بها . ومما يسترعى الانتباه أن المجتمع الجزائرى تعرض فى العهد العثمانى للتمييز الطبقى على أساس العنصر . فبينما استعلى العثمانيون الخلص على القولوغلان استعلى هؤلاء بدورهم على السكان الوطنيين الذين لم يتصلوا بالعنصر العثمانى أصلا . والشاهد على ذلك رفض قبيلة زلاتن التعاون مع الأمير عبد القادر لمقاومة الفرنسيين ، بحجة أنها تنتمى إلى عنصر أعلى مما اضطر القائد الجزائرى إلى تبديدهم سنة ١٨٣٨ . وبينما كان محظوراً على القولو غلان أن يرتفعوا إلى درجة آبائهم ، فتح البـــاب على مصاريعــه أمام الأسرى الأوربيين الذين اعتنقوا الإسلام ، واصطنعوا اللغة التركية لكى يتمتعوا بجميع حقوق العثمانى الأصيل . ووصل بعضهم إلى منصب رئاسة الدولة ،مثل على باشا علوج الإيطالى الأصل ، وحسن باشا فنزيانوا الذى يدل اسمه على أنه ينتمى أصلا إلى البندقية (فينيسيا)، وكلاهما فاضل منصب البلرباكوية :

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو كيف احتفظت هذه الأقلية العنصرية بوضعها ، كطبقة ممتازة حاكمة مدة ثلاثة قرون، وهى المدة التى استغرقها الحكم العثمانى . وربما يفسر ذلك الوضع بأن العثمانيين قصروا مناصب الجيش ومناصب الدولة العليا على أنفسهم ، وهنا يثور سؤال آخر ، وهو كيف كان العنصر العثمانى يجدد نفسه للاستمرار فى حكم تلك النيابة البعيدة ؟

الجواب على ذلك أنه منذ نشأت النيابة الجزائرية عمد خير الدين إلى استقدام الجند من الأناضول ، وأحيـــاناً من ألبانيـا أوكريت ، وكان أتراك الأناضول يتعصبون دائماً لبنى إقليمهم . وفى بداية الأمر كان إغـراء الحروب البحـرية قوياً ، فتوافد العثمانيون من تلقـاء أنفسهم

إلى بلاد الجزائر . وكانت حكومة النيابة ترسل الدعاة إلى الأناضول ، وخاصة إلى أزمير، لحشد الجنود اللازمين لها، وتدفع لهم أجور السفر أو تبذل لهم الوعود المغـرية . ورغم ذلك تناقص عدد العثمانيين فى بلاد الجزائر بالتدريج ، فبينما كان متوسط عدد الوافدين سنويا فى القرن الثامن عشر يتراوح مابين ٣٠٠ و ٤٠٠ انخفض ذلك العدد فى المدة ما بين سنة ١٨١٠ و ١٨٢٠ إلى ٢٣٠ ، وفى السنوات العشر التالية إلى ٢٠٠ سنوياً . وكان من المنتظر أن تفقد الهيئة العسكرية العثمانية (الأوجاق) أهميتها، نتيجة قرار السلطان محمود بحل الإنكشارية سنة ١٨٢٦، لولا أن الوقت لم يطل بالنيابة الجزائرية العثمانية لترى آثار هذا القرار .

واقتصر وجود العثمانيين على مدينة الجزائر، حيث بلغ عددهم نحو أربعة آلاف كلهم من الذكور. وعلى عواصم الأقاليم، على حين صار للقولوغلان مهمة الحكم فى المدن الصغيرة ، فنراهم فى تلمسان يعيشون بمعزل عن السكان العرب ، والصورة السائدة لكلمة عرب فى الجزائر حينذاك تشبه ذلك المفهوم السائد فى مصر، وهى اقتصارها على أبناء القبائل التى تعيش حياة الرعى فى الغالب .

أما سكان المدن من غير العثمانيين والقولوغلان، فكانوا يعرفون أنفسهم بالنسبة إلى المدينة التى ينتمون إليها، وأطلق الأوربيون عليهم كلمة مور . وهذه الكلمة محل جدل ، فيقال إنها تحريف عن كلمة مغربى ، ولكن سبق للرومان أن استخدموها لوصف سكان المغرب الأقصى الذى كان يعرف فى عهدهم بإقليم موريتانيا، ثم أصبح الإسبان يطلقونها على جميع المسلمين، حتى إن البرتغاليين حينما وصلوا إلى الساحل الإفريقى الشرقى فوجئوا هناك بالمسلمين، وأطلقوا عليهم اسم مور . أما فى الفترة التى تعنينا فاصطلح الكتاب على تخصيص هذه الكلمة لوصف السكان الوطنيين فى مدن المغرب العربى وحدها، وليس لهذه الكلمة مدلول جنس بل تصف طبقة اجتماعية معينة ، والصفة الأساسية فيها هى سكنى المدن وطريقة الحياة المرفهة التى تحياها، والتى تختلف عن معيشة أهل الريف . وإذا شئنا تعبيرا حديثاً فهى البرجوازية الوطنية، ويدخل فى تكوينها عدة أجناس ، وهى العرب والبربر، وبصفة خاصة أبناء المهاجرين من الأندلس فى القرن السابع عشر . واتخذت هذه الطبقة من اللغة العربية أساساً لثقافتها، ويبدو أنها أرادت أن تساهم فى حركة النهضة الحديثة، فيذكر روزية الذي عاصر الغزو الفرنسى

أن بعض المور فى مدينة الجزائر أرسلوا ابنائهم للدراسة فى فرنسا ، قبل سنة ١٨٣٠، أى قبل الغزو الفرنسى لبلاد الجزائر ، وإلى هؤلاء ينتمى حمدان خوجه الكاتب المشار إليه فى هذا صدر المقال .

ويقال إن حمدان كان عضوا فى جمعية سياسية تتكون من الطبقة المثقفة ، وتنادى بإقامة حكومة حديثة حرة فى الجزائر، على أن ترتبط ارتباطاً ما بفرنسا، مقابل إخلاء البلاد(١). على أن الثقافة السائدة بين الجزائريين فى عهد الغزو كانت الثقافة العربية الاسلامية التى لم تتغير معالمها منذ العصور الوسطى، ولاشك أن هذه الطبقة من الجزائريين هى التى كانت تخرج علماء الدين والقضاة ، لكن لم يفسح المجال أمامها لولاية مناصب إدارية هامة، بل كان معظم تلك الطبقة يشتغل بالتجارة . وكثيراً مارحب الجزائريون بتزويج بناتهم من العثمانيين ، لكى يحتموا بهم فى وقت الاضطرابات السياسية ، لكن رؤساء الجند العثمانيين اعتادوا أن يحذروا الوافدين من الزواج أصلا، لأن ذلك يفقدهم كثيراً من الامتيازات، وخاصة التهاون فى الحملات البحرية .

لم يستوطن الجزائر من الطوائف غير الإسلامية سوى اليهود، وهم ينقسمون إلى قسمين : أولا اليهود القدامى الذين ينحدرون من قبائل بربرية، وهؤلاء اعتنقوا الموسوية فى العهود القديمة ، وثانيا اليهود الذين بدأوا يفدون على الجزائر من الأندلس ، نتيجة ضطهاد الحكومة الإسبانية لهم. ثم جاء إلى الجزائر بعض اليهود الذين يقطنون مدن البحر الأبيض المتوسط ، ولاسيما مدينة ليفورن الإيطالية، وذلك سعيا وراء الأعمال التجارية المربحة. ويختلف النوع الأول اختلافاً بيناً عن النوع الثانى، فهو يعيش على نفس طريقة الوطنيين، ويتكلم لغة عبرية مختلطة بالعربية ، ويعيش فى حى خاص تحت ظروف مادية سيئة . أما اليهود الوافدون فكانوا يتكلمون معظم لغات البحر الأبيض المتوسط ، وكثير منهم حصل على ثراء كبير، إلا أنهم كانوا يخفون هذا الثراء، فتبدو منازلهم من الخارج متواضعة . وكان أفضل مورد للكسب بالنسبة لليهود جميعاً ، هو شراء الغنائم البحرية ، وإعادة بيعها فى الأسواق الأوربية، أو التوسط فى عمليات افتداء الأسرى .

وفى نهاية القرن الثامن عشر اكتسبت أسرتان يهوديتان نفوذاً اقتصادياً هائلا فى الجزائر، نتيجة الوساطة بينها وبين فرنسا فى تجارة الحبوب ، وهاتان

(١) نشر أوجيرون نص خطاب وجهه أحد أعيان الجزائر إلى الحاكم برتزين سنة ١٨٣٢، وهذا الخطاب باق ضوءاً على مدى الوعى السياسى فى الجزائر فى ذلك الوقت .

الأسرتان هما أسرة بكرى و أسرة بوزيناش. وكان التجار اليهود يبيعون منتجات الجزائر فى أوربا بأربعة أضعافها تقريبا ، كما كانوا يستغلون فرصة الجهل، ويبيعون مستحدثات الصناعة الأوربية إلى أعيان الجزائريين بأسعار خيالية . فيروى أن أحدهم باع جوهرة لباى قسنطينة بثلاثة ملايين من القروش، مع أن ثمنها الفعلى ثلاثون ألفاً . وبالإضافة إلى ذلك عرض التجار اليهود على الدايات أن يستثمروا لهم رؤوس أموالهم ، ولذا اكتسبوا لديهم نفوذاً كبيراً، وخاصة فى عهد الداى مصطفى (١٧٩٨ — ١٨٠٥) . ولما كان اليهود هم الذين توسطوا فى عمليات بيع القمح إلى فرنسا إبان عهد الثورة الفرنسية ، كان طبيعياً أن يحملهم الأهالى مسئولية المجاعة التى حلت بالبلاد سنة ١٨٠٥ . وفى ذلك العام قتل أحد الجنود العثمانيين ناتالى بوزيناش، وهو يهتف بحياة ملك الجزائر . وبعد ذلك الحادث أخذ الماليون اليهود يغادرون البلاد، أما الفقراء منهم فازدادت أحوالهم سوءا . وكان يهود ليفورن يتمتعون أحياناً بحماية القنصل الفرنسى ، أما الغالبية فكانت تخضع لحكومة النيابة التى فرضت عليهم قيوداً فى بناء المساكن ، وفى الزى وفى التجوال فى الشوارع ليلا . ومع ذلك كانت نسبتهم السكانية كبيرة فى العاصمة، إذ قدروا بنحو خمسة آلاف فى أوائل القرن التاسع عشر. ويرأس الطائفة شخص واحد يدعى المقدم، ويتولى جمع الضرائب وتقديمها للحكومة ، أما فى شئون الأحوال الشخصية ، فكان اليهود يتمتعون باستقلال قضائى تحت إشراف الربانة .

كانت هذه الطوائف الجزائرية التى تحدثنا عنها وهى أهل المدينة الوطنيون من المور والعثمانيين والقولوغلان واليهود ، هى العناصر الأساسية التى تمتلك مساكن أو أحياء خاصة تستقر فيها .

أما الطوائف الأخرى فتعتبر وافدة، وتسكن إما فى الفنادق أو خارج أسوار المدينة. ومن هذه الطوائف الميزابيون، وهم سكان واحات الميزاب الواقعة فى الصحراء الكبرى، ويشتهرون باعتناق المذهب الإباضى، ويعتبرون من أنشط أهل الجزائر فى الأعمال التجارية. لذا تردد الميزابيون على العاصمة، لينقلوا إليها منتجات أفريقيا الاستوائية ، ويتبادلوها هناك مع مايجدونه من أدوات الحضارة الحديثة، ثم يعودون بها لتوزيعها فى أفريقيا الوسطى .

ومنحتهم حكومة النيابة احتكار بعض الحرف ، كالجزارة وإنشاء

الحمامات، وتخصص أهل بسكره فى حرفة الحمالين، بينما اشتهر الوافدون من بلاد القبايل بتجارة زيت الزيتون الذى يذبت شجرة فى بلادهم .

ولكى نستكمل الصورة عن أنواع السكان، لابد وأن نشير إلى الأسرى المسيحيين الذين تردد ذكرهم فى هذا المقال، فقد وصل عددهم حسب تقرير الرحالة فى القرن السادس عشر إلى ثلاثين ألفاً ، وهى نسبة عالية إذا قيست بمجموع سكان العاصمة . لكن يجدر بنا قبل التحدث عن هذه الطبقة أن ننوه بموضوع هام ، وهو وجود أعداد هائلة من المغاربة أسرى فى المدن الأوربية ، حتى إن ليفون صارت سوقاً لبيع أسرى المسلمين ، ومركزاً للمساومة على افتدائهم . لكن أولئك الأسرى المغاربة لم يجدوا الأدباء والكتاب الذين يتحدثون عنهم طويلاً ، ويصورون حياة البؤس التى كانوا يعيشونها فى المراكب الأوربية، إذ كانوا يسخرون فى الغالب لأعمال التجديف، ومع ذلك فإننا لم نعدم تماماً الوثائق الجزائرية التى تشير إلى محاولات حكومة النيابة لافتداء هؤلاء الأسرى .

ونشر أحد المستشرقين الإسبان رسائل متبادلة بين حكومة الجزائر ومدريد ، بشأن افتداء رئيس من أهم رؤساء البحرية الجزائرية كان أسيراً بجزيرة مينورقة سنة ١٦٩١ ، واسمه بيبى . ويلاحظ أن كثيراً من المعاهدات التى عقدتها حكومة النيابة مع الدول الأوربية احتوت على بند خاص بتخليص الأسرى، بل إن المادة الأولى من المعاهدة الفرنسية الجزائرية سنه ١٦٢٨ كانت مخصصه لهذا الموضوع . وتكشف لنا سجلات الأوقاف عن كثير من الاتقياء كانوا يعتبرون أن من أهم أعمال البر التى تستحق تخصيص الحبوس من أجلها افتداء أسرى المسلمين المغاربة فى أوربا . غير أن الجزائر افتقدت شاعراً مشهوراً مثل سرفانتيز الإسبانى الذى أعطى لحياة الأسر فى الجزائر الصورة المؤلمة التى رسخت فى أذهان الأوربيين ، وذلك لأن الحظ شاء له أن يقضى بعض الوقت فى سجون النيابة، ولاشك أن الصورة التى أعطاها سرفانتيز أو غيره من الرحالة، أو ممثلى الطوائف الدينية التى تخصص بعضها فى مسألة افتكاك الأسرى، كانت تنطوى على كثير من المبالغة والدعاية ، استدراراً لعطف المحسنين، وأهم من ذلك جيوبهم [illegible]

على أن التاريخ حفظ لنا بعض الشهادات الأخرى الأقرب إلى تصوير الواقع ، وهى واردة أيضاً عن مصادر أوربية . فيذكر القنصل الأمريكى شالر الذى عاش فى الجزائر أوائل القرن التاسع عشر، أنه كان يرى الأسرى وهم يتجولون بحرية فى أزقة المدينة، وخاصة عند حى الميناء بعد الظهر أى ساعة العودة من العمل، وكثيراً ما كان هذا العمل فرصة للأسير لكى يكسب فديته بيده ، ويستطيع بعد دفعها أن يعود إلى بلاده . كذلك كانت عقيدة الأسرى موضع احترام كامل وأقيم هيكل مسجد داخل السجن لكى يتمكن الأسرى من تأدية الصلاة ، كما كان يسمح للرهبان بأن يتصلوا بهم كيفما شاءوا . بل إن حكومة النيابة اعتبرت يوم الأحد عطلة بالنسبة لهم، وهذا يؤكد لنا أن حالات اعتناق الإسلام التى ترددت بين الأسرى لم يكن الدافع إليها الاضطهاد ، بل الرغبة فى الوصول إلى مركز مرموق فى الجزائر كما أشرنا من قبل .

وفى عهد قوة النيابة كان الأسرى المسيحيون ينتمون إلى مختلف الجنسيات الأوربية، أما فى القرن الثامن عشر فقد صارت أغلبيتهم من الإسبان ، لأن كلا من بريطانيا وفرنسا ارتبط بمعاهدات صداقة مع الجزائر ، بينما كانت أسبانيا من أكثر الدول عداءاً للنيابة لاحتلالها ميناء وهران، ولأنها رفضت أن تدخل فى معاهدة لتنظيم التمثيل القنصلى قبل سنة ١٨٠٢ . وبعد هذا التاريخ صارت غالبية الأسرى فى أوائل القرن التاسع عشر من نابلى ، وغيرها من الدويلات الإيطالية ، ومن ثم يتضح لنا أن عملية الأسر لم تكن نتيجة قرصنة فردية ، بل كانت تتبع حالات الحرب أو الصلح بين النيابة ومختلف الدول الأوربية .

وفى سنة ١٨١٦ هاجم أسطول إنجليزى هولندى مشترك مدينة الجزائر، وأجبر الداى على إطلاق صراح الأسرى الموجودين لديه . ولاحظ القائد البريطانى للأسطول أنه لم يكن بين الأسرى إنجليزى أو فرنسى واحد ، ومع ذلك تدخل القائد، لكى يحصل على تعهد بالإقلاع عن عادة استرقاق الأسرى الميسحيين ، أو المطالبة بفدية عنهم . وقد نشر أحد الباحثين (١) الفرنسيين مقتطفات من سجلات

---

(١) انظر ديفو (Devoulx) فى مجلة (Revue Africaine, 1865)

الغنائم التى ترجع إلى القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ،وهى تدل على أن حكومة النيابة كانت تسعى للتعرف على شخصيات الأسرى ،لتقدير فديتهم حسب مكانة الأسير فى المجتمع وهى تتراوح ما بين ٧٠ و ١٠٠ ريال ، وإذا كان الأسير ماهراً فى حرفة وخاصة صناعة السفن أو هندسة المدافع ، أو كان من عمال البناء ، حرصت النيابة على إستبقائه أطول مدة ممكنة .

ومن المؤكد أن الجزائر كانت تجد صعوبة فى افتـداء أسراها . وكثيراً ما أخفت الحكومة الفرنسية الأسرى الجزائريين لديها حتى لا تتعطل سفنها باعتراف كولبير وزير البحرية فى عهد لويس الرابع عشر . وحينما استولى نابليون على جزيرة مالطه،ووجد بها ٢٠٠٠ من الأسرى المسلمين، أرسل خطاباً إلى الداى يخبره بأنه لم يجد من بينهم أحداً من رعايا النيابة.ومن الصعب تصور صدق هذه الرواية . لأن أكثر الأقطار الإسلامية إصطداماً بفرسان مالطه كانت هى نيابة الجزائر .

وصف العاصمة الجزائرية كان الميناء المنيع الذى بناه خير الدين أصل عظمة مدينة الجزائر وتحولها إلى عاصمة للمغرب الأوسط،وترجع تلك المناعة إلى الموقع الطبيعى، وإلى العمل الهندسى الرائع الذى تفتق عنه ذهن البحار العثمانى الشهير، فإن الجزائر القديمة كانت تقع فى مواجهة جزيرة صخرية كان يحتلها الإسبان، وقد أقاموا فوقها حصناً . وفى سنة ١٥٢٩ إنتزع خير الدين هذا الحصن من الإسبان واستخدم المواد التى تخلفت عن تحطيمه هذا الرصيف لإقامة رصيف ضخم يصل بين الجزيرة الصخرية والساحل ، وأصبح بمثابة حاجز أمامى مداخل الميناء . وتبارى حكام الجزائر بعد ذلك فى توسيع الرصيف وبنوا له الأبراج العاليه التى أقيمت فوقها المدافع .

وفى أثناء السنوات التى ندرسها كان الداخل إلى المدينة الجزائرية يشاهد المحلات التجارية فوق هذا الرصيف ، مما يدل على أن مدينة الجزائر كانت احدى المدن التجارية فى حوض المتوسط،وليست وكر قرصنة، كما يصورها الأوربيون. وكان يمثل الحكومة فى الميناء الخوجه ، وهو يحصل الرسوم عن البضائع وعن السفن أيضا . واختلفت هذه الرسوم حسب جنسية التجار، فالأوربيون الذين

ينتمون إلى دول لها معاهدات تجارية مع الجزائر يدفعون ٥ ./. عن قيمة البضائع الواردة إلى البلاد ، والمواطنون الجزائريون يدفعون ١٠ ./. ، أما اليهود فيحصل منهم ١٢ ./. . وتدفع السفينة المتوسطة الحجم مقابل الرسو فى الميناء مبلغ ١٣٨ فرنكا جديدا أى ١٣ جنيها مصريا تقريباً .

ويدخل المسافر إلى مدينة الجزائر عن طريق باب الجزيرة الذى يسمى أيضاً باب الجهاد ، واختارت حكومة النيابة هذا الموقع لتضع فيه بعض الآثار الدالة على أمجادها الحربية ، فكان معلقاً على سور المدينه عند هـــذا الباب علماً لفرسان مالطه ، غنمه الجزائريون فى الحروب البحرية ، وعلى الجانب الآخر أجراس كنيسة الوهران التى استردتها حكومة النيابة من الاسبان سنة ١٧٠٨ .

ومثل كثير من المدن الساحلية بنيت مدينة الجزائر على شكل مدرج ، فالقسم الذى يقع حول الميناء يسمى بالحى الأدنى ويقع فيه قصر الجنينه مقر الداى ثم حى القصبة حيث توجد القلعة القديمه ، ويسكنه رؤساء البحر أو أصحاب المراكب الذين يعرفون أيضاً بأهل الطائفة . ويقال إن بعض هؤلاء أقاموا السراديب التى تصل ما بين بيوتهم وبين الميناء ، لتسهل لهم الهرب فى حالة اختلافهم مع الداى .

واشتمل الحى الأدنى السوق على الكبير ، والحى اليهودى ، والفنادق التى يسكنها الأجانب وبعض الطوائف الجزائرية الأخرى التى تأتى من خارج العاصمة .

أما الجزء الأعلى من المدينة فيضم فى الغالب مساكن الموسرين ، سواء من العثمانيين أم من التجار الوطنيين . وكانت معظم شوارع المدينة ضيقة ومنحدرة نحو البحر ، وهذا الانحدار يسهل وسائل تصريف المياه والقاذورات ، ولكنه يتطلب أحيانا إقامة درج ، مما يجعل وسائل للنقل بالعربات مستحيلة . ومع أن العربة كانت معروفة جيداً ، فإنها لم تستخدم كثيراً فى النقل ، سواء داخل العاصمة أو بين مدن النيابة المختلفة ، لأن الطرق كانت غير معبدة ، ولذلك فإن وسيلة النقل الشائعة هى الإنسان أو الحيوان .

وقدرت منازل العاصمة بنحو ثمانية آلاف ، ويبدو أن هذا التقدير ينطبق على أيام ازدهارها ، لأنه يدل على زيادة كبيرة فى عدد المساكن ، لو أن سكان العاصمة لم يزيدوا فعلا عن ثلاثين ألفاً قبيل الغزو . ومعظم البيوت موقوفة ، وأهم الأوقاف هى المخصصة للحجاج المغاربة ولفقراء الحرمين . ولما لم تكن هناك اسماء للحارات، مع عدم وجود أرقام للمنازل، فإن حجج الوقف كانت تحتوى على أوصاف تفصيلية للموقع حتى تعرف بالعقار الموقوف .

أما الأحياء السكنية فتحمل اسماء خاصة، وبعضها مستمد من الحرفة الشائعة فى الحى، أو من اسماء أبواب المدينة، وأشهرها باب الواد، وباب عزون . وتفصل بين هذه الأحياء جدران لها أبواب، يقف عليها حراس، ولا يسمح لأحد باجتياز تلك الأبواب ليلا إلا إذا كان يحمل قنديلا، وكمعظم المدن الإسلامية فى ذلك الوقت كان عدد المساجد فى العاصمة يزيد عن حاجة السكان، فاشتملت المدينة على ١٣ جامعاً كبيراً، أشهرها جامع عبد الرحمن الثعالبي ، وهو شفيع المدينة . وكانت مدينة الجزائر محاطة بسورين يفصلهما خندق ، وهناك بابان رئيسيان للخروج منها إلى الأقاليم، وهما باب الواد وباب عزون. وكان الباب الثانى هو بداية الطريق السلطانى الذى يؤدى إلى قسنطينه وإلى مدية. وعند هذا الباب كانت تنفذ أحكام الإعدام، كما أن أهم الضواحى تقع خلف باب عزون ، وفى تلك الضواحى أنشئت مصانع الطوب والمدابغ وغيرها .

النظام الإدارى

منذ سنة ١٦٧١، وإلى أيام الاحتلال الفرنسى، كان يطلق على حاكم النيابة العثمانية اسم الداى . وهذه الكلمة الغريبة على مصطلحات الإدارة العثمانية تثير كثيراً من التساؤل ، فهناك من يقول إنها مشتقة من لهجة الرؤساء البحريين، وإنها تعنى عندهم الخال. وهناك من يقول أنها محرفة عن كلمة داعى، وهى تدل على رئيس المائة فى مصطلح الجيش العثمانى .

وأطلق الأوربيون على حكومة الجزائر أحياناً اسم المملكة، وأحيانا اسم النيابة، وشبهها بعضهم بالجمهورية، لإن الدايات يختارون بواسطة الجند، ولا يتوارثون الحكم، غيرأن هذا التشبيه بعيد عن الواقع، وإذا شئنا اختيار مصطلح حديث لكى نشبه به النظام السائدفي الجزائر فهوالأوليجارشيه، أى حكم الطبقة العسكرية الممتازة

وإذا كان الداى حاكماً مستبداً، نه كان فى نفس الوقت عبداً للحامية العثمانية التى تستطيع أن تطيح به لأتفه الأسباب، كما أن اختيار الدايات كان يأتى فى معظم الأحيان نتيجة الصدفة وبدون تقدير للكفاءة. ومن الأدلة على ذلك أن الداى مصطفى(١٧٩٨–١٨٠٥) نشأ كناسا فى أزمير، والداى على(١٨٠٨–١٨٠٩) كان يعمل مغسلا للموتى. وإذا كان هناك بعض الدايات الذين استتب لهم الأمر أكثر من ٢٠ عاما، فإن معظمهم لم يكن يستقر فى الحكم إلا مدة قصيرة. وفى الجزائر قبر مشهور يعرف باسم السبع دايات، وهو يضم بين جدرانه سبعة من حكام النيابة، قتلوا جميعا بعد يوم واحد من وصولهم إلى منصبهم، وكان يعد سعيداً ذلك الداى الذى يموت على فراشه. ويتم الانقلاب عادة بواسطة مؤامرة تدبرها فرقة أو أكثر من فرق الحامية، وتقع فى الغالب بسبب تأخير فى المرتبات أو المطالبة بزيادتها. ويعبر المتآمرون عن الانقلاب برفع العلم الأحمر على قصر الجنينة، ويكون ذلك مؤذناً للجند بأن ينزلوا إلى شوارع المدينة، ويفعلوا ما يشاءون، وهنا تكون الفرصة لأعمال السلب والنهب ولذلك يسارع التجار بإقفال محلاتهم.

ولا يشترط أن يتولى قائد الانقلاب منصب الداى، وكثيراً ما رفض الضباط هذا المنصب خوفاً من النهاية التى تنتظر الدايات. لذلك حدث أن أجبر بعض الدايات بالقوة على قبول رئاسة الحكومة. وحينما يستولى المتآمرون على القصر، فلا بد أن تنتهى حياة الداى السابق، ويفضل العثمانيون أن يقتل الداى نفسه بيده، فيشيرون إليه بشرب السم، وحينما يتم تنصيب الداى الجديد يعود العلم الأخضر إلى الارتفاع فوق قصر الجنينة.

ويساعد الداى مجلس يشبه من بعيد مجلس الوزراء، ويسمى الديوان، وهو يتألف من ٥ وزراء، ويسميهم القناصل الأوربيون القوى، Les Puissances، وهم (١) المخزنجى المكلف بحراسة أموال الحكومة

ويسجل الداخل والخارج منها يومياً، ويسلم مفاتيح الخزنة عند الظهر فى كل يوم للداى ، فيحفظها عنده حتى صباح اليوم التالى .

(٢) البيت مالجى ، وهو الموكل بصيانة الأوقاف وأموال اليتامى الذين يشرف عليهم أوصياء ، فضلا عن أموال الذين ماتوا دون وريث .

(٣) وكيل الخيل، ويختص برعاية أملاك الدولة من الأراضى الزراعية، وذلك بجانب عمله الأصلى، وهو صيانة الخيول اللازمة لقوة الفرسان.

(٤) أغا العرب ، وهو الذى يشرف على شئون قبائل المخزن أى القبائل المتعاونة مع الحكومة، ويعتبر فى نفس الوقت هو المسئول عن الحاميات المرابطة فى الأقاليم .

(٥) وكيل الخرج، وكان مسئولا عن العلاقات الخارجية، وعن الشئون البحرية . وكان الجمع بين الخارجية والبحرية أمراً شائعاً أيضا فى أوربا حينذاك ، فمثلا كان كولبير يتولى هاتين الوزارتين فى عهد لويس الرابع عشر .

ويتضح مما سبق أن ثلاثة أو أربعة من الوزارات كانت تختص بالشئون المالية ، ولا غرو فإن مهمة الحكومة الرئيسية كانت جمع المال، سواء بطرق مشروعة أم غير مشروعة ، ومن ذلك أن أغا العرب كان يشتغل أيضاً بجمع الضرائب، لأن عمل قبائل المخزن هى تحصيل الضرائب من القبائل الأخرى .

وكان الديوان بمثابة هيئة تنفيذية تجتمع يومياً ، وعرفت مدينة الجزائر نوعين آخرين من الدواوين ، أحدهما مجلس أهل الطائفة (رؤساء البحر)، والآخر المجلس الكبير الذى يعد بمثابة هيئة استشارية تمثل الإدارة والأهالى معاً ، ويضم هذا المجلس عدداً من البلكباشيه ضباط الحامية ، وأربعة من الخوجات الكتبة، ومفتى الحنفية، ومفتى المالكية، وممثلين عن أهل الطائفة .

كانت اللغة الإدارية هى التركية ، مع استخدام اللغة العربية فى بعض الأوامر خلال السنوات الأخيرة من عهد النيابة ، لكن اللغة التركية بصفة عامة كانت أكثر شيوعاً لدى حكومة الجزائر منها فى تونس . أما فيما يتعلق بالقضاء والحبوس، فإن اللغة العربية كانت دائماً هى السائدة، وانتشرت

بين التجار والبحارة لغة مختلطة من العربية والإسبانية والفرنسية والإيطالية ، وكانت هذه اللغة معروفة لدى كثيرين من سكان موانى البحر الأبيض المتوسط.

ومن الطريف أن غرفة مرسيليا التجارية وضعت قاموساً لتلك اللغة، ومنه يتبين أن الإسبانية كانت هى اللغة الغالبة فيها .

الحامية : كانت الحامية العثمانية قليلة العدد ، تتراوح بين ٤ و ٦ آلاف، ويتركز معظمها فى العاصمة . أما معظم الحاميات فى الأقاليم فتتكون من القولوغلان ، ونحن ندهش أمام استطاعة هذه الحامية الصغيرة أن تسيطر على البلاد ثلاثة قرون كاملة .

وأصغر وحدات الحامية هى الأوجاق، وهى التى ينام أفرادها فى عنبر واحد ويتبع كل عنبر اثنان من الخدم وطباخ وانتشر استعمال تعبير أوجاق فصار يشمل الجيش العثمانى كله بالجزائر، ويرأس الحامية شخص يعرف بأغا الانكشارية، وقد روعى نظام الأقدمية المطلقة فى هذا المنصب ، فيتولاه أقدم البلكياشيه لمدة شهرين ، ولذلك كان يعرف أحياناً بذى القمرين ،ثم يحال إلى الاستيداع ليفسح المجال لمن يليه .

ولذلك كان معظم البلكياشيه يصل إلى منصب أغا الانكشارية . وعند وصول الفرنسيين إلى البلاد لوحظ وجود ثمان معسكرات تركية بالعاصمة ولكن الجزائر كانت قد تأثرت بإجراءات السلطان محمود ضد الانكشارية ، فدخلت إلى الجيش عناصر أخرى غير تركية .

وكانت العناصر التى تتكون منها الانكشارية فى الجزائر تنتمى إلى الأناضول وإلى ألبانيا أو كريت ، ولذا أصبح من المتوقع حدوث تنافس بين هذه العناصر ، مع أنها كانت جميعاً تشعر بالتضامن أمام العنصر الوطنى أو القولوغلان .

وعند وصول الجندى العثمانى إلى البلاد كان رؤساؤه من الاوداباشية ينصحونه بعدم الزواج،لأن ذلك يربط مصالح الطبقة العسكرية الممتازة بمجموع الأهالى من المور ، وأثبتت التجربة فعلا أن العثمانيين المتزوجين من الأهالى يتدخلون عادة لحمايتهم ، وشاءت الصدفة أن يرتفع أحد هؤلاء العثمانيين إلى

منصب الداى ، وهو الداى عمر (١٨١٥ و١٨١٦) ، وهو الذى سبق له أن توسط لمنع نهب المدينة فى احدى الانقلابات، واستطاع بعد مساومات أن يتفق مع زعماء الانقلاب على تحديد الأماكن التى يجوز فيها النهب ..

بدأ الداى عمر سلسلة من الإصلاحات فى نظام الجندية والمالية، غير أن عهده اقترن بكوارث حدثت رغم إرادته، وهى الحملة الأمريكيه على الجزائر سنه ١٨١٥ ثم البريطانية فى العام التالى وهما الحملتان اللتان نالتا كثيراً من قوة النيابة. ولذا يقدر أحد قيمة إصلاحات هذا الداى، غير أنه رسم الطريق لخلفائه كى يكملوا العمل الذى بدأه. وفى سبيل ذلك عمد على خوجه (١٨١٧—١٨١٨) إلى التخلص من سيطرة الانكشارية، فنقل مقره من قصر الجنينه إلى القصبة، وقمع ثورة الجند بشدة، وقتل ١٥٠٠ من الإنكشارية ، وشرع فى استخدام القولوغلان والقبايل لكى يوازن بها طائفة الإنكشارية المتمرده ، غير أن الموت عاجله فى الوباء الذى اجتاح البلاد سنه ١٨١٨ ، ولا شك أنه هو الذى مهد السبيل لحسين داى أن يستقر فى الحكم بعد ذلك مدة اثنى عشر عاماً (١٨١٨ — ١٨٣٠) .

واعتمد حسين داى اعتماداً متزايداً على العنصر الوطنى ، وبلغ عدد القبايل فى جيش النيابة النظامى سنه ١٨٣٠ ألفين ، كانوا يختارون عادة من قبيلة زواوة ، وصار ذلك الاسم علماً على الجند حتى إن الفرنسيين حينما تابعوا مبدأ استخدام الوطنيين فى جيشهم أطلقوا عليهم إسم الزواف وربما لو أمتد العهد بالنيابة لتكونت أسرة حاكمة تذوب فى المجتمع الجزائرى، كما حدث بالنسبة للأسرة الحسينية فى تونس .

كانت الإنكشارية تشكل عبئاً مالياً ضخماً ، إذ أن الحكومة كانت مضطرة إلى دفع المرتبات الكثيرة حتى إلى الذين تركوا منهم الخدمة بحكم السن، وقلما اشتغلت الجالية العثمانية، بالأعمال التجارية لتنصرف بذلك عن المعيشة على المرتبات. هذا بالإضافة إلى نفقات نقل الجند من مواطنهم الأصلية. عرفت النيابة صناعة

ضب المدافع ، ومع ذلك فإن الجيش العثمانى هناك لم يكن ذا تأثير فعال، وربما كان الذى ينقصه هو القدرة على المناورة فى القتال، ولذا ظل عاجزاً مثلا أمام قلعة كاف التونسية (١٨٠٦— ١٨٠٩). مع أنه كان يشكل العبء المالى الأكبر للحكومة، ويضطرها إلى مضاعفة الضرائب، كما سنرى .

كان الداى يدير شئون العاصمة وسهل المتيجة ، فضلا عن الشريط الساحلى الذى يمتد أحياناً إلي بلاد القبايل الصغرى شرقاً. أما بقية النيابة فكانت ثلاثة أقاليم أو باكويات ، وهى قسنطينه فى الشرق، وتليها فى الأهمية وهران فى الغرب وكانت عاصمة هذا الإقليم مدينة معسكر ، ثم إنتقلت إلي ميناء وهران بعد استرداده من الاسبان نهائياً سنة ١٧٩٠ . أما الإقليم الثالث فهو أصغرها، ويقع فى الوسط ويسمى بباكوية تيطرى وكانت عاصمته مليانه أحياناً قليلة ، ومدية فى معظم الأحيان .

وتأثر وضع البايات حكام الأقاليم باستقرار الأحوال أو اضطرابها فى العاصمة ، وهم يعتمدون فى ممارسة سلطتهم على جهاز صغير من الكتبة وجباة الضرائب الذين يعرفون بالخوجات . وكانت الحكومة تجرى امتحانات للذين يرغبون فى تولى وظيفة الخوجة، فيعين الناجح فى العاصمة، ويرسل الراسبون إلى الأقاليم ، ولكن كما هو شائع فى هذا الوقت كانت الرشوة تلعب دورها بجانب الكفاءة، سواء للتعيين أم لاختيار المكان الذى يرسل إليه الخوجه .

وكان تحصيل الضرائب فى الغالب يتطلب إرسال حملات تأديبية عرفت فى المغرب العربى كله باسم الحملات وتألف الجيش الذى يتبع البك فى الأصل من القولوغلان ، ولكن لما كانت هذه الحملات فرصة للنهب والسلب ، فقد كان المتطوعون من الوطنيين يسارعون إلي الالتحاق بهذه المحلات ، وتدخل المنازعات القبلية طرفاً فيها. وفى الجزائر كانت القبائل تنقسم إلى صفوف ، أى إلى أقسام متخاصمة داخل القبيلة ، وهكذا كانت الحملة تتضخم بأعداد هائلة من الصفوف ، حتى بلغت بإقليم تطرى ١٣ ألف رجل ، بجانب ألفين فقط من الإنكشارية .

وكانت الحملات تترك وراءها الخراب والدمار ، وتعود فى الغالب بغنائم

هائلة تبلغ عشرات الألوف من الأغنام والأبقار والعجول، حتى أن النظام الاجتماعى لبعض القبائل كاد ينهار نتيجة تعرضه لهذه الحملات التى أفقدت هذه القبائل ثروتها .

وبعد أن تقسيم جزء من هذه الغنائم على جميع المشتركين فى الحملة، يجمع الباقى لكى يرسل إلى العاصمة .

ومن المفروض أن يقدم الباى بنفسه المبلغ المقرر عليه للنيابة ، ولكنه كان يفضل فى الغالب إرسال مندوب عنه حتى لا يتعرض للإهانة، أو القتل أحيانا إذا لم تكن الاموال التى يحملها كافية وجرت العادة أن ترسل الأقاليم أموال الميرى المقرر عليها مرتين فى السنة، إحداها فى فصل الشتاء ،والأخرى فى فصل الصيف ويكون وصول الأموال إلى العاصمة سببا مناسباً لإقامة الاحتفالات .

لم يكن الباكوات يمارسون سلطة مباشرة خارج المدن ، واقتصر مظهر وجود الحكومة على الحملات التأديبية . لذا فإن الوحدة الإدارية الهامة بالنسبة للوطنيين كانت هى القبيلة ، وهى تنقسم إلى أربعة أنواع من حيث علاقتها بحكومة النيابة. أولا قبائل مخزن، وهى التى تضع نفسها تحت تصرف الحكومة ، فتساعدها فى جمع الضرائب من القبائل الاخرى ، وأخذت هذه التسمية عن اسم الحكومة عامة فى المغرب الاقصى ، ويقيم عند تلك القبائل أحيانا شخص من العثمانيين أو القولوغلان، وهو يمثل الحكومة، ويعرف بالقائد. ثانيا القبائل المستقلة تماما وهى تنتشر فى الجنوب. ثالثا قبائل الرعية وهى التى تلزم من حين لآخر، سواء بالقوة أم بالخوف على دفع ضرائب منتظمة وغير منتظمة ، وهى فى الغالب ضرائب عينية . رابعا القبائل التى استقرت فى أملاك الدولة القريبة من الساحل، وهى تشتغل عادة بزراعة الارض لحساب الدولة، أو لحساب بعض الأفراد من الملاك . ولم تكن القبيلة تستقر طويلا على وضع من هذه الأوضاع ، وكثيراً ما تنتقل من نوع إلى آخر من الأنواع الأربعة المذكورة حسب الأحوال المتغيرة .

الأحوال الاقتصادية

يتبين مما سبق أن مهمة الدولة فى ذلك الوقت اقتصرت على جباية الضرائب، وهذه النقيصة ليست من خصائص الحكم العثمانى وحده ، بل إنها أمر شائع

فى ذلك العهد . ولما لم تكن الدولة حينذاك ترى نفسها ملزمة بتأدية الخدمات العامة، فإن الكتاب سواء فى عصرنا الحاضر، أم فى العصر الذى ندرسه ، لابد أن ينظروا نظرة سيئة إلى تصرفات الحكومة. حينما تزيد من الضرائب ، أو تتدخل فى توجيه الحياة الاقتصادية بصفة عامة .

وثمة نقيصة أخرى اقترنت بالحكم العثمانى فيما يتعلق بنظام الضرائب النظام الذى نفضل تسميته بالاستغلال المالى ، إذ أن الدولة لم تكن تكتفى بضرائب محددة ، بل كانت تلجأ فى كثير من الأحيان إلى جباية الأموال عن طريق العنف، وتحت ستار أعذار تبدو غريبة فى عصرنا الحاضر ، كحق الحامية فى أن تجمع من المزارعين ضريبة ضيافة إذا نزلت فى قرية ما ، مع العلم بأن هذه الوسائل الغريبة كانت شائعة فى أوربا قبل عهد الثورة الفرنسية .

والضرائب الثابتة هى التى يقرها الشرع الإسلامى أو العرف السائد فى ذلك الوقت، وهى تتمثل فى ضرائب العشور على المنتجات الزراعية ، وتختلف من ٥ إلى ١٠ ./. حسب نظام الرى السائد ، فالأرض التى تروى بالأمطار وبدون مشقة تدفع نسبة أكبر. وحدد الشرع مقادير الزكاة على الثروة الحيوانية . غير أن المشكلة كانت كيفية حساب تلك الضرائب ووسائل جبايتها، وكان يزيد تلك المشكلة تعقيدا إضطراب نظام الملكية الزراعية. وعرفت بلاد الجزائر عدة أنواع من الملكية، وهى الوقف، وأملاك الدولة، والملكية الفردية الخاصة التى كانت موجودة حول المدن فقط، وكان للعثمانيين ملكيات عديدة فى سهل المتيجة تعرف بالحيشان، وتزرع فى الغالب بالفواكه والخضر، لكفاية حاجة العاصمة . وأكثر أنواع الملكية انتشاراً كان تعرف بالعرش ، وهى أن تنزل قبيلة أو عشيرة فى مكان وتستقر به، فيملكه جميع أفراد العشيرة ملكية جماعية. ولم يعترف الفرنسيون بهذا النوع من الملكية ، وقالوا أنه حق إنتفاع حصلت عليه القبائل من الدولة. وكان ذلك تبريراً منهم لمصادرة أملاك العرش لحساب الاستعمار . وبالنسبة لأملاك الدولة والأفراد كان المزارع يحصل على خمس المحصول نتيجة عمله، وأحيانا يترك المالك له جزءا من الأرض يزرعه لحسابه . مقابل عمله فى بقية الأرض المعروفة حينذاك باسم العزبة . وكان أبناء القبائل

يكرهون نظام المزارعة هذا ، ففضلت غالبيتهم حياة المرعى . ولعل ذلك من أسباب انخفاض الإنتاج الزراعى فى العهد الذى ندرسه حتى أن حمدان خوجة وصف سهل المتيجة بأنه أرض مستنقعات ، مع أنه سهل صالح للزراعة . وربما عمد حمدان خوجة إلى ذلك ليصرف الفرنسيين عن الطمع فى إمتلاك هذا الإقليم ، بعد أن صار بفضل استغلاله بالوسائل الحديثة من أخصب أراضى الجزائر .

وربما كانت الضريبة الجمركية أكثر الضرائب انتظاما فى عهد النيابة العثمانية ، وسبق أن أشرنا إلى النسب المحددة على البضائع المستوردة والتى تختلف باختلاف جنسية التجار .

وعرفت الجزائر كثيراً من الضرائب الإضافية التى تحملها المزارعون أو الرعاة ، كلما وصلت إليهم سلطة الحكومة . وسبق أن أشرنا إلى ضريبة الضيافة التى يدفعها أهل القرية حينما يمر بهم موظف أو جندى من الجيش الرسمى ، كذلك كان يفرض على المالك الذى يستخدم أكثر من بقرة لحرث أرضه ضريبة إضافية تعرف بالزويجة ، ولعلها مشتقة من كلمة زوج بقر . وعرفت الجزائر ضريبة الرؤوس ، ولو فى نطاق محدود ، وكانت تسمى هناك باللازمة وحينما تستنفد الحكومة أنواع الضرائب تلجأ الإدارة إلى ماتسميه صراحة بالغرامة وهى تأخذ عينا فى غالب الأحيان . ولما كان أهل الواحات الفقيرة يعفون من الضرائب ، فإن الحكومة العثمانية لم تشأ أن تتركهم بدون غرامة ، وحددت غرامة الواحات بتقديم عدد من الرقيق الأسود ، وذلك لان الواحات تقع فى طريق التجارة بين أفريقيا وحوض البحر المتوسط . والظاهر أن بعض الدايات أراد من وراء ذلك استخدام الرقيق الأسود بالجيش ، فلما فشلت التجربة رؤى الاستفادة منهم فى خدمة المنازل ، ولذلك أصبح الإقبال على النساء الأفريقيات أكبر ، لتربية الأطفال . وقدر عدد هؤلاء الرقيق فى أوائل القرن التاسع عشر بنحو ألفين فى العاصمة .

ولجأت حكومة النيابة إلى البحث عن موارد أخرى غير الضرائب والغرامات ، فكانت تصادر أحياناً أملاك القبائل ، بحجة أنها عاصية ، وتضمها إلى

أملاك الدولة. ثم عمدت الحكومة إلى احتكار بعض الصناعات المربحة، كاستخراج الملح وبيعه للتجار، ودباغة الجلود.

وفى نهاية عهد النيابة زاد تدخل الحكومة فى الشئون الاقتصادية، فبعد أن كانت تحتكر التجارة الخارجية أصبحت توجه أيضاً التجارة الداخلية، فهى تحدد أسعار البيع للجملة والقطاعى، وتلزم الفلاح ببيع مايفيض عن استهلاكه للحكومة، وبذا صارت الحكومة تمتلك مخازن الحبوب. ولذا كانت قبائل الرعاة تضطر إلى المجىء إلى العاصمة لتشترى تلك الحبوب، فتكون فرصة للداى كى يحصل منها على إعلان الولاء للحكومة.

كذلك كانت العاصمة هى السوق الوحيد لتصريف زيت الزيتون الذى تنتجه بلاد القبايل، ومنها يباع للتجار الأوربيين، أو يوزع على بقية البلاد.

ولحكومة النيابة موارد أخرى لاتستمد من داخل البلاد، مثال ذلك العوائد التى كانت تحصلها من شركات التجارة الأوربية، وفى العصر الذى ندرسه كانت شركة أفريقيا الفرنسية فى عنابه تدفع عوائد سنوية تقدر بمبلغ ١٨٠ ألف فرنك، مقابل السماح لها باستيراد قمح قسنطينه، خلافاً لأوامر الدولة العثمانية التى تقضى بحظر بيع المواد الغذائية للخارج. ولعل أشهر تلك الموارد الخارجية مجموعة الأتاوات التى كانت تدفعها بعض الدول نظير تأمين ملاحتها فى حوض البحر المتوسط. غير أن هذا المورد قلّ منذ القرن الثامن عشر، مابسبب ذكرناه من ضعف البحريه الجزائرية ابتداءاً من ذلك القرن. ولكن يبدو أن كثيراً من الدول عادت إلى نظام دفع الأتاوات فى أوائل القرن التاسع عشر، وذلك حتى تتخفف من أعباء حماية السفن فى المتوسط وفى تلك الحقبة لم تقدم الدولتان الرئيسيتان وقتذاك، وهما انجلترا وفرنسا، شيئا من هذه الأتاوات بصورة صريحة، بل كانت تستعيض عن ذلك بالهدايا التى يقدمها القناصل للداى.

وينسب الكتاب الأوربيون التدهور الاقتصادى الذى أصاب النيابة فى نهاية عهدها إلى انقطاع تلك الإتاوات فجأة، بعد الحملة الأمريكية سنة ١٨١٥، والحملة البريطانية سنة ١٨١٦. وهذا التفسير يمثل جانباً واحداً من الحقيقة، أما الجانب الذى أهمله الباحثون فهو أن نظام الحصار القارى الذى أدى إلى الاعتداء على السفن

التجارية المحايدة بواسطة الطرفين المتحاربين ، إنجلترا وفرنسا ، عرقل نشاط الجزائر التجارى . وكانت الجزائر بدأت تستفيد من الحرب العامة بتصدير منتجاتها بأسعار أفضل ، ولا سيما القمح والكتان اللازم فى صناعة السفن ، غير أن الحرب الاقتصادية التى اتسع نطاقها فى عهد نابليون أضاعت على الجزائر تلك الفرصة .

وسواء رجحنا هذا التفسير أم ذاك ، فإن النيابة عانت قبيل سقوطها اضطرابات اقتصادية لم تعرف من قبل . ويبدو أن الإنتاج الزراعى ضعف أيضاً خلال تلك المدة ، مما جعل الواردات تزيد على الصادرات ، حسب تقرير القنصل الأمريكى شلر ، وهذا فى الوقت الذى كان النقد المعدنى فيه قليلاً بالبلاد . وكانت نتيجة ذلك كله زيادة ارهاق الناس بالضرائب على النحو الذى شرحناه .

ولا شك أن لهذه الأزمة الاقتصادية علاقة بالمعارضة الوطنية التى تلمسها بوضوح فى هذه الحقبة ، وتمثلت المعارضة فى زيادة نشاط الطرق الصوفية التى أصبحت تعبر عن آمال الناس وآلامهم ، وهى حينذاك تشكل بديلا عن الروح الوطنية .

ومن المعروف أن الطرق الصوفية اكتسبت نفوذاً خاصاً فى شمال أفريقيا ، وأتت بعض تلك الطرق من المشرق ، وانتشرت فى الجزائر مثل القادرية . أما الطرق التى تزعمت المعارضة فنشأت فى بلاد المغرب أصلا ، وأهمها طريقتان الدرقاوية التى أوشكت أن تطيح بالحكم العثمانى فى وهران وكانت تتلقى المساعدات من سلاطين المغرب الأقصى حيث الموطن الأصلى لتلك الطريقة ، حتى صار لفظاً درقاوى وعاص مترادفين عند أتراك الجزائر . أما الطريقة الأخرى فهى التيجانية التى انتقل مركزها إلى عين ماضى من واحات الجنوب سنة ١٨١٥ . وبعد عدة اشتباكات مع السلطات العثمانية تعرض التيجانية لهزائم متلاحقة ، اضطرت الطريقة إلى مهادنة تلك السلطات حتى إذا سقطت النيابة لم تحرك ساكناً لمقاومة الغزو الجديد .

البحرية : نتبين من عدة مناسبات وردت فى هذا المقال أهمية الدور الذي قامت به البحرية في حياة الجزائر ، لذلك يجدر بنا أن نخصص لها الفقرة

الأخير الباقية من هذا البحث. ومما لاشك فيه أن الحروب البحرية كانت مصدراً هاما بالنسبة لنيابة الجزائر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وعندما أخذ الأسطول الجزائرى يضعف انتقل الإشراف عليه من رجال الطائفة إلى الداى ورجال حكومته مباشرة، وبذا تأكدت الصفة الرسمية لتلك الحروب، وسارت الجزائر تقريباً على نفس التقاليد الشائعة فى كل من البحرية البريطانية والبحرية الفرنسية خلال حروب الثورة ونابليون، بل إنها كانت أقرب إلى الصفة الرسمية من بحرية مالطه التى كانت من ألد خصوم الجزائر فى حوض البحر المتوسط.

ومن المدهش أن يحتفظ الأسطول الجزائرى بهيبته الدولية حتى أوائل القرن التاسع عشر، رغم تضائله من حيث الحجم والتسلح، إذ قدرت القطع البحرية الكبيرة بخمس فرقاطات، وأربعة زوارق مسلحة. أما معظم الأسطول فكان من المراكب الصغيرة، يحمل كل منها مدفعاً واحداً، ويسمى المدفع الواحد بالشبك. وكان يوجد من هذا النوع من المراكب الصغيرة نحو ٥٠ قطعة، لذا كان مرجع قوة الأسطول الجزائرى فى أوائل القرن التاسع عشر إلى شجاعة البحارة الفائقة. ويرجع الفضل فى تجدد قوة الأسطول أثناء تلك الحقبة إلى رجال من طراز خير الدين وعلى باشا علوج، وحميدو على. غير أن حميدو على يختلف عن سابقيه فى أنه كان مواطناً جزائرياً.

بدأ الرئيس حميدو(١) حياته قائداً لثلاثة شبك كانت تعمل فى البحر لحساب باى وهران، وذاع صيته بعد اشتراكه فى معركة ضد سفن من الأسطول الأمريكى سنة ١٧٩٥، مما جعل الداى يستدعيه إلى العاصمة، ويعهد له بقيادة سفينتين كبيرتين. لكن الحظ شاء له أن يفقدهما، مما جعله يختبىء ثلاث سنوات فى قسنطينه، وفى سنة ١٨٠٠ استدعاه الداى مصطفى من جديد، وسمح له بمواصلة حياة المغامرة فى البحار.

ومال حميدو إلى البطولة وإحراز الأمجاد أكثر من السعى وراء الغنائم،

---

(١) أفرد له ديفو Devoulx ترجمة لهذا الرئيس البحرى. ـ انظر قائمة المصادر.

فتحول عن مهاجمة السفن التجارية إلى مهاجمة السفن الحربية المعادية. ولما لم تكن البرتغال ترتبط بأى نوع من العلاقات مع الجزائر، ركز الرئيس حميدو هجماته على سفنها، وأخذت شهرته تعلو منذ أن استولى على فرقاطة برتغالية تحمل ٤٤ مدفعاً، وضمت هذه الفرقاطة، إلى الأسطول الجزائرى، وسميت باسم البرتغالية.

وسجل حميدو نصراً رائعاً للبحرية الجزائرية يوم أن خرج عن ميدانها التقليدى، وهو حوض المتوسط، فعبر مضيق جبل طارق، وراح يواصل مغامراته فى مياه المحيط الأطلسى. وفى تلك المياه النائية تمكن حميدو سنة ١٨١٢ من الاستيلاء على ثلاث سفن حربية برتغالية. ووجد الداى أن حميدو أهل لتوجيه ضرباته ضد دولة أخرى أعظم، وهى الولايات المتحدة التى امتنعت عن دفع الأتاوة منذ سنة ١٨١١ غير أن حميدو لم يلتق بالأسطول الأمريكى حتى قررت الولايات المتحدة إرسال حملة إلى الجزائر فى سنة ١٨١٥، ففوجىء بها حميدو فى حوض المتوسط، وقتل أثناء اشتباكه معها.

ثم أنزلت حملة إكسماوث البريطانية سنة ١٨١٦ بالأسطول الجزائرى كارثة عظمى أخرى، إذ دمرت أربعاً من الفرقاطات الخمس التى كان يملكها الجزائريون، فضلا عن اثنين وعشرين شبكا.

وسارعت حكومات تونس والمغرب الأقصى، فضلا عن الدولة العثمانية، إلى تقديم بعض المراكب لتعويض الأسطول الجزائرى عن كارثته هذه. ولذا استطاع الأسطول الجزائرى المشاركة فى موقعة نوارين البحرية بثمانى سفن. وتدل هذه الأحداث على استمرار روح التضامن الإسلامى بين رجال البحرية، سواء فى الجزائر أم فى الأقطار الأخرى فى حوض البحر المتوسط. وربما كانت ذكرى أعمال الجهاد أيام خير الدين ماتزال ماثلة فى الأذهان، ويدل على ذلك أيضاً مجموعة الأسماء التى تخيرتها حكومة النيابة لإطلاقها على السفن حينما ازداد ضغط الدول الأوربية وأخذت النيابة فى اتباع العرف البحرى الذى يقضى بوضع اسماء للسفن ولذا سميت إحدى السفن بالفتح، وأخرى بالجهاد، وثالثة بالنصر.

ذكرنا أن حكومة النيابة تولت إدارة البحرية، ولذلك أصبحت تحصل على نسبة كبيرة من الغنائم، وفى السنوات التى تعنينا هنا وصل نصيب

الحكومة إلى ٥٠ ./. بالإضافة إلى نسب أخرى حصلتها مقابل أعمال التفريغ والحراسة . وخصصت النيابة جزءا من الغنائم لافتداء أسرى المسلمين، ثم وزعت الباقى على القائمين بالعمل فى الحملات البحرية ، أى سهمين للبحار وسهم للجندى الإنكشارى الذى يخرج مع الحملة للنزول فى سفن الأعداء بعد الاستيلاء عليها . وتوزع الغنائم عينا ، فإذا كانت السفينة التى تم الاستيلاء عليها حربية تكون كلها للحكومة ، وحينذاك يعوض البحارة بمكافآت مالية .

وكانت العاصمة تحتفل بعودة الحملات البحرية، ويذهب الريس ليقدم الحساب إلى الداى ، ثم يفرغ شحنته تمهيداً لتوزيعها .

وتحدث الكتاب طويلا عن الأسباب الدولية التى أدت إلى سقوط نيابة الجزائر سنة ١٨٣٠ . وفى هذا المقال محاولة علمية لإبراز الأحوال الداخلية التى تفسر لنا أسباب ضعف النيابة فى عهدها الأخير ، ومنها يتضح أن النظام العثمانى كان يمر بأزمة تستعصى على الحل ، لأن الأقلية العنصرية الممتازة فقدت دعائم قوتها، بسبب حل الإنكشارية من جهة ، وضعف الأسطول من جهة أخرى، كما أن الأزمة الاقتصادية أوجدت نوعاً من المعارضة الوطنية لم يكن له وجود من قبل ، وهذه المعارضة واضحة فى ازدياد نفوذ الطرق الصوفية الذى أوجد بدوره أزمة اجتماعية تتجلى فى بعثرة ولاء الفرد بين الطريقة الصوفية والقبيلة .

صلاح العقاد

بعض مصادر هذا البحث

1 — Boyer (Pierre) : La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française. Paris, 1963.

2 — Depôt Général de La Guerre : Aperçu Historique ... sur l'Etat d' Alger ... Paris, 1830.

3 — Devoulx (A.) : Le Registre des prises maritimes ... in Revue Africaine. 1871, tome XV, 1872 tome XVI.

4 — Devoulx (A.) : Le Raïs Hamidou, un corsaire algérien du XIIIe siècle de l'Hégire à Alger, 1858.

5 — Dubois - Thainville : Mémoire sur Alger, (1809). Paris 1927.

6 — Hamdan Ben Othman Khodja : Aperçu historique ... sur la Régence d'Alger ... Paris, 1833.

7 — Kercy (dc) : Mémoire ... sur Alger (1791), Paris 1927.

8 — Laugier de Tassy : Histoire du Royaume d'Alger. Amsterdam 1725.

9 — Shaler (W.) : Esquisse de l'Etat d'Alger, Paris, 1830.

الأصول التاريخية لقضية عمان

بدأت القضية العمانية تظهر فى مجال المناقشة الدولية حين عرضت على الأمم المتحدة، لأول مرة سنة ١٩٥٧، وكان ذلك على أثر اجتياح قوات سلطنة مسقط، المؤيدة من جانب الإنجليز، لأراضى الإمامة العمانية فى الداخل. وبرر سلطان مسقط هذا الاعتداء بأنه توطيد لنفوذه فى المقاطعات الخاضعة له، أو بمعنى آخر أنه لا يعترف بوجود الإمامة. ومن هنا كان اتجاه الإمامة إلى إسماع صوتها فى المجال الدولى، مع التركيز على أن لها كياناً خاصاً. وعلى هذا فإن مشكلة عمان تثير تساؤلا يمكن تفهم القضية على أساسه. هل الإمامة هى الأصل، والسلطنة غير شرعية؟ أم أن وجود السلطنة أكسبها صفة الشرعية بحكم الأمر الواقع، ومن ثم تصبح الإمامة بوجودها لا تستند إلى هذه الصفة؟ ومن هنا يرتبط موضوع قضية عمان بالحديث عن الإمامة، وهى ليست منشأة حديثة، بل إنها نظام ألفه العمانيون فى الحكم منذ القرن الثانى الهجرى الموافق للقرن الثامن الميلادى. ويعزو مؤرخو الفرق الإسلامية المذهب الإباضى الذى تقوم عليه الإمامة فى عمان إلى احدى الفرق التى ينقسم إليها الخوارج(١)، وإن كان الإباضيون أنفسهم لا يقرون بصحة هذه النسبة، ويؤكدون أن خروجهم لم يكن على الإمام على بل على الدولة الأموية، وهم يشيرون بذلك إلى ثورة عبدالله بن إباض على الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان(٢). وعلى أثر قمع هذه الثورة فى العراق اتخذ الإباضيون من عمان ملجأ لهم، نظراً لموقعها المتطرف، وأخذوا ينشرون فيها مذهبهم. ومن عمان بدأت تظهر ثورات كثيرة ضد الأمويين والعباسيين.

---

(١) انظر الشهرستانى: الملل والنحل، ج ١، ص ٢٧١؛ مصطفى بن اسماعيل الإباضى: الهدية الإسلامية؛ يحيى معمر: الإباضية فى موكب التاريخ، ج١، ص٣٠٨.

(٢) الشماخى: كتاب السير فى رجال الإباضية، ص ٧٧.

ولعل أشهر هذه الثورات ماقام به سليمان وسعيد الجلنديين ، اللذان كانا يقومان بشئون الإمامة فى عمان زمن الوالى الأموى الحجاج بن يوسف الثقفى . لكن الهزيمة لحقت بهذه الثورة ، فاضطر الاثنان إلى الفرار إلى بلاد الزنج ، مما كان من أثره انتقال المذهب الإباضى إلى شرق إفريقيا (١) . وانتشرت الإباضية كذلك فى شمال أفريقيا منتصف القرن الثانى للهجرة ، وقامت بها عدة دويلات إباضية ومنها دولة قامت فى تاهرت ، أسسها عبد الرحمن بن رستم سنة ١٦٠ هـ ، واستمرت مايقرب من ١٣٦ عاماً حتى أزالها أبو عبيدالله الشيعى فى عام ٢٩٦ هـ (٢) .

المقصود بهذه الإشارات إلى انتشار الإباضية فى مختلف الأماكن من العالم الإسلامى ، ونجاحها فى تكوين إمامات خاصة بها ، أن الإمامة الإباضية لاتعنى صفة العموم ، أو بمعنى آخر لا تشترط ضرورة وجود إمام واحد للجماعة الإسلامية الواحدة ، بل تسمح لكل جماعة من الجماعات فى أى مكان أن تختار لنفسها الإمام الذى تراه صالحاً لها .

وفى عمان بدأ الإباضيون ينتخبون أئمتهم منذ النصف الأول من القرن الثانى الهجرى (٣) ، وظلت الإمامة العمانية تسير دون انقطاع تقريبا مدى أربعة قرون . ثم خلا مقعد الإمامة لمدة قرنين ونصف قرن ، وسيطر فى أثنائها النبهانيون على الحكم ، فألغوا الإمامة ، ولقبوا أنفسهم بالملوك . ثم حدثت الثورات الإباضية التى أعادت بعث الإمامة فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى (النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى) ، واستمرت الإمامة قائمة منذ ذلك الوقت حتى عام ١٥٦١ ، ثم انقطعت لأكثر من ستين عاماً . وقامت على أثرها

---

(١) انظر Pearce : Zanzibar ; The Island Metropolis of East Africa. p. 45; Ingrams: Arabia. & The Isles. pp, 6—8.

(٢) البارونى : الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية ، ص ٨٣ وما يليها .

(٣) انظر زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، جـ ١ ، ص ١٩١ـ١٩٤ .

الإمامة الإباضية فى أسرة اليعاربة التى ظلت تمارس الحكم فى عمان من ١٦٢٤ إلى ١٧٣٨م . وعلى الرغم من عدم ميل الإباضين إلى حصر الإمامة فى أسرة واحدة ، فإن الإمامة استمرت قائمة فى تلك الأسرة على طريقة الانتخاب بين أفرادها لأكثر من مائة عام . وسبب ذلك فيما يبدو أن هذه الأسرة نجحت فى تعزيز مركزها لدى العمانيين ، بفضل جهودها فى الصراع الذى نشب بين عمان والبرتغاليين،وبفضل ما حققته لعمان من تفوق بحرى ، وخاصة فى عهد أئمتها ناصر بن مرشد وسيف بن سلطان . ففى عهد هذين الإمامين ظهر أكبر أسطول عربى منظم ، وأصبح هذا الأسطول فى نهاية القرن السابع عشر الميلادى قوة بحرية لا نظير لها فى مياه الخليج العربى والمحيط الهندى . وبفضل قوة هذا الأسطول طارد اليعاربة سفن البرتغاليين فى شرق أفريقيا وسواحل الهند . ولذا كانت عمان احدى القوى المحلية التى أسهمت فى الإجهاز على ، الإمبراطورية البرتغالية فى المحيط الهندى والخليج العربى وشرق أفريقيا . وحفظ السالمى مؤرخ عمان الإباضى بعض الرسائل المتبادلة بين اليعاربة وخصومهم البرتغاليين ، وهى تنم عن روح التحدى والعداء التى تملكت الطرفين. وشرح هذا المؤرخ كذلك أعمال سيف بن سلطان وحروبه ضد البرتغاليين ، فقال : « إن الإمام حارب النصارى فى جميع الأقطار ، وعمل لهم مراكب عظيمة فى البحر، وعظم جيشه ، وقوى سلطانه ، وأخذ من النصارى منيسه وكلوه وباته ، وغيرها من البلدان التى بالزنج ومن البلاد التى بالهند (١)» .

ثم ما لبثت أسرة اليعاربة أن واجهت صراعاً أسرياً خطيراً حول منصب الإمامة ، وكان من نتيجة ذلك أن لجأ بعض المتنازعين من أبناء الأسرة إلى طلب معونة فارس. ولبى نادر شاه الفرصة، وكانت تحدوه آمال واسعة فى بسط السيطرة الفارسية على الخليج(٢) . ولذا احتل الفرس عمان(١٧٣٨—١٧٤١)، وكان هذا الاحتلال كفيلاً بقيام حركة تحررية عمانية ضد الفرس تزعمها

---

(١) السالمى : تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ج ٢، ص ٩٦ — ٩٨ .

(٢) أنظر Lockhart : Nadir Shah, .p. 182.

أحمد بن سعيد والى اليعاربة فى ميناء صحار ، وكان لنجاحه فى تخليص عمان من الاحتلال الفارسى تأثير كبير فى انتخابه للإمامة ، وبذلك انتقلت الإمامة الإباضية من أسرة اليعاربة إلى أسرة آل أبى سعيد التى لا تزال تحكم فى مسقط حتى الوقت الحاضر . ولما مات الإمام أحمد هذا وقع اختيار العمانيين على ابنه سعيد ، وكان ذلك فى عام ١٧٨٣(١) .

وشهد عهد الإمام سعيد بن أحمد الذى استمر إلى عام ١٨٢٠ م ثنائية الحكم فى عمان ، من حكم دينى يمثله هو كإمام فى الداخل ، وحكم زمنى على الساحل بطبيعة الظروف التى دعت إليه . ذلك أنه حدث فى بحار الشرق على أثر انهيار السيطرة البرتغالية ، أن ظهرت دول أوربية أخرى ، وهى بريطانيا وهولندا وفرنسا ، وهؤلاء كانت لهم سياسة أخرى غير سياسة البرتغاليين الاحتكارية ، إذ انصرفوا إلى تأسيس المستعمرات ، واستغلال الأهالى ، وتكوين الامبراطوريات . أما فى مجال التجارة فأفسحوا المجال للعناصر التى كانت تعمل فيها من قديم لتعمل من جديد ، ولكنهم حرصوا فى الوقت نفسه على تأمين المواصلات لإمبراطورياتهم الاستعمارية ، وترتب على ذلك دخولهم فى علاقات مع القوى المحلية المسيطرة على أهم القواعد فى طريق هذه المواصلات . ولما كان طابع التنافس بين هذه الدول هو الظاهرة الغالبة لجأت كل منها الى محاولة الاعتماد على القوى ، المحلية وأن تضمن موالاتها لها بقصد توطيد نفوذها . ولما كانت الإمامة الإباضية الدينية لا ترحب بقيام مثل تلك العلاقات من ناحية ، ثم هى بحكم انزوائها فى المناطق الداخلية من ناحية أخرى فإنها تركت هى للحكام المعينين فى الساحل أن يكونوا بحكم الظروف أكثر تحرراً ونزوعاً إلى الاتصالات الخارجية . ولذا دخل أولئك الحكام المحليون فى علاقات مع الفرنسيين والهولنديين والإنجليز ، وشجع ولاة الساحل على ذلك أن سلطة الإمام أخذت وقتذاك فى الضعف ، بسبب التفكك الداخلى الذى نتج عن اقتطاع أقاليم البلاد لبعض أفراد الأسرة الحاكمة ، . يضاف إلى ذلك ضعف الإمام نفسه ، فالواقع أن انتخاب الإمام سعيد لم يكن لكفاءة شخصية

(١) انظر Weliested: Travels in Arabia. vol. 1. p. 396,

اتصف بها، بل كان اعترافاً بما أسداه أبوه من خير للبلاد ، بتخليصها من الفرس . ولعل عدم اعتراف أغلبية العمانيين بإمامة سعيد هو الذى أتاح للحركات الانفصالية الفرصة للسيطرة المحلية ، وهكذا طغت شخصية حكام الساحل على الإمام سعيد،ولم يبق له إلا احتفاظه بلقب الإمامة حتى وفاته فى عام ١٨٢٠،فى الرستاق،بعد أن خرج عليه الكثيرون .

والحق أن حكام الساحل كانوا أكثر تقديراً للموقف الخارجى ، إذ وجدوا من الدول الأجنبية استعداداً للتعامل معهم . ومما زاد فى الحركات الانفصالية أنها قامت فى ظروف التنافس الإنجليزى الفرنسى فى بحار الشرق، خلال حرب السنوات السبع (١٧٥٦— ١٧٦٣)،وحرب الاستقلال الأمريكية . ولذلك استفادت الحركات الانفصالية فى مسقط عموماً من هذا التنافس ، إذ عمدت الدول المتنافسة إلى إعطاء كيان للحكام المنفصلين الذين كانوا بحكم وجودهم على الساحل أقرب إلى تلك الدول من الإمامة العمانية الداخلية ،وتأكد هذا الاتجاه حينما عمل بونابرت فى أثناء وجوده بمصر على الاتصال بمسقط ،وحينما بادرت بريطانيا إلى عقد أولى معاهداتها مع مسقط. وكانت هذه المعاهدة تهدف إلى إضعاف النفوذ الفرنسى وإفساح الطريق أمام الإنجليز فى المجالات السياسية والتجارية. ولكن على الرغم من عقد هذه المعاهدة فقد استمر حكام مسقط يتعاملون مع الفرنسيين ، وإن كان قد نتج عن نجاح الإنجليز فى القضاء على النفوذ الفرنسى فى المحيط الهندى ،بعد سقوط جزيرة موريس فى أيديهم سنة ١٨١٠،أن تحول سلاطين مسقط إلى الاعتماد كلية على الإنجليز(١) .

وعلى هذا النحو بدأ ظهور السلطنة التى اتخذت مسقط عاصمة لها،على حين ظلت الإمامة فى عاصمتها الرستاق. لكن وجود حكم فى مسقط وحكم آخر فى المنطقة

---

(١) انظر Ruete : Said Bien Sultan. p. 112.

الساحلية جعل سلطة الإمامة تتقلص وتنزوى فى المقاطعات الداخلية، على حين أخذت السلطنة تضطلع بشئون الحكم تدريجياً. يضاف إلى ذلك أنه بعد وفاة الإمام سعيد، وعدم مواتاة الفرصة لا نتخاب إمام جديد، أصبح حكام الساحل هم السلطة القائمة فعلا. وأدى ذلك إلى الانفصال بينهم وبين الإباضين فى الداخل، لأنهم لم يكونوا على استعداد للاعتراف بأسلوب للحكم سوى الإمامة الإباضية، وآثروا الاحتفاظ بشخصيتهم دون اعتراف منهم بشرعية الحكم القائم على الساحل. ولم يعبأ حكام الساحل بذلك، إذ انهم لم يعودوا بحاجة إلى تأييد دينى يعتمدون عليه، بل بدأوا يستندون إلى نواح أخرى لتأييد نفوذهم، كاصطناع القوة العسكرية، وموالاة الاتصال بالدول الأجنبية. وساعد الإباضيون على عدم الاعتراف بحكم السلاطين، والتمسك بنظام الإمامة رغماً عن عدم انتخاب إمام جديد يخلف الإمام سعيد، أن الأباضية كمذهب لا ترى ضرورة توالى الأئمة فى الحكم، بل تسمح بوجود فترات تخلو فيها الإمامة، مادام لا يوجد شخص جدير بها، وهى الفترات التى يطلق عليها لإباضيون فترات الشغور». وعلى ذلك فليس انقطاع الإمامة فى فترة من الفترات معناه انتهائها، لأن الإمامة كانت تظهر ثم تختفى، ثم تعود إلى الانبعاث حينما تواتيها الفرصة.

وهكذا قبعت المقاطعات الداخلية فى عمان، بعد تحول مركز الثقل إلى مسقط، وهى لا تكاد تشارك بشىء فى زمام الحكم. وبدأ الصراع يظهر قوياً بين الساحل والداخل فى عهد السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ – ١٨٥٦)، الذى انتهز فرصة وفاة الإمام فاتجه إلى توحيد عمان، ولكنه وجد معارضة شديدة. والحق أن سيرة سعيد بن سلطان كانت مدعاة لتوسيع الهوة بينه وبين الإباضين، إذ كانوا يأخذون عليه ميله إلى الأساليب الأوربية، وحسن استقباله للأجانب. وزادت كراهيتهم له عندما عقد معاهدات كانت تبيح للأجانب حرية الدخول، بل الإقامة والمتاجرة والمرور مع بضائعهم، فى جميع أراضى عمان. ومعنى ذلك ولو من حيث المبدأ أن تفتح مناطق كثيرة أبوابها، على حين يصر كثيرون من زعماء الداخل على إيصادها. ثم كانت هناك فضلا عن ذلك معاهدات إلغاء تجارة الرقيق التى لم يمانع السيد سعيد فى عقدها مع بريطانيا. ويمكن أن نقرر هنا أن الحاجز الذى يفصل بين السلطنة والداخل حاجز دينى بطبيعته.

فى مسقط أمور كثيرة صارت تعد مقبولة، نظراً لاتصال مسقط بالهند والغرب، ولكن الإباضيين فى الداخل ينكرونها و يستنكرونها. ولما كان حكام آل أبى سعيد إباضيين أيضاً ، بالاسم على الإقل، ساعدت هذه الحقيقة على زيادة التبرم بأعمالهم بين المتحمسين الذين يقطنون وراء الجبال . وهنا نشير إلى ما ذكره لوريمار فى تعليقه على نقل العاصمة إل مسقط، إذ قال «إن نقل العاصمة إلى الساحل عرض الحكام لتأثير حضارة أجنبية أبعدتهم عن قبائل الداخل ، وقللت من محبتهم بين رعاياهم ، ولو بقيت العاصمة فى الرستاق لكان من الممكن أن تتمتع عمان بمزايا حكومة أكثر استقامة و نشاطا، وكان يمكن أن يكون الفساد الخلقى للأسرة الحاكمة أقل سرعة .»

ويعنينا هنا أن نوضح بعض المظاهر التى نتجت عن انتقال العاصمة إلى مسقط ، فأولا بدأ الحكام يتخلون عن لقب الإمامة . ولما كان لقب السلطان لم يتضح لحكام مسقط إلا بعد تقسيم السلطنة فى عام ١٨٦١، واعتراف إنجلترا وفرنسا فى التصريح المشترك باستقلال كل من سلطان مسقط وسلطان زنجبار سنة ١٨٦٢، اتخذ الحكام لقب «السيد» الذى راق لهم استخدامه، ولا يعنى هذا اللقب ادعاءهم المجىء من سلالة شريفة ، وإنما لا يعدو أن يكون نوعاً من ألقاب التعظيم .

وثانيا : بدأ الحكام يعتمدون على الجنود المرتزقة لتأكيد سيطرتهم، ولاشك أن للتعارض والعداء الشديد الذى كان قائماً بين الحكام والإباضيين المتحمسين تأثير كبير فى عدم وجود جيش وطنى من أهل البلاد . ومن هنا كان استخدام الحكام لعناصر البلوش والزيجلوس التى كانت تأتى من السند وسواحل مكران، ولاتزال عناصر البلوش مستخدمة فى جيش السلطنة حتى الوقت الحاضر. وكما كشف تقرير دى بنج فى عام ١٩٦٣ أن عدد هذه العناصر بلغ أكثر من نصف قوات مسقط ، فإنه أصبح من الصعب على الحكام أن يعتمدوا على الموارد الداخلية، فهى فقيرة فى جملتها ، فضلا عن عدم ضمانها ، وإنما أتاحت لهم السيطرة على الساحل فرصة الحصول على مكوس جمركية، وخاصة حينما نجحوا فى مد السيطرة العمانية على الساحل الشرقى للخليج وإدارة

موانى بندر عباس وجزيرة هورموز والقشم ، ابتداءا من عام ١٧٩٨ (١) .

ثالثا ، فشل حكام مسقط رغم كونهم إباضيين فى أن يحدثوا وحدة بينهم وبين غيرهم من الإباضيين المتحمسين فى الداخل ، بل كانوا يواجهون أعنف المعارضة . وربما يكون للطابع الحضرى وما تبعه من علاقات خارجية عاملا فى زوال تعصب إباضية الساحل للعقيدة الاباضية ذاتها ، إلا أن المشكلة هى أن إباضية الداخل استمروا على تمسكهم الشديد بتعاليمهم . ويمكن تشبيه تلك المشكلة بما واجهته الدولة السعودية فى صراعها ضد المتحمسين من اتباع الدعوة الوهابية، وبينما نجحت السعودية فى ذلك فشل سلاطين مسقط ومرجع ذلك أن السلاطين اتجهوا الى إحداث التطور فى صميم العقيدة الإباضية بإدخال الحكم الوراثى وإهمالهم لنظام الإمامة .

وكان من المتوقع أن تنجح حركات إحياء الإمامة فى الوقت الذى ضعفت فيه سيطرة الحكام على مقاطعات الداخل،أو كما حدث مثلا فى انصراف السيد سعيد الى شئون ممتلكاته فى شرق أفريقيا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وفعلا قامت عدة محاولات تهدف إلى إحداث انقلاب فى نظام الحكم،والرجوع به الى أصوله الأولى .لكن هذه المحاولات لم يقدر لها النجاح، ويرجع ذلك إلى التأييد الذى كان يلقاه حكام مسقط من جانب الإنجليز ، لأن إنجلترا كانت تفضل فى أن تتعامل مع السلاطين عن أن تصطدم بالإمامة وما فيها من تعاليم ومبادىء تتعارض مع مصالحها . ثم هناك عامل آخر وهو الغزوات السعودية المتكررة التى تعرضت لها الأقاليم الداخلية من عمان ، وما كان لهذه الغزوات من تأثير فى احتدام الصراع والعصبية التى كانت قائمة بين عرب الشمال من الغافريين وعرب الجنوب من الهناويين ، إذ كان السعوديون يعدون من عرب الشمال .وأدى ذلك إلى أن غافرية عمان كانوا أسرع إلى تشرب الدعوة الوهابية ونشرها والدعاية لها فى واحتى الظاهرة والبوريمى ، مما أوجد للسعوديين مطالب متعددة فى هذه المناطق ،فى حين عمل عرب الجنوب من

---

(١) Palgrave: Narrative of a Year's Journey Through Central & Eastern Arabia. vol 1. p. 255.

الهناويين الإباضيين على محاربة السعوديين، أى أن الصراع الدينى بين الإباضيين والوهابيين اصطبغ بالنزعة القبلية السائدة (١). وهكذا وجد الإباضيون أن الضغط أصبح قويا عليهم من جانب السعوديين فى الشرق، ومن جانب السلطنة على الساحل فى الغرب. وكان ذلك الضغط المزدوج من أكبر الأسباب التى حالت دون بعث الإمامة الإباضية. ثم حدث أن قام السعوديون عدة مرات بالتعاون مع السيد ثوينى باحباط ثورة إباضية نشبت عام ١٨٥٣. ويمكن أن نضيف إلى أسباب إحياء بعث الامامة الإباضية القرن التاسع عشر عدة عوامل أخرى، منها أن بعض الذين قاموا بمحاولة إحيائها لم تكن تحدوهم رغبات صادقة فى ذلك، ولم يكن ما قاموا به إلا نوعاً من التنازع العائلى فى دولة البوسعيد، أى أن بعض هذه المحاولات كانت فى حد ذاتها صراعاً أسرياً، فضلا عن أن الإباضيين لم يحققوا نجاحا فى التوفيق بين القبائل الهناوية والغافرية. واستمرت المقاطعات الداخلية فى عمان تعانى من تعقد الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية، واقصد بذلك انقسام قبائلها إلى مجموعات طبقاً للدين والفئة ومناهج المعيشة، وأصبح عدم اتحاد تلك القبائل من أهم العوامل التى أدت إلى فشل بعث الإمامة الإباضية. ولكن فى عام ١٨٦٨ سمحت الأحوال بفرصة لإحياء الإمامة فى وقت لم يكن فيه سلطان مسقط حائزاً على تأييد العمانيين، وكان يصطدم دائماً بمحاولات من قبل قريب له فى السيطرة على الحكم فى مسقط، فضلا عن التطلع إلى ممتلكات أسرته فى شرق أفريقية، بعد أن فصلتها بريطانيا عن سلطنة مسقط فصلا نهائياً، ولذلك فضلت بريطانيا وقوع مسقط فى أيدى الإمامة فى وقت لم تكن فيه مطمئنة إلى مصير

(١) ينقسم العمانيون إلى قسمين كبيرين، وهما الهناوية و الغافرية، والهنادية عرب الجنوب والغافرية عرب الشمال. وهناك كذلك القحطانيون والعدنانيون، وهما القسمان الكبيران اللذان كان ينقسم إليهم العرب قديماً. ولما كان عرب الجنوب أول الوافدين على عمان استمرت السيطرة فى أيديهم، ولكن بمرور الزمن بدأت عناصر الشمال تفد إلى عمان، فاختلط العنصران عن طريق التزاوج. غير أن العصبية القبلية وقفت حائلا دون قيام اتحاد تام بين هذين العنصرين، ولا شك أن ذلك التنافس هو من السمات المميزة لتاريخ عمان القديم والحديث. انظر:

Selections From the Records of Bombay Government, vol. XIX., p' 50.

الحكم فى مسقط ، وهكذا أتاحت الظروف فرصة لانتخاب الإمام عزان بن قيس ، وكانت إمامة ذلك الرجل ذات أهمية من ناحيتين ، وهما أولا :

أنها أدت إلى الإطاحة بحكم السلاطين فى مسقط ، وإن كان ذلك لفترة مؤقتة وثانيا: أنها أول مرة تقوم فيها الإمامة فى مسقط ، وكانت تقوم قبل ذلك فى العواصم القديمة (أزكى - بهلى - الرستاق نزوى). وكان قيام الإمامة فى الساحل كفيلا بتطور العقيدة الإباضية إلى الشكل الذى يتلاءم مع الظروف الجديدة . لكن قصر حكم الإمام عزان كان مسئولا عن عدم تحقيق ذلك ، بالإضافة إلى رفض بريطانيا الاعتراف بعزان بن قيس خلال وإمامته . ومع أن السياسة البريطانية زعمت لنفسها بأنها سياسة عدم التدخل ، فإن الإنجليز اتجهوا بطريق غير مباشر إلى تقويض إمامة عزان وإنهاء عهده ، بتأليب أعدائه عليه، وتحريضهم ضده ، فضلا عن أنه لم تقم علاقات بينهم وبينه رغم استقراره فى الساحل ، إذ دأبت بريطانيا على عدم الاعتراف بحكمه .

وإذا استثنينا العداء الذى لقيته إمامة عزان بن قيس من جانب بريطانيا ، فإن عوامل أخرى أدت إلى انهيارها السريع ، وأهم هذه العوامل عدم نجاح عزان فى التوفيق بين القبائل الهناوية والغافرية . ومن المعروف أن القبائل الغافرية استحوزت على سلطات كبيرة فى أثناء حكم السلطان سالم الذى قضى عليه عزان بن قيس ،ولذا كانت الغافرية تعتقد أن الإمامة صارت للهناوية،ولهذا أضمروا العداوة للإمام(١).واصطدم عزان فعلا بعدة ثورات غافرية اتسمت بنزعة دينية،وذلك حينما حرض السعوديون هذه القبائل على الثورة، وبالتالى دخل الإمام فى صراع مرير بينه وبين السعوديين . ومن الطريف أن الإمام عزان فى سبيل حصوله على الأموال اللازمة

---

(١) السالمى : تحفة الأعيان ، المجلد الثانى، ص ٢٤٥ .

لمحاربة السعوديين، التجا إلى الاقتراض من الأهالى، وإلى مصادرة أموال أسرة البوسعيد ، بعد أن برر علماء الإباضية مصادرة تلك الأموال بأن السلاطين من آل أبى سعيد «أخذوا الجبايات من غير محلها، ووضعوها فى غير أهلها(١)» . وكانت واحة البوريمى هى الموضع الذى دارت فيه المعارك بين الإباضيين والسعوديين. وهناك عامل هام آخر نستطيع أن نعلل به انهيار إمامة عزان بن قيس، وهذا العامل هو أن الإمامة أخفقت فى أن تكتسب تأييداً ، إذ كان من نتيجة تعسف الإباضيين أن طبقت إجراءات وقع عبئها على النـاس ، مما جعلهم يؤثرون حكم السلاطين على الحكم المتزمت للأئمة ولما زادت المخاطر على الإمامة فى أيامها الاخيرة، صار من الضرورى تطبيق إجراءات زادت فى شدتها عن كل ما سبقها ، حتى إن كثيراً من الذين كانوا يريدون الإمامة من الناحية النظرية لم يكونوا على استعداد من الناحية العملية لبذل التضحيات فى سبيل إنقاذها. وزاد الأمر سوءا أن القوة الرئيسية للإمامة كانت مركزة فى أيدى شيوخ من غلاة التعصب، ولهذا لم تلق الإمامة تأييداً فى الساحل، حيث كان الأهالى قد تعودوا مظاهر الحضارة، بل لقد أشيع عند مقتل الإمام عزان أن الرصاصة القاتلة أطلقت عليه من أيدى أحد أتباعه(٢)، ولو صدقت هذه الرواية فهى تدل على عدم الاستجابة التى اصطدمت بها الإمامة، كما تدل على فشلها فى الحصول على التأييد العام. أما بريطانيا فإنها لم تكف طوال السنوات التى قضاها عزان فى الإمامة عن مراقبة أوضاع الحكم الجديد ، ويبدو أن رحلة كولمب ، وهو أحد رجال البحرية الهندية ، إلى مسقط حول ذلك الوقت، كانت بتعليمات من حكومة الهند للتجسس على نظام الحكم القائم . ويشير كولمب إلى أنه ثبت لديه بعد سؤاله لعدد كبير من أهالى مسقط ، أنهم غير راضين عن حكم الإمام، نتيجة لتعسفه(٣) يضاف إلى ذلك أن بريطانيا أخذت تدبر المؤامرات ضد عزان، وتشجع السيد تركى ، وتمده

---

(٢) السالمى : تحفة الأعيان، جـ٢، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٦ .

(٣) Colomb: Slave Catching in the Indian Ocean. pp, 122-127

بالسلاح، وأصبح أملها الأول إعادة تأسيس ذلك النوع من الحكم المفضل لديها فى مسقط، وهو الحكم الذى يعتمد على سلطتها ويخدم رغبتها .

وفى أثناء السنوات التى أعقبت اغتيال عزان بن قيس سنة ١٨٧١، أى حتى عام ١٩١٣، تجددت الثورات الإباضية فى عمان، لكنها لم تسفر عن إحياء جديد للإمامة، لأن السلاطين استخدموا سلاح الرشوة وإغداق الأموال على القبائل المسيطرة على الطرق المؤدية من الداخل إلى مسقط . وتؤكد المصادر البريطانية نفسها أن كل ما كان يتحصل عليه السلاطين من رواتب سنوية من الحكومة البريطانية. كانوا ينفقون أكثره للحصول على ولاء هذه القبائل لهم . وبلغ من تهديد قبائل الداخل للسلطنة ما ذكره الكولونيل روزن، وهو ديبلوماسى ألمانى زار مسقط حول ذلك الوقت، بأن وصول قبائل الداخل إلى أبواب مسقط كان فى كل عام بمثابة نذير لجيش السلطان بالاختفاء فى أقبية المدينة وكهوفها. وكان حفظ النظام موكولا فى معظمه إلى إحدى السفن الحربية البريطانية التى كانت تجوب الخليج، وكان على السلطان أن يلجأ إلى أية وسيلة مهما بلغت من القسوة، للقضاء على أشد خصومه خطراً . وإزاء التهديدات المستمرة أصدرت الحكومة البريطانية فى الهند فى عام ١٨٨٦ تصريحاً أكدت فيه بأنها لن تسمح بحدوث أى هجوم على مسقط ، ولو دعى الأمر إلى تدخلها بالقوة للحيلولة دون ذلك .

ولكن فى عام ١٩١٣ أعيد بعث الإمامة الإباضية ، حينما ولى شئونها الإمام راشد الخروصى . وفى تلك السنة أعلن الإمام الجديد خلع السلطان وتكفيره، وبدأت قواته تتحرك من الداخل فى طريقها إلى مسقط(١) . وتعود أسباب هذه الثورة إلى زيادة النفوذ البريطانى فى مسقط، وخاصة بعد أن نجحت بريطانيا فى القضاء على منافسة فرنسا، وإلى إخضاع السلطان لمطالبها فيما يتعلق بأمور التجارة بالسلاح والرقيق، وقبوله استغلال بريطانيا لموارد عمان الداخلية . على أن ثورة ١٩١٣ لم تكن ثورة دينية صرفة تهدف

(١) أوراق التحكيم لتسوية النزاع الإقليمى بين مسقط وأبو ظبى والمملكة العربية السعودية ، ج ١ ، ص ٣٠٤ .

إلى تطبيق التعاليم الإباضية كما أنها لم تكن انقلاباً فى أحد فروع الأسرة الحاكمة ، كما حدث فى إمامة عزان بن قيس بل تبدو فيها بوادر الحركة القومية . والراجح أن السيد فيصل سلطان مسقط حاول تهدئة هذه الثورة بمحاولة تنصيب نفسه إماما على المذهب الإباضى. على أن نقطة الخلاف بينه وبين زعماء الإباضية ترجع إلى تمسكه بأن يكون إماما وسلطاناً معاً ، فضلا عن رفضه الموافقة على كثير من مطالبهم .وقبل اندلاع الثورة كان أول ما اتجه إليه الإباضيون أن يفيدوا من تجاربهم السابقة فقد عملوا على التمكين لأنفسهم بالصلح بين القبائل ، من غافرية وهناوية ، وفعلا نجحت الثورة بفضل التعاون الذى تم بين زعماء مناطق الشرقية وزعماء الجبل الأخضر. وما يسترعى الانتباه أن الشعور ضد أسرة البوسعيد أصبح قوياً إلى درجة أن لم يهتم أحد لانتخاب أى فرد من أفراد هذا البيت ، كما حدث فى حالة الإمام عزان بن قيس .وفى العام التالى لنشوب الحرب العالمية الأولى كانت قوات الإمامة تحيط بالسلطنة من كل جانب ، وعجزت الحكومة البريطانية بسبب اشتراكها فى الحرب عن الاستمرار فى المقاومة،وأصبح أهم ما تحرص عليه أن توجد تهدئة بين الإمامة والسلطنة ، خوفاً مما يترتب على دعوة الإمام للجهاد الدينى من تأثير على مركز بريطانيا . وظهر هذا الاتجاه فى عام ١٩١٥ ،حينما زار لورد هاردنج نائب الملك فى الهند منطقة الخليج ، وطلب من سلطان مسقط أن يسالم الثائرين ، وأن يعقد معهم صلحاً يتنازل بموجبه عن المناطق التى تم لهم احتلالها، بعد أن أعلن له صراحة أن الإنجليز لن يتمكنوا من الاستمرار فى مساعدته . وعندما انتهت الحرب بذلت بريطانيا جهوداً كبيرة لإقرار الوضع بين الطرفين، ونصح المقيم البريطانى فى الخليج للسلطان تيمور بن فيصل بوجوب عقد صلح مع زعماء الداخل . وفى نفس الوقت بعثت بريطانيا عام ١٩١٩ برسالة إلى زعماء عمان تطلب منهم وقف إطلاق النار ، وجاء فى هذه الرسالة التى وقعها القنصل البريطانى فى مسقط « أكتب إليكم بالخصوص ، لأخبركم أن إرادتنا هى أن نساعد فى تأليف حكومة عربية فى كل البلاد العربية ، لتحكم حسب عوائدها ، وحيث تخلص العرب من ربقة جور الأتراك ، فالرجاء وثيق أنهم

سيتقدمون فى أمورهم على الطريقة العربية الطيبة ، وبما أن الفرصة الان سنحت لأن نلتفت إلى عمان فإنه من الواجب أن أحاول أن أشرح لكم سياستنا » . وبعد أن أوضح القنصل البريطانى أنه يريد التباحث مع العمانيين، لإقرار السلام فى المنطقة فإنه أخذ يهددهم بقوله «إن لدينا خمسمائة ألف من العساكر المدربة على الحروب فى العراق، وقد فرغوا من أعمالهم الحربية ، ولا حاجة لنا بهم هناك . وبضعة آلاف منهم تكفى للاستيلاء على عمان بأسرها ، لو أننا أردنا بكم سوءا ، والسيد تيمور يخالفكم فى أنه يحاول أن يكون على صداقة معنا» . وتضمنت الرسالة تهديداً اقتصاديا ، إذ جاء فيها «إن الحاكم المتولى على السواحل لا يعجز عن فرض الخراج على ما يذهب إليكم .. وتعلمون كذلك أن زمام أمور البحر فى أيدينا ، فإن كنتم تريدون مناصبتنا العداء فلن نسمح أن يباع لكم الأرز أو القمح أو الأثواب التى تلبسونها، ولن نبيح لكم بيع تموركم ، مع العلم بأن كل تجارتكم لا تجرى إلا فى بلادنا . ولكن إذا كنتم مستحسنون صداقتنا فأننا سوف نقوم بمساعدتكم كما نساعد الآن السيد تيمور ، لكن إن لم ترضوا الآن أن تعاونونا فالعواقب الوخيمة ستحل بكم وليس بنا ، ومن المتعذر أن نكون أصدقاء لمن لا يريد صداقتنا (١) .

والواقع أنه على الرغم مما فى هذه الرسالة من عبارات التهديد، فإنها تتضمن أيضاً الاعتراف باستقلال عمان، وقد تأكد هذا الاعتراف فى عام ١٩٢٠، بعقد معاهدة السيب التى وقعها نيابة الإمام ممثلة الشيخ عيسى بن صالح الحارثى، ومن قبل السلطان تيمور بن فيصل مستر وينجت قنصل بريطانيا فى مسقط . وفى هذه المعاهدة تعهد السلطان بعدم التدخل فى شئون عمان الداخلية وتعهد ممثلوا الإمامة من جانبهم بأن يمتنعوا عن الهجوم على مسقط . ورحبت الحكومة البريطانية بهذه الاتفاقية التى عقدت بواسطتها، واعتبرتها نهاية لصراع

---

(١) أخذت هذه الرسالة من مكتب إمامة عمان بالقاهرة ، كما يوجد نص هذه الرسالة وغيرها من الرسائل التى تبودلت بين القنصل البريطانى فى مسقط والشيخ عيسى بن على فى:

Question of Oman, Report of the Ad—Hoc Committee on Oman, United Nations General Assembly Distr. General A / 5846 1965. p. 80 ff

طويل بين الإمامة والسلطنة ، وبداية لعهد مستقر لسلطنة مسقط التى كانت دوما تخضع للتهديدات العسكرية من داخلية عمان .

واستمرت الأوضاع هادئة فى عمان من ١٩٢٠ إلى ١٩٥٤ ، وتعاقب الأئمة فى أثنائها فى الحكم ، وخلف الخروصى فى عام ١٩٢٠ الإمام عبد الله الخليلى . وعندما توفى الخليلى فى عام ١٩٥٤ أعان العمانيون انتخاب الإمام الحالى ، وهو غالب بن على . ولم تحدث مشاكل خلال هذه السنوات بين الإمامة والسلطنة ، إلا فى عام ١٩٣٧ ، حينما احتج الإمام على منح السلطان امتيازاً لإحدى الشركات البترولية التابعة لشركة بترول العراق(١) ، للتنقيب عن البترول فى أراضى عمان ، واعتبر أن منح هذا الامتياز خرقا لمعاهدة السيب . ثم كانت بعد ذلك المشكلة الرئيسية التى حدثت فى عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٧ ، وهى احتلال قوات مسقط لأراضى الإمامة فى الداخل ، مما دفع بالقضية العمانية إلى مجال المناقشة الدولية .

وتثير معاهدة السيب جدلا قوياً بين الحكومة البريطانية المتحدثة باسم سلطان مسقط ، وبين زعماء الإمامة . ومما يزيد التساؤل عدم وجود نص رسمى لتلك المعاهدة يمكن الاعتماد عليه ، فزعماء الإمامة يؤكدون أنهم وقعوها كممثلين عن الإمام لا عن أنفسهم ، وأنه صدق على هذه المعاهدة كل من الإمام والسلطان . ولكن ديباجة المعاهدة ، كما وردت فى تقرير دى ربنج لم ينص فيها على الإمام ، وإنما كل ما جاء فيها « هذا هو الصلح المتفق عليه بين حكومة السلطان تيمور بن فيصل والشيخ عيسى بن صالح بن على عن سكان عمان » ، كما أنه لا يوجد تصديق من الإمام على هذا الصلح المشار إليه . ولكن زعماء الإمامة يؤكدون أن هناك نصاً آخر للمعاهدة مصدقاً عليه من قبل الإمام ، وإن كان هذا النص ضاع فى أثناء احدى الإغارات التى تعرضت لها عمان من ناحية مسقط . ويثير عدم إظهار النص الخاص بالسلطان ، ثم إنكاره ، تساؤلا فى ذلك الصدد ، وخاصة أن السلطان الحالى يرى أن هذه المعاهدة كانت خطأ سياسياً من والده الراحل ، وأنه لا يعترف بها ،

(١) أنظر Petroleum Development : Oman & Dhofar.

ويعتبرها اتفاقية مؤقتة وشخصية ، من جانب والده وزعماء بعض القبائل فى عمان ، وأنه لا يعقل منطقياً أن يعقد السلطان معاهدة بينه وبين رعاياه(١) .

ولكن مما يؤيد وجهة نظر الإمامة ،فى التمسك بمعاهدة السيب، أنها عقدت فى وقت كان فيه الموقف فى صالح الإمامة، وأن بريطانيا هى التى حاولت منذ نهاية الحرب فى عام ١٩١٨، تنظيم مقابلة بين الشيخ عيسى نائب الإمام والقنصل البريطانى فى مسقط ، للتفاوض فى عقدها . وعلى الرغم مما يبدو من إلحاح بريطانيا ، كما ذكرنا سابقاً، ولجوئها إلى التهديد، فإن زعماء الإمامة حرصوا على عقد هذه المعاهدة، وكانوا أكثر تقديراً لحقيقة الموقف الذى ترتب على سيطرة بريطانيا على الساحل ، وما قد تؤدى إليه هذه السيطرة من تضييق الحصار على الإمامة ، فبوسع بريطانيا فى هذه الحالة أن تخنق الإمامة سياسياً واقتصادياً ، ولذلك وافق الزعماء على عقد هذه المعاهدة ، وخاصة أنها قررت ألا تزيد نسبة المكوس الجمركية عن ٥٪، وأن يتمتع العمانيون بالأمان فى موانى الساحل (٢). وعلى العموم فإن معاهدة السيب ، وإن لم نحصل على نص رسمى لها فمن المعروف أنها كانت تنص على أربعة شروط بالنسبة للإمامة ، وأربعة شروط أخرى بالنسبة للسلطنة . وهذه الشروط تتناول العلاقات التجارية ، وسلطة المحاكم والهاربين من القانون . غير أن النص الأساسى الذى تعهد به الطرفان، وألزما نفسيهما به، هو الخاص بعدم الاعتداء وعدم التدخل فى شئونهما

---

(١) United Nations Official Records—Records on Oman General Assembly, Distr. General A / 5846, January 1965 p. 90 ff.

(٢) Memorandum Submitted to the Committee by the United Kingdom « The Relationships between the United Kingdom & Sultanate of Muskat & Oman, United Nations Official Records A / 5846 Annex XI p. 1

الداخلية(١)، فضلا عما تضمنته الرسائل المتبادلة بين المقيم البريطانى فى الخليج وزعماء الإمامة ، من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٢ ، من تأكيدات باستقلال الإمامة عن السلطنة ، إذ يحملهم مسئولية الاعتداءات التى تقع من قبائل الإمامة على القبائل الخاضعة للسلطنة ، ويعد ذلك مخالفة لشروط معاهدة السيب ، كما تضمنت هذه المراسلات بعض العبارات التى تؤكد صفة الاستقلال .

وبالإضافة إلى ذلك أكد الرحالة والكتاب الذين زاروا مسقط ، أوعملوا بها بعد معاهدة السيب ومنهم برترام توماس الذى كان يشغل منصب وزير المالية فى حكومة السلطان تيمور بن فيصل، أن السلطان لم تكن تتعدى سلطته الساحل (٢) ، وأكد كابتن إكليس أن معاهدة السيب تعد تسليماً باستقلال عمان، وقال ريتشارد سانجر إن البلاد انقسمت بانتهاء الحرب العالمية الأولى إلى قسمين ، إمامة عمان فى المنطقة الجبلية ، وحكومة مسقط فى المنطقة الساحلية . أما الصحفى البريطانى جيمس موريس ،فأكد أن معاهدة السيب نصت على سيادة السلطان فى عمان ، ومن المعروف أن جيمس موريس رافق سلطان مسقط فى رحلته إلى داخلية عمان، فى عام ١٩٥٥ ،وتمت هذه الرحلة تحت حماية الحراب البريطانية ، وبسبب هذه الحقيقة

---

(١) قررت معاهدة السيب أربعة مواد لصالح الإمامة، وأربعة أخرى لصالح السلطنة، وهى كالآتى : أولا المواد الخاصة بالإمامة : ١ ــ لا تفرض ضرائب أكثر من ٥ ٪ على البضائع الواردة من عمان إلى موانى مسقط ــ ومطرح وصور. ٢ يتمتع العمانيون بالإمامة والحرية فى مدن الساحل. ٣ ــ ترفع جميع القيود على دخول العمانيين مسقط ومطرح وغيرهما من موانى الساحل. ٤ ــ تتعهد حكومة السلطان بأن تسلم اللاجئين الهاربين من عدالة عمان .

أما المواد الخاصة بالسلطنة فهى : ١ ــ يتعهد شيوخ وقبائل عمان بعدم مهاجمة المدن الساحلية، ولا يتدخلون فى شئون الحكم . ٢ ــ يتمتع أهالى مسقط المشتغلون بالتجارة بالحرية والأمان فى مقاطعات عمان . ٣ ــ تسليم اللاجئين . ٤ ــ تقرر مطالب التجار للعمانيين على أساس تعاليم الإسلام .

(٢) أنظر United Nations official Records A/5846 p. 103. See also, Bertram Thomas, Arab Rule Under The Al Bu Said Dynasty in Oman & Zauzibar London, 1939.

اختار موريس عنواناً ساخراً لكتاب صدر له أخيراً، إذ أسماه سلطان فى عمان.

والواقع أنه منذ عقد معاهدة السيب، وعلى الرغم من أنه لم توضع حدود سياسية بين الإمامة والسلطنة، فإن الحدود كان متفقا عليها عرفيا بين الطرفين. واستمر الأئمة يعينون الولاة والقضاة، ويجمعون الزكاة، بل تطور الأمر فى السنوات الأخيرة من حكم الإمام الخليلى حتى أصبح للإمامة جوازات سفر معترف بها فى بعض الدول العربية. ولكن بريطانيا ظلت تبنى اعتراضها على عدم وجود كيان مستقل للإمامة لأنه لم يحدث لها أن أقامت علاقات خارجية بينها وبين الدول، والرد على ذلك أن نفوذ بريطانيا هو الذى حال دون قيام تلك الاتصالات حتى فى محيط العلاقات العربية، إذ بذلت عدة محاولات منذ عام ١٩٥٣ لضم إمامة عمان إلى الجامعة العربية، ولكن لقى هذا الطلب رفضاً من كثير من الدول العربية التى لم تكن تحررت من إشراف بريطانيا بدعوى أن الإمامة لم تستكمل مقومات الاستقلال الذى ينص عليه ميثاق الجامعة(١). غير أنه إذا كانت وجهة النظر البريطانية ترى عدم الاعتراف بالإمامة، بدعوى أنها ليست ذات كيان سياسى مستقل، فهل يعنى ذلك أن مسقط تتمتع فعلا بهذا الكيان؟ الحقيقة هى أن سلطنة مسقط تخضع خضوعاً مطلقاً للسيطرة البريطانية، فبريطانيا تتحكم فى السلطنة بمقتضى عدة اتفاقيات ومعاهدات عقدتها مع السلاطين منذ أواخر القرن التاسع عشر. أما الدعوى بأنه كان لسلطنة مسقط علاقات خارجية مع غير بريطانيا من الدول كالولايات المتحدة الأمريكية (١٨٣٣) وفرنسا (١٨٤٤) وهولندا (١٨٧٧)(٢)، فى نظر الإمامة أن هذه

---

(١) انظر United Nations official Records, p. 109.

(٢) يمكن الرجوع إلى تلك المعاهدات، وكذلك المعاهدات التى عقدتها بريطانيا مع السلطنة فى:

Aitchison: Collection of Treaties, Relating to India & Neighbouring Countries. vols. XI, XII.

المعاهدات لم تكن بين مسقط وهذه الدول ، بقدر ما كانت بين هذه الدول وبين بريطانيا، فضلاً عن أنها لم تتعد النواحى التجارية(١). ومن ناحية أخرى ينبغى الإشارة إلى أن هناك اتفاقية عقدتها بريطانيا مع مسقط فى عام ١٨٩١ ، وأشرفت بمقتضاها على علاقات السلطنة الخارجية ، وقررت أن يكون الممثل البريطانى هو الممثل الأجنبي الوحيد فى مسقط . ثم إن الاتفاقيات التى عقدتها بريطانيا مع السلطنة فى عهد السلطان تيمور بن فيصل قام بإبرامها باسم السلطان برترام توماس وزير ماليته ، أى أن إنجليزياً كان يتعاقد مع إنجليزى آخرى .

على أن المشكلة الرئيسية التى استوجبت ظهور القضية العمانية فى المجالين العربى والدولى هى ما تعرضت له مقاطعات الإمامة ، فى عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٧، من اجتياح لأراضيها من قبل قوات مسقط التى كان يؤازرها الإنجليز، ويرجع سبب هذا العدوان إلى عاملين رئيسيين :

أولهما الوعى العربى الذى ظهر فى السنوات الأخيرة بشكل واضح فى المنطقة العربية، مما جعل بريطانيا تعمل على إحكام سيطرتها على المناطق الخاضعة لها، منعاً لامتداد تيار القومية العربية إليها .

أما العامل الثانى فيرجع إلى اكتشاف البترول فى أراضى الإمامة، وطمع بريطانيا فى السيطرة على موارد تلك الثروة . والواقع أنه منذ بوادر اكتشاف البترول فى عمان وبريطانيا تهدف إلى حصار الإمامة اقتصادياً، ومنع وصول الأسلحة إليها ، مع إثارة الفتن بين القبائل . ثم كانت الخطوة البريطانية الأخيرة ، وهى استخدام القوة المسلحة لإخضاع البلاد، مع ملاحظة أن احتلال القوات البريطانية لواحة البوريمى حول ذلك الوقت (١٩٥٥)، كان له تأثير كبير فى الحصار الفعلى حول المقاطعات الداخلية لعمان وبذا أصبحت عمان تعانى من الضغط العسكرى شرقاً وغرباً .

وعند عرض القضية العمانية على الأمم المتحدة، فى عام ١٩٥٧ ، كانت وجهة النظر العربية أن الإمامة دولة مستقلة، حافظت على استقلالها على مدى العصور،

---

(١) United Nations, op. cit. A/5846 pp. 129 - 132

وأنها دخلت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر فى علاقات مع البرتغاليين والفرنسيين، وإنها إذا كانت تخضع حالياً للاحتلال من قبل قوات مسقط، أو بالأحرى تخضع للسيطرة البريطانية، فإن هذا لا ينفى عنها صفة السيادة.

أما وجهة نظر سلطان مسقط فهى وجهة النظر البريطانية، إذ حرّضه الإنجليز على أن يحتج على بحث موضوع عمان، لأنها جزء من سلطنته(١). وأكد المندوب البريطانى المتحدث باسم السلطان أن بحث هذه القضية يعد تدخلا فى شئون دولة مستقلة ذات سيادة، وهى سلطنة مسقط، واعترض على وجود ممثل لإمامة عمان، مدعياً بأنه لا يمثل إلا حفنة من الثائرين، وحث اللجنة على رفض الطلب العربى ببحث هذه القضية زاعماً أن قبول مناقشتها سيؤدى إلى إيجاد سابقة خطيرة قد تؤدى إلى الإفادة منها مستقبلا لأى ثائر أو معارض للحكومة الشرعية القائمة فى ى بلد كانت.

وهكذا ظلت السياسة البريطانية تتأقلم لتلائم مصالحها، فهى وإن كانت مع سياسة التفكيك، فهى من أنصار التكامل أيضاً، حينما يتمشى ذلك مع مصلحتها. ومعنى ذلك أن بريطانيا ترى التمسك بوحدة مسقط وعمان تحت سيطرتها، لاستغلال موقع عمان الاستراتيجى، ولحماية مصالحها البترولية فى منطقة الخليج، والذ وتبرر وحدة الإقليمين أى أن عمان ومسقط دولة واحدة لا دولتين. وأن الاسم الأصلى كان عمان فقط، وأن إضافة اسم مسقط، يرجع إلى قيام الأجانب ممن تعاملوا مع عمان بالإشارة إليها باسم مسقط، نظراً إلى أن تلك المعاملات كانت تتم عن طريق مرفأ عمان على الساحل، وهو مسقط، وأن سيادة السلطان على عمان يمكن الاستدلال عليها من بعض المعاهدات التى عقدها

(*) فى الوقت الذى أكد فيه السلطان بأنه لا يعترف بحق الأمم المتحدة فى مناقشة قضية داخلية من صميم سيادته، فإنه أعلن استعداده لدعوة ممثل شخصى للسكرتير العام لهيئة الأمم، لزيارة عمان والحصول على الحقائق المطلوبة عن الموضوع. وأعلن السكرتير العام للأمم المتحدة فى عام ١٩٦٢ قبوله عرض السلطان، وتشكلت لجنة لاستقصاء الحقائق فى عمان، برئاسة السفير السويدى فى إسبانيا. وقامت اللجنة فى مارس ١٩٦٣ بزيارة لمسقط، كما تقابلت مع الإمام غالب بن على فى الدمام. وبعد استقصائها للأوضاع فى مسقط عمان، وسؤالها عدداً كبير من العمانيين، رفعت تقريراً مفصلا إلى السكرتارية العامة لهيئة الأمم، ويمكن الرجوع إلى نص هذا التقرير فى منشورات الأمم المتحدة عن عمان، وهو الذى أشرنا إليه فى هذه الدراسة.

السلاطين مع الدول الأجنبية، حيث كان يشار فيها إلى لقبه باسم سلطان مسقط وعمان ، وأن معاهدة السيب ليست معاهدة بالمعنى المقرر فى العرف الدولى لإنها لا تعدو اتفاقية تم عقدها بين حكومة السلطان وبعض رؤساء العشائر التى تتضمنها دولته ، وأن تلك الاتفاقية لا تعدو منح تلك فيها لتلك القبائل بعض التوسع فى مباشرة اختصاصاتها الداخلية . وإنه لما يثير التهكم أن تصر بريطانيا على وحدة مسقط وعمان وأن تقف موقف المدافع عن وحدة بلد عربى . ولكن شتان الحال بين وحدة تتم برغبة العمانيين وبين وحدة تفرض عليهم تحت سيطرة بريطانية . وفى أثناء الدورات المتتالية للجمعية العامة للأمم المتحدة، حيث عرضت القضية العمانية للمناقشة ، اختلفت الآراء بشأنها فاعتبرها البعض مشكلة استعمارية ينبغى تصفيتها ، واعتبرها البعض الآخر مسألة داخلية على حين رأى آخرون عدم اتخاذ قرار فيها قبل استكمال بحثها .

وأصحاب الرأى الأول، وهم ممثلو الدول العربية ومن يؤازرهم من دول المجموعة الآسيوية الأفريقية ، يؤكدون وجهة نظرهم فى أن المشكلة استعمارية ، نظراً للمعاهدات غير المتكافئة التى عقدتها بريطانيا طوال القرن التاسع عشر حتى الوقت الحالى ، ولا سيما المعاهدات التى عقدت فى السنوات الأخيرة لاستغلال المنطقة ، وإقامة القواعد العسكرية فيها ، فضلا عن أن تاريخ بريطانيا مع عمان اقترن بتجزئتها إلى تسع وحدات سياسية ، وهى السلطنة على الساحل ، وعمان فى الداخل ، والمشيخات السبع على الساحل العمانى . وهو ما تسميه بريطانيا بالساحل المتصالح . يضاف إلى ذلك ما اتجهت إليه بريطانيا من اقتطاع ملحقات عمان ، كما حدث فى عام ١٨٥٤ ، عندما حرضت السلطان سعيد على التنازل لها عن جزر كوريا موريا ، بالإضافة إلى مساعدتها لفارس فى الاستيلاء على البنادر والموانى العربية التى كانت تديرها عمان على الساحل الشرقى للخليج . ويمكن الإشارة أيضاً إلى الفصل الكبير بين مسقط وزنجبار فى عام ١٨٦١ بمقتضى تحكيم كاننج ، وكانت مسقط وزنجبار قبل ذلك سلطنة واحدة .

أما أصحاب الرأى الثانى ، فيؤكدون أن مشكلة عمان داخلية ،

ويستندون فى ذلك إلى قرار محكمة العدل الدولية الصادر فى ١٩٠٥، وهو يقضى باستقلال مسقط . ومن المعروف أن هذا القرار صدر على أثر أزمة فى العلاقات بين فرنسا وبريطانيا بشأن فرنسة السفن العمانية (١)، وعرفت هذه القضية باسم قضية سفن مسقط . وكان استقلال السلطنة فى صالح بريطانيا ، إذحرم على فرنسا التدخل لحماية العمانيين . ولكن ثمة حقيقة تستلفت النظر ، وهى أن قرار المحكمة تضمن وضع حدود للسلطنة بحيث تقتصر على الساحل دون الداخل ، إذ لم تكن سيادة السلطان على الداخل فى ذلك الوقت بعيدة عن حدود عاصمته .

وعلى الرغم مما تخضع له مسقط من إشراف بريطانى واضح فى شئونها الداخلية والخارجية، فإن بريطانيا لاتزال تصر على (استقلال) السلطنة وتبرر تدخلها ومساعدتها للسلطان بحكم ما يربطها به من معاهدات ، وإنها لم تتدخل إلا بناء على طلبه لقمع ثورات داخليه تلقى تأييداً من الخارج . وتؤكد بريطانيا أن الحالة أصبحت هادئة منذ عام ١٩٥٩، وعلى ذلك فلا داعي لإثارة هذه المشكلة .

وبعد فإن القضية العمانية تحتاج إلى اهتمام كبير ويجب أن نفهمها على أنها ليست، كما تحاول بريطانيا تصويرها، نزاعاً بين الإمامه والسلطنة ، بل ينبغى أن ننظر إليها على أنها مشكلة استعمارية ، وليست طريقة معالجتنا للقضية هى المطالبة بتجزئة عمان إلى سلطنة فى الساحل وإمامة فى الداخل ، أو التمسك بمعاهدة السيب ، فهذه المعاهدة ينبغى ألا نوليها أهمية ، لما تتضمنه من تكريس فصل مسقط عن عمان ، وما هذه المعاهدة إلا واحدة من تلك التسويات التى فرضتها بريطانيا على العالم العربى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . وثمة حقيقة أخرى يجب الإشارة إليها ، وهى أنه يظهر واضحاً فى معالجة قضية عمان أن التأكيد على الصفة التاريخية للإمامة، ووجود كيان لها

---

(١) انظر Firouz Kajare, Le Sultanate d'Oman et La Question de Mascate.

فى مختلف العصور التاريخية ، لا يؤثر شيئاً فى حد ذاته ، وأن معالجة القضية من هذه الزاوية فقط لن يفيد ، إذ تصبح بهذه الطريقة قضية تاريخية ، ولا يكون للكثيرين معلومات كبيرة عنها . وعلى ذلك ينبغى أن يتجه أسلوب معالجة هذه القضية إلى التركيز على وجود الاستعمار البريطانى فى عمان والخليج العربى ، وضرورة العمل على تصفيته ، وإلغاء كافة المعاهدات القديمة التى عقدتها بريطانيا مع إمارات الخليج ، وهى معاهدات أصبحت لا تتفق مع تطورات العصر . وهذا الأسلوب سوف يجتذب الكثير من الدول التى استقلت حديثا ، والتى عانت الكثير من الاستعمار ، وبذلك يمكن عملياً تسهيل القضية العمانية عند عرضها فى المنظمة الدولية . ولكن ينبغى كذلك ملاحظة أن المناقشات الدولية وحدها لا تحل المشاكل ، وإن كانت تساعدها على أن تمضى فى الطريق لإيجاد حل عادل ، وعلى ضوء ما مرت به الحركات التحررية عموماً من تجارب . والخلاصة أن الموقف يحتم أن تكون الثورة العمانية مستمرة ومتجددة ، وأن تجد تأييداً من الرأى العام العالمى ، لإزالة بقايا الاستعمار من العالم العربى .

ثم يأتى بعد ذلك حق تقرير المصير ، وإعطاء الشعب العمانى الفرصة لاختيار حكومة تحررية تقدمية تتفق مع تطورات العصر ، وأن يكون أول هدف تسعى إليه هذه الحكومة المستقبلة تخليص البلاد من الطائفية والقبلية ، مع المضى قدما فى تطويرها وإنقاذها من التخلف الذى فرض عليها أجيالا طويلة .

جمال زكريا قاسم

حجة تمليك ووقف

صادرة عن القاضى سديد الدين أبى محمد عبد الله

لمنفعة عتيقة أبيه واسمها خطلوا ابنة عبد الله

مقدمــــة توضيحية :

هذه الوثيقة محفوظة بمحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة، فى محفظة تحتوى على أربع وثائق، وهى بحسب ترتيبها الزمنى كالآتى(١) :

١ — وثيقة فاطمية، وهى حجة وقف الملك الصالح طلائع بن رزيك .
(٢٠ ربيع الثانى، ٥٥٤ هـ = ١١ مايو، ١١٥٩ م) .

٢ — وثيقة أيوبية، وهى حجة وقف ابنة جمال الدين محمد .
(٢٤ ذو القعدة، ٦٣٧ هـ = ١٧ يونيه، ١٢٣٩ م) .

٣ — وثيقة خاصة بالقاضى سديد الدين أبى محمد عبد الله، وهى المنشورة هنا،
(١٩ شعبان، ٦٤٩ هـ = ٧ نوفمبر، ١٢٥١ م) .

٤ — وثيقة من أوائل عصر دولة المماليك الأولى، وهى حجة وقف فخر الدين يعقوب بن أبو بكر بن أيوب
(١٢ شوال ٦٥١ هـ = ٥ ديسمبر ١٢٥٣ م) .

وجميع هذه الوثائق الأربع غير منشورة، والوثيقة المنشورة هنا مكتوبة على قطعتين من الرق موصولتين، وطولها ١٢٩ سم، وعرضها ٤٣ سم، وأولها تالف . ويتخللها ثقوب، وخطها فى معظمه غير منقوط، كما هو الحال فى العصر الأيوبى .

وموضوع هذه الوثيقة تنازل خطلوا ابنة عبد الله، وهى جارية حشرية رومية الجنس مسلمة، عن دار لها وفى حيازتها، إلى ابن سيدها القاضى

---

(١) محكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة، محفظة رقم ١ .

سديد الدين أبى محمد عبد الله ، حتى لا تؤول الدار إلى ديوان المواريث الحشرية بعد وفاتها دون وارث . ذلك أن ديوان المواريث الحشرية تولى النظر فى شئون أموال الحشريين ، وهم الذين يتوفون بلا وارث شرعى(١) . ويبدو أن أولئك الحشريين كانوا يضيقون بقوانين ذلك الديوان ، ويتنازلون فى حياتهم عما يمتلكون من عقار ثابت ، أو أموال منقولة ، بمختلف الوسائل الشرعية . وكان منشأ ذلك أن الناس اعتقدوا أن العقارات والأموال التى تؤول إلى ديوان المواريث الحشرية لا تصل إلى إيرادات ذلك الديوان ، وبالتالى لا تصرف فى وجوه الأوقاف والخيرات المقررة ، بل تذهب إلى جيوب الموظفين . ويؤيد ذلك الاحتمال قول النابلسى فى كتابه لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية ، أنه إذا توفى حشرى ، وله أموال عند أشخاص متفرقين فى أقاليم الديار المصرية ، كانت عادة الديوان أن يهمل تلك الأموال كائنا ما يكون مقدارها ، لاستحالة تحصيلها . وهذا كلام يشتم منه على الأقل أن موظفى هذا الديوان كانوا يختبئون وراء هذه الاستحالة المزعومة ، ثم يجمعون تلك الأموال لأنفسهم على مر السنين(٢) .

وثمة أهمية ثانية لهذه الوثيقة ، وهى أنها توضح طريقة من طرق التصرف فى العقارات الخاصة بالوقف ، حتى لا تؤول إلى ديوان المواريث الحشرية ، إذ أن الوارد فى الحجة أن الدار المذكورة صارت من ممتلكات القاضى سديد الدين ، وأنه أوقفها بدوره على خطلوا معتقة أبيه ، تنتفع بها بالسكن والإسكان وقبض أجرتها ، مدة حياتها . فإذا توفيت خطلوا لم تذهب الدار إلى ديوان المواريث الحشرية ، بل تصبح وقفاً على ورثة القاضى من الإناث دون الذكور ، وهن فاطمة وخديجة وزينب وآسية ، وعلى عتيقة الست خطلوا المذكورة . وفى هذه الحالة يصبح لديوان الأحباس حق فى الإشراف

---

(١) انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣١٩ ، والقلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ٣ ، ص ٤٦٤ .

(٢) النابلسى : كتاب لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية ، ص ٥٤ ، نشر.
Claude Cahen & C. Becker (Bulletfn d'Eiudes Orientales, Tome XVI, Années 1958—1960, Damas 1961.)

على تلك الدار(١) . وأهمية ثالثة لهذه الوثيقة أنها تصف الطراز المعمارى المنزلى فى العصر الأيوبى ، كما تشرح نوعاً من التوثيقات الشرعيـــة والإشهادات فى ذلك العصر(٢) .

نص الوثيقة :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على [سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم] (٣) / أقرت خطلوا ابنة عبد الله ، الحرة ، الرومية الجنس ، المسلمة المرأة الكامل ، عتيقة القاضى الأجل الرئيس المحترم [الأمين زكى الدين] (٤) / أبى محمد عبد القوى بن القاضى الأجل المحترم الأمين أبى الفتوح نصر بن بقا ، مشارف(٥) رباع الأيتام بالقاهرة المحروسة كان رحمه الله عند شهوده طوعاً فى صحة / منها وجواز أمر وسلامة ، غير مكرهةولا مجبرة ولا جاهلة بماأقرت به فيه ، فى ليلة صباحها تاسع شعبان(٦) سنة تسع وأربعين وستمائة ، أنها ملكت / ولد معتقها المذكور ، القاضى الأجل ، الرئيس العدل المحترم

---

(١) انظر ابن مماتى : نفس المرجع ، ص ٣٥٦ ، حاشية ١ ، وكذلك المقريزى : المواعظ والاعتبار وذكر الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ . (طبعة بولاق) .

(٢) انظرعبد اللطيف إبراهيم : التوثيقات الشرعية والإشهادات ، سلسلة الوثائق التاريخية القومية ، العدد الثانى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١٩ ، جزء ١ .

(٣ ، ٤) ما بين الحاصرتين ضائع فى الأصل ، ما عدا بقايا حروف غير واضحة ، ولعل المراد ما هنا .

(٥) المقصود بالمشارف الموظف المكلف بجمع المتحصلات المالية ، وطلب البيانات التفصيلية الكاملة ، من أية جهة من الجهات الضريبية التى تقع فى دائرة عمله . انظر

ابن مماتى : نفس المرجع ، ص ٣٠٢ ــ ٣٠٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ٨ ، ص ٣٠٤ .

(٦) فى الأصل « سعبان » ، وسوف يدأب الناشر على تكميل الناقص من النقط فيما يلى ، دون إشارة لذلك عموماً .

الأمين ،سديد الدين أبا محمد عبد الله بن القاضى الأجل الرئيس المحترم الأمين زكى الدين / أبى محمد عبد القوى بن القاضى الأ[جل المحترم](١) الأمير أبى الفتوح نصر بن بقا ، ما ذكرت أنه لها ، وفى يدها وملكها وتصرفها ، وهو جميع الدار / [الآتى] (٢)ذكرها ووصفها وتحديدها فيه ، وهى بالقاهرة المحروسة بحارة الروم السفلى(٣) ، بدرب يعرف بالحارث وعرف بالحجرى ، وصفتها . . . ٤ / الباب المربع عليه زوج أبواب، يدخل منه إلى دهليز مسقف بقطع نخل ، علوه غير داخل فى هذا التمليك،وهو خارج عن حقوق هذه الدار، [وينتهى الدهليز] (٥) / المذكور،إلى باب مربع يدخل منه إلى دهليز [بد] باب لطيف ، يتوصل منه إلى قاعة سفلى ، تشتمل على أربعة مخازن ، منها ثلاثة(٧) بأبواب وذات(٨) المرتفقين المجاورين كل منهما غشيم(٨) وبينهما عمودان رخاماً حاملان لضلع وبستل ، وفى الدهليز المذكور سلم معقود بالحجر ، يصعد من عليه إلى باب مربع ، يصار منه إلى أربع طباق . . . /. . . . .(١١)

---

(١) ما بين الحاصرتين ضائع فى الأصل ، ما عدا بقايا حروف ، ولعل المراد ما هنا .

ولم تذكر كتب التراجم المبادلة شيئاً عن الأشخاص المذكورين فى هذه الوثيقة، غير أنه من المعروف أن سديد الدين الوارد هنا تولى وظيفة من وظائف القضاء .

(٢) انظر الحاشية السابقة .

(٣) ذكر المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٨) أن حارة الروم انقسمت إلى حارة الروم السفلى، وحارة الروم العليا أو الجوانية .

(٤) موضع هذه النقط عدة ألفاظ ضائعة فى الأصل.

(٥) ما بين الحاصرتين ضائع فى الأصل،ولعل المراد ما هنا

(٦) فى الأصل « ثلثة » ، بدون الألف الوسطى

(٧) الغشيم هنا الخشب الخام

Steingass : Persian—English Dictionery.

(٨) موضع هذه النقط غير واضح فى الأصل .

ويحيط بجميع هذه الدار ويحصرها ويشتمل عليها [وعلى ...] (١) / حقوقها كلها ، حدود أربعة ، الحد الأول منها ، وهو القبلي ، ينتهي إلى دار تعرف بنجم ..... (٢) [والحد](٣) الثاني وهو البحري ينتهي إلى / فندق يعرف بمخلوف بن على الحلال ، ثم بورثته ، والحد الثالث ، وهو الشرقي ، ينتهي إلى دار تعرف بأبي القيم بدر ولعلي بن دوّاس السيوفي [وإلى الدرب](٤) / المقدم ذكره وفيه بابها ، والحد الرابع منها، وهو الغربي، ينتهي إلى الخشابين المعروفة بحارة الطوارق، ويجاورها من هذا الحد دار تعرف بخليف بن عبيد [ملك هذه الدار](٥) / بحدودها وحقوقها ومرافقها، وأرضها وبنائها، وسفلها وعلوها، وما يعرف بها وينسب إليها من حقوقها كلها خلا علو الدهليز الأول المقدم ذكره أعلاه الخارج عن حقوق هذه الدار، فإنه لم يدخل في هذا التمليك ملكاً صحيحاً شرعياً ، يجيزه الشرع الشريف وتقتضيه أحكامه ، قبله القاضي العدل سديد الدين ، المقر له فيه من معتقد / أبيه خطلوا المذكورة لنفسه قبولاً شرعياً ، وسلمت خطلوا المقرة المذكورة ، للقاضي العدل سديد الدين المقر له فيه ، الدار المقر بها فيه ، المحدودة فيه، فتسلمها منها تسلم مثله لمثلها، وصارت بيده [كأمثاله](٦) / ، ومالا من ماله يتصرف فيها كيف شاء ، وذلك بعد اعترافهما بمعرفة هذه الدار المعرفة الشرعية النافية للجهالة ، وأنهما نظراها وأحاطا بها علماً وخبرة . ولما كان بتاريخ التاسع عشر من شعبان سنة تسع وأربعين وستمائة ، أشهد القاضي الأجل العدل المحترم الأمين سديد الدين أبو محمد عبدالله

---

(١) ما بين الحاصرتين ضائع في الأصل .

(٢) موضع هذه النقط بقايا حروف غير واضحة .

(٣) ما بين الحاصرتين ضائع في الأصل .

(٤، ٥، ٦) ما بين الحاصرتين ضائع في الأصل ما عدا بقايا حروف ، ولعل المراد ما هنا .

المقر له فيه المذكور على نفسه شهوده طوعاً فى [صحة](١) منه وجواز أمر وسلامة ، أنه تصدق ووقف وحبس وحرّم وأبّد ، ما هو له وفى يده وملكه ملكاً صحيحاً شرعياً ، ونظره حالة هذه الصدقة ، [وأحاط](٢)/به علماً وخبرة نافية للجهالة ، وهو جميع الدار الموصوفة المحدودة أعلاه [خلا علو الدهليز الأول](٣)، صدقة صحيحة شرعية ، موقوفه محبسة محرمة/ مؤبده، لا تباع ولا توهب ولا تملك ولا تورث ولا ترهن ولا يبادل بها ، على معتقة أبيه خطلوا ابنة عبدالله، الحرة الرومية الجنس المسلمة المذكورة المملكة أعلاه، مدة حياتها تنتفع بها بالسكن والإسكان وقبض أجرتها أسوة أمثالها، فإذا توفيت كان النصف والربع ثمانية عشرة سهما من أربعة وعشرين شائعا من هذه الدار / المحدودة أعلاه ، خلا علو الدهليز الأول المستثنى منه أعلاه، الخارج عن حقوق هذه الدار ، وقف على بنات هذا الواقف المذكور لصلبه الأربع خاصة / دون باقى أولاده، وهن فاطمة وتدعى ست العيال، البالغ، وخديجة وتدعى ست الفقهاء ، المعصر(٤) ، الشقيقتان اللتان رزقهما من زوجته نفيسة . . .(٥) وزينب السداسية العمر ، واسيه الرباعية العمر ، الشقيقتان اللتان رزقها مستولدته نزهة المولدة الجنس المسلمة ، بالسوية بينهن إن كن موجودات، أو من كان منهم بالسوية بينهن، فإن لم يكن منهن / إلا واحدة

(١، ٢) ما بين الحاصرتين ضائع فى الأصل ، ما عدا بقايا حروف غير واضحة، ولعل المراد ما هنا .

(٣) ما بين الحاصرتين مكتوب بين السطرين .

(٤) المعصر هى السيدة التى بلغت من العمر عشرين سنة ولم تنجب .المحيط .

(٥) موضع هذه النقط ألفاظ غير واضحة فى الأصل.

كان النصف والربع بكمالة لها ، فإن كن الأربع موجودات يوم ذاك وتوفيت احداهن ، عاد ما كان لها من النصف والربع لأخواتها الثلاث الباقيات بعدها فى قيد الحياة بال[سوية](١) / بينهن مضافا لما لهن من ذلك . فإن توفيت إحدى الثلاث عاد ما كان لها من ذلك ، لاختيها الباقيتين بعدها فى قيد الحياة بالسوية بينهما مضافا لما لهما من ذلك ، فإن توفيت إحداهما / عاد ما كان لها لأختها الباقية بعدها فى قيد الحياة مضافا لما لها من ذلك ، تنتفع بذلك أيام حياتها، فإذا توفيت، [البنت الرابعة، ولم يبق منهن أحد] (٢) ، عاد ربع هذا الوقف وهو النصف والربع شائعامن هذه الدار ، وقفا على أولاد هذا الواقف القاضى العدل سديد الدين المذكور ، الموجودين يوم ذاك، ذكورا كانوا أو إناثا ،واحداً كان أو أكثر، وعلى من يحدثه الله تعالى له من الأولاد ، ذكورا كانوا أو اناثا / واحدا كان أو اكثر ، بالسوية بين الجميع ، لامزية لذكر على انثى. فمن توفى من أولاد هذا الواقف ، سواء كان له ولد أو لم يكن ، عاد نصيبه لأخوته أهل طبقته من أهل هذا الوقف / أولاد هذا الواقف بالسوية بينهم ،لامزية لذكر على انثى ، يجرى الحال فيهم كذلك . فإذا لم يبق منهم إلا ولد واحد ، ذكرا كان أو انثى ، عاد النصف والربع بكماله له ، فإن لم يكن للواقف المذكور / يوم ذاك أولاد ذكور ولا إناث ، أو كانوا وانقرضوا على ماعين أعلاه ، وتوفى الآخر منهم، ولم يبق منهم أحد ولا حمل يرجع بنسبه للواقف المذكور أعلاه ، عاد النصف والربع من هذه الدار، وقف على أولاد أولادهذا الواقف القاضى العدل سديدالدين المذكور، الموجودين يوم ذاك ذكورا كانوا أو اناثا ، واحدا كان أو أكثر بالسوية بينهم ، لامزية لذكر / على أنثى ثم على أولادهم ، ثم على أولاد ، أولادهم ثم على أولاد أولاد أولادهم، أبدا ماتوالدوا وتناسلوا ، طبقة بعد طبقة ، وبطنا بعد بطن ، تحجب الطبقة العليامنهم الطبقة السفلى، أبداً / ماتوالدوا وتعاقبوا، بالسوية بينهم ، لامزية

(١) ما بين الحاصرتين ضائع فى الأصل ، ولعل المراد ما هنا .

(٢) ما بين الحاصرتين مكتوب بين السطرين.

لذكر على انثى . على أن من توفى من أهل هذا الوقف ، ولم يكن له ولد، ولا ولد ولد ،ولا أسفل من ذلك من ولد الولد ، عاد نصيبه لاخوته أهل طبقته من أهل هذا الوقف بالسوية بينهم ، لامزية لذكر على انثى، سواء كان واحدا أو اكثر ، ذكرا كان أو أنثى، يجرى الحال بينهم كذلك، فإن لم يبق منهم إلا ولد واحد , عاد النصف والربع بكماله له / أيام حياته . وإن لم يكن للواقف المذكور يوم ذاك أولاد ، ذكورا ولا إناثا ، أو كانوا وانقرضوا على ماعين أعلاه، وتوفى الآخر منهم وانقرضوا بأسرهم ، ولم يبق منهم أحد ،ولا حمل يرجع / بنسبه لهذا الواقف من جهة أب وأم ، عاد النصف والربع من هذه الدار وقف على من يرجع لهذا الواقف بتعصيب بالسوية بينهم، فإن لم يكن ، فعلى من يرجع إليه برحم بالسوية بينهم ، فان لم / يكن ، عاد النصف والربع من هذه الدار وقف على فقراء المسلمين حيث كانوا ، يتولى الناظر فى هذا الوقف قبض مستغل(١) النصف والربع من هذه الدار ، وصرفه على الفقراء المذكورين على ما يراه/ بحسب طاقته واجتهاده . والربع الباقى من هذه الدار، وهو ستة أسهم من أربعة وعشرين سهماً شائعاً من جميعها ، وقف على حلم(٢) المولدة الجنس المسلمه ابنة عبد الله الحره،عتيقة خطلوا المذكورة/ المقره المملكه الموقوف عليها ، أولا أيام حياتها تنتفع بذلك بالسكن والإسكان وقبض الأجرة أسوة أمثالها أن كانت موجودة يوم ذاك ، فإن لم تكن موجودة يوم ذاك ، أو كانت / وتوفيت ، عاد الربع المذكور وقفاً على بنات القاضى العدل سديد الدين الواقف المذكور الأربع المذكورات أعلاه خاصة ، وهن فاطمة وتدعى ست العيال ، وخديجة وتدعى / ست الفقهاء،وزينب السداسية العمر، وآسية الرباعية العمر، بالسوية بينهن، إن كن موجودات يوم ذاك ، [أو أحداهن](٣)مضافاً لما لهن من ذلك على ما فصّل أعلاه،فإن لم تكن موجودات

---

(١) المستغل هو كل ما أغل من أرض أو عقار أو حانوت أو سوق . المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٧١، حاشية٢ .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) ما بين الحاصرتين مكتوب بين السطرين .

أو كن وانقرضن / على ما فصّل أعلاه ، عاد الربع المذكور وقفاً على أولاد الواقف المذكور على ما فصل وبين أعلاه ، مضافاً لما لهم من ذلك فإن لم يكونوا موجودين ، أو كانوا وانقرضوا على ما فصل وبين أعلاه ، عاد / لربع المذكور وقفا على أولاد أولاد هذا الواقف المذكور ، ثم على أولادهم، ثم على أولاد [أولاد](١) أولادهم، ثم على أولاد أولاد [أولاد](٢)أولادهم ونسلهم وعقبهم. على ما نص وشرح أعلاه ، مضافاً لما لهم من ذلك . فإن لم يكن / لهذا الواقف يوم ذاك أولاد أولاد ، ولا وجد لهم نسل ولا عقب ، أو كانوا وانقرضوا على ما فصل وبين أعلاه ، عاد الربع المذكور وقف على من يرجع لهذا الواقف بتعصيب على ما بين أعلاه ، مضافاً لما لهم من ذلك، فإن لم يجد فعلى من يرجع إليه برحم مضافاً لما لهم من ذلك ، فإن لم يجد فعلى فقراء المسلمين حيث كانوا على ما بين أعلاه، مضافاً لما لهم من ذلك ، كل ذلك بين الموقوف عليهم بالسوية / لامزية لذكر على انثى خلا الفقراء ، فإن الناظر فى هذا الوقف يصرف مستغله عليهم يوم ذاك ، على ما يراه من تفضيل ومساواة، وإعطاء وحرمان، وذلك جميعه خلا علو الدهليز الأول / من هذه الدار، الخارج عن حقوقها المستثنى منه أعلاه ، فإنه لم يدخل فى هذا الوقف . وذلك بعد البداية بعمارة هذه الدار الموقوفة المحدودة أعلاه، ومرمتها وإصلاحها/ وما فيه الحفظ لعينها والنمو فى أجرتها . وعلى أن الناظر فى هذا الوقف يؤجره سنه فما دونها، ولا يدخل عقداً على عقد. وجعل الواقف المذكور القاضى العدل / سديد الدين ، النظر له والولاية عليه لنفسه أيام حياته ، ثم من بعد وفاته لولده لصلبه فتح الدين نصر الله ، إن كان موجوداً يوم ذاك ، فإن لم يكن موجوداً كان النظر لولده/ لصلبه أيضاً جمال الدين أحمد، إن كان موجوداً أيضاً يوم ذاك (٣)فإن لم يكن موجوداً كان النظر للبالغ الرشيد ...(٣) من أهل

(١،٢) ما بين الحاصرتين مكتوب بين السطرين .

(٣) موضع هذه النقط كلمة غير واضحة فى الأصل

هذا الوقف، فإن لم يكن فى أهل هذا الوقف بالغ رشيد ، كان النظر لحاكم المسلمين يوم ذاك بالقاهرة المحروسة، يولى ذلك من يراه من عدوله وأمنائه ، فإن بلغ من أهل هذا الوقف أحد وأنس رشده ، عاد النظر إليه / فإن عدم عاد النظر للحاكم المذكور ، يجرى الحال فى ذلك كذلك إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، فقد تمت هذه الصدقة ووجبت، وصارت صدقة موقوفة محبسة محرمة مؤبدة جائزة ماضية لوجه الله تعالى وطلب ثوابه ، وابتغاء مرضاته، والقربة لديه وللذلفى عنده، لا تباع ولا توهب ، ولا تملك ولا تورث، ولا ترهن ولا يناقل بها محفوظة / على شروطها، مسبلة على نسبلها المذكورة فى هذا الكتاب لا يوهنها اختلاف عصر ولا يبطلها تقادم عهد، كلما مرّ عليها زمان أكدها، وكلما أتى عليها أوان سددها، وكلما / حللها محلل حرمت، وكلما تأوّل فيها متاول تأكدت، وكلما قدح فيها قادح صحت ووجبت، إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين. فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم (١). وقبلت خطلوا الموقوف عليها أولا هذه الصدقة قبولا شرعياً، ورفع هذا الواقف عن هذه الدار يد ملكه رفعاً تاماً، ووضع عليها يد ولايته ، يتصرف فى ذلك تصرف مثله فى مثل ذلك، وبه شهد فى التاريخ المعين أعلاه، وهو التاسع عشر من شعبان سنة تسع وأربعين وستمائة / . . . . . (٢)

أشهدنى القاضى الأجل الرئيس العدل المحترم الأمين	أشهدنى القاضى الأجل
سديد الدين المملك الواقف وخطلوا المملكة الموقوف	الرئيس العدل الأمين سديد
عليها فيه أولا بما نسب إليهما بأعاليه فشهدت عليهما بذلك فى	الدين الواقف المذكور بذلك
التاريخين المذكورين أعلاه المكتتبين فى العشر الأواسط من شعبان	كتبه أبو القاسم عبد المنعم

(١) سورة البقرة ، آية ١٨١ .

(٢) موضع هذه النقط سطور غير واضحة القراءة .

سنة تسع وأربعين وستمائة كتبه عبد الله بن الكامل

فى تاسع عشر شعبان سنة تسع وأربعين وستمائة

أشهدنى القاضى الأجل الرئيس

العدل الأمين سديد الدين

الواقف المذكور بذلك

كتبه عبد الحق بن عيسى بن عمر فى

التاسع عشر من شعبان سنة

تسع وأربعين وستمائة

أشهدنى القاضى
اجل الرئيس
المحترم العدل الأمين
سديد الدين
الواقف المذكور
بذلك
كتبه محمد بن محمد
ابن خلكان
فى تاسع عشر
شعبان سنة
تسع وأربعين
وستمائة

أشهدنى القاضى الأجل الرئيس المحترم العدل
الأمين سديد الدين المملك الواقف وخطلوا المملكة
الموقوف عليها بما نسب إليهما بأعاليه فى تاريخيه
المذكورين أعلاه وهما ليلة تاسع شعبان ونهار التاسع
عشر منه الذى من سنة تسع وأربعين وستمائة
كتبه عبد الصمد بن ثقيف

أشهدنى القاضى الأجل الرئيس المحترم العدل الأمين
سديد الدين المملك المقر له الواقف المذكور

وخطلوا المملكة المقرة الموقوف عليها ،
بما نسب إليهما بأعاليه ، فى تاريخيه المذكورين أعلاه
وهما ليلة يسفر صباحها عن تاسع شعبان
واليوم التاسع عشر من شعبان من سنة تسع
وأربعين وستمائة فشهدت عليهما بذلك
كتبه عثمان بن على بن يحيى
وأشهد أن خطلوا المقرة المملكة المذكورة فيه
مالكة لما ملكته إلى حين خروجه عن ملكها إلى ملك القاضى
العدل سديد الدين ، وأشهد أن القاضى العدل سديد الدين
مالك لما وقفه أعلاه
كتبه عثمان بن على بن يحيى (١)

(١) الخطوط المائلة الواردة فى المتن للدلالة على أوائل السطور فى الأصل ، وكذلك علامات الترقيم الحديثة والضبط ، كلها وسائل توضيحية من عمل الناشر لتسهيل القراءة والبحث . ويسر الناشر أن يشكر هنا د . عبد اللطيف إبراهيم لمراجعته هذه الوثيقة وتصحيحه عدداً من مواضع التصحيح بها .

حسنين محمد ربيع

مقتبسات من ابن إياس

المقتبسات المختارة هنا منقولة بنصها للقارىء، من الطبعة الأخيرة من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور، مع تشريح الفقرات فى كل مقتبس منها بكثير من علامات الفصل والوصل والترقيم.

وأول هذه المقتبسات فاتحة أخبار سنة ٩٠٨ ﻫ (١٥٠٢ م)، وهى السنة الثالثة من عهد السلطان قانصوه الغورى، حين تم أمر هذا السلطان فى السلطنة، وثبتت قواعد دولته، فأخذ فى إعلان اسماء الموظفين لحكومته. أما منبع اختيار هذه الصفحات، فهو احتواؤها على تصوير استاتيكى شامل لجميع كبار الموظفين فى السلطنة المملوكية الجديدة، قبل أن يتحركوا فى دوائر وظائفهم المختلفة، وهو تصوير يقف بالقارىء ويستوقفه، ليرى منه لنفسه أن مصر المملوكية لم تكن للمصريين، من قريب أو بعيد، بل كانت لفئات من المماليك الأجانب المسيطرين باسمائهم واسماء زوجاتهم، وزطاناتهم التركية وغير التركية، على جميع شئون البلاد الإدارية والاقتصادية والاجتماعية.

ويتلو هذا التصوير جملة من أخبار السلطنة المملوكية، صغيرها وكبيرها، وبعضها سياسى، وبعضها اقتصادى أو غيره، حسبما اتفق من الترتيب الزمنى المطلق، سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، ويوماً بعد يوم، وهو ماتجرى عليه كتب الحوليات التاريخية فى جميع اللغات الشرقية والغربية فى العصور الوسطى.

والمقتبس الثانى أخبار جاءت من مكة إلى القاهرة مع مبشر الحاج، أواخر سنة ٩١٢ ﻫ (١٥٠٦ م)، وهى تصف لأول مرة، وفى قليل من التفصيل، جميع أعمال البرتغاليين فى مياه المحيط الهندى والمداخل الجنوبية للبحر الأحمر، منذ مجىء السفن البرتغالية من غرب أوربا إلى تلك الجهات، عن طريق رأس الرجاء الصالح، أى منذ عشر سنين قبل وصول هذه الأخبار الموجزة إلى القاهرة. ويبدو من هذه الأخبار التى أوردها ابن إياس، عرضاً ضمن أخبار مكة والمحمل المصرى السنوى، أن المعلومات الجغرافية المملوكية بصدد البرتغاليين وأهدافهم واتجاهاتهم كانت حتى وقتذاك ضئيلة قليلة جاهلة،

وأن إفاقة السلطنة المملوكية للخطر البرتغالى على شرايينها التجارية الواصلة وقتذاك إلى الهند جاءت متأخرة ، وكان تأخيرها هذا سبباً من عديد الأسباب التى أنزلت بأسطول مملوكى كبير هزيمة بحرية مشهورة ، على أيدى البرتغاليين فى المياه الهندية ، شمالى بومباى الحالية ، كما أنزلت بجيوش مملوكية بقيادة السلطان قانصوه الغورى نفسه هزيمة أكثر شهرة ، على أيدى العثمانيين ، وهى هزيمة مرج دابق شمالى حلب الشام .

والمقتبس الثالث بيان وصفى لهزيمة مرج دابق ، وهى الهزيمة التى ختمت بخاتم الانهيار على السلطنة المملوكية فى مصر ، وافتتحت بها السلطنة العثمانية سلسلة انتصاراتها الزاحفة عبر الشام إلى مدينة القاهرة ، حيث أعلن السلطان سليم العثمانى نهائياً أن مصر باتت ولاية تابعة للعثمانيين . وفى مطلع هذا المقتبس تصوير للجيش المملوكى ، وعلى رأسه السلطان قانصوه الغورى يرتب الصفوف استعداداً للحرب والقتال ، وكأنه وحاشيته وقادته فى موكب العودة من انتصار مملوكى كبير ، أو احتفال بمولد من موالد الأولياء الصالحين ، أو بيوم الخروج لصلاة أحد العيدين . غير أنه لم تكن بضع ساعات حتى صار ذلك الموكب الاستعراضى الحافل مركزاً دارت حوله معركة حامية دامية ، بدأت بمأساة سقوط السلطان قانصوه الغورى ميتاً بالفالج فى الميدان ، وانتهت بمأساة انهزام الجيش المملوكى ورجوعه القهقرى مفلولاً مكسوراً إلى حلب ودمشق ، ثم إلى القاهرة .

والمقتبس الرابع ترجمة طويلة للسلطان قانصوه الغورى ، بعد وفاته فى مرج دابق ، وهى ترجمة تحليلية ناقدة لأعمال هذا السلطان ، وصفاته الشخصية وسياسته . ويبدو واضحا من نغمة هذه المقتبس أن ابن إياس لم يكن من المعجبين بالسلطان قانصوه الغورى ، وأن محاسن هذا الرجل لم تكن فى نظره شيئا بالقياس إلى مساوئه . غير أن ابن إياس لم يكن منصفاً فى هذا التقدير ، لأنه أغفل فيه أن هذا السلطان الطاعن فى السن اعتلى دست السلطنة فى دولة نخرت فيها عوامل الاحتضار والزوال منذ سنين ، وربما كانت الرغبة فى مقاومة هذه العوامل هى التى أدت بهذا الرجل الطيب القلب إلى اتخاذ ما اتخذ من إجراءات إنقاذية مالية تعسفية كثيرة .

والمقتبس الخامس قائمة بأسماء بعض الأمراء المماليك والقضاة ، وكبار الموظفين والمهندسين والتجار، وأساتذة المهن والحرف والصناعات ،من المصريين وغير المصريين ، ممن قرر السلطان سليم الأول العثمانى إخراجهم من القاهرة ونفيهم إلى إسطنبول ، لأسباب متعددة ، وربما كانت الوطنية المصرية أحد هذه الأسباب . وتبلغ هذه المجموعة نحو مائة من الرجال ، ولكنها تبلغ أكثر من ذلك ، سواء من ناحية الكم العددى ، أو الكيف الفنى ، بدليل ما أورده ابن إياس فى كتابه ، قبل هذه القائمة وبعدها ، من اسماء خرج أصحابها منفيين من القاهرة إلى إسطنبول . فضلا عن أن هذه الاسماء ما تقدم منها وما تأخر ، اشتملت فى الواقع على مجموعة المهارات الإدارية والصناعية التى اقتلعها العثمانيون من مصر ، ليفيدوا منها فى بناء عمائرهم التى تزدان بها إسطنبول الحالية . ولم تكن هذه الخسارة أول الخسائر المصرية أو آخرها ، بسبب الاستيلاء العثمانى على مصر ، وهى تدل فيما تدل على أن مصر فقدت وقتذاك السيطرة على مستقبلها القريب والبعيد ، وذلك لمدة أربعة قرون مظلمة ، وتناول منها كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور مايزيد عن خمس سنوات قصيرة ، أى حتى سنة ٩٢٨هـ (١٥٢٢م)، وهى السنة التى توفى فيها محمد أحمد بن إياس .

المقتبس الأول

فاتحة أخبار السنة الثالثة

من عهد السلطان قانصوه الغورى

ثم دخلت سنة ثمان وتسعمائة ، فيها فى المحرم كان خليفة الوقت يومئذ الإمام المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز ، والسلطان يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى .

وأما القضاة الأربعة فالقاضى برهان الدين إبراهيم بن أبى شريف المقدسى الشافعى ، والقاضى سرى الدين عبد البر بن الشحنة الحلبى الحنفى ، والقاضى البرهان إبراهيم الدميرى المالكى ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الشيشينى الحنبلى .

فلما دخلت هذه السنة ، وتم أمر السلطان فى السلطنة ، وثبتت قواعد دولته ، قرر الأمراء المقدمين أربعة وعشرين أميراً مقدم ألف ، منهم أرباب الوظائف ، وهم الأتابكى قيت الرجبى أمير كبير ، وقرقماس من ولى الدين أمير سلاح ، وأصطمر من ولى الدين أمير مجلس ، وقانى باى قرا من ولى الدين أمير آخور كبير ، وطراباى الشريفى نوبة النوب ، وأزدمر من على باى دوادار كبير ، وخاير بك من ملباى حاجب الحجاب ، وهو أخو قانصوه البرجى نائب الشام ، فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء المقدمون الذين بغير وظائف ، وهم خشكلدى البيسقى الظاهرى خشقدم ، وقانصوه بن سلطان جركس المعروف بابن اللوقا ، والأمير سودون العجمى ، ومامای المحمدى المعروف بجوشن ، وأنصباى من مصطفى ، وتمر الحسنى ، وطقطباى العلاى نائب القلعة ، وطقطباى من ولى الدين ، وهو الوزير والأستادار ، ودولات باى قرموط ، وقانصوه من طراباى المعروف بكرت ، وأرزمك الشريفى الناشف ، وأزبك من طراباى المكحل ، ونوروز من أزبك أخو يشبك الدوادار ، وأبو يزيد المحمدى ، وعلى باى السيفى يشبك الذى كان

نائب غزة ، وخاير بك السيفى إينال كاشف الغربية ، وجانبلاط المحمدى أخو قانصوه البرجى . انتهى العدد من ذلك .

ثم قرر (السلطان) من الأمراء الطبلخانات خمسة وسبعين أميراً ، منهم أرباب الوظائف عشرة ، وهم عبد اللطيف الزمام والخازندار الكبير ، والمقر الناصرى محمد بن السلطان شاد الشراب خاناه ، وجانم قريب الأشرف قانصوه خمسمائة أمير دوادار ثانى ، ومغلباى الشريفى الزردكاش الكبير ، وتمراز جوشن رأس نوبه ثانى ، وجان بردى تاجر المماليك ، وطومان باى قرا حاجب ثانى ، وقلج من ولى الدين أمير آخور ثانى ، وتانى بك من يشبك محتسب القاهرة وخازندار ثانى ، وعلان والى القاهرة ويعرف بعلان من قراجا ، وقانصوه من دولات بردى أستادار الصحبة ، فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء الذين بغير وظائف ، فهم قرقماس الشريفى ، وكان الأشرف جان بلاط أنعم على خشكلدى من ولى الدين بتقدمة ألف ، وعلى قرقماس الشريفى فلم يتم لها ذلك من بعده ، وآل أمرها إلى إمرة طلبخاناه ، وأزدمر من يشبك ، وخشكلدى من ولى الدين ، وقانصوه من برد بك ، وجانى بك من أزدمر ، وبرسباى العلاى ، وطخ المحمدى الذى كان نائب القلعة ، وقانصوه الإبراهيمى ، وتانى بك المعروف بالأبح ، وتانى بك النجمى ، وقيت الأحول ، ويشبك من تبوك ، وبرقوق من خجا بردى ، وشادبك الناصرى ، وجانباى المحمدى ، وجان بلاط من ولى الدين أيضاً ، وقرقماس من يشبك ، وتمرباى من سيباى ، وبكبلاط من أقباى ، وقانى باى من يشبك ، وجانم الإبراهيمى ، وأزبك الشريفى ، ومصرباى الشريفى وطومان باى من طوبزه ، ونوروز الشريفى ، وبلاط من حيدر ، ومامش الرجبى ، وكرتباى من حيدر ، ومغلباى من ختجا ، وجان بلاط من قانصوه ، وأصطمر من بشمان ، وقانى باى من أزدمر ، وسودون من مصطفى ، والماس من برد بك ، وقنبك من شاد بك ، وجانم من خضر ، وجان بردى من قانم ، وبرسباى الدمرداشى ، وتمر الإبراهيمى ، وجانى بك الشريفى ، وتنم من شاد بك ، ومامای من قيت ، وقانصوه من يشبك ، وقان بردى من قانصوه وأرزمك من بردبك ، وتمر باى السيفى قجماس خازندار العادل طومان باى ، وجانم من قانصوه ، ومسايد من حيدر ، وبرش من عبد الكريم ، ومسايد أيضاً من قانصوه ، وجانى بك قرا الشريفى ، وطرا باى الشريفى ، وقايتباى من

جانى بك المعروف بالأشـقر ، وشادى بك اليحياوى ، وقانصوه من يشبك ، وتانى بك السيفى أقبردى ودولات باى من مصطفى ، وقانى من سودون الإبراهيمى،وجانم من قجماس وطراباى من جانم ومغلباى من جانم ومصر باى الأبو بكرى،وجانى بك من حيدر ، انتهى العدد من ذلك .

ثم قرر السلطان الأمراء العشرات مائة وخمسة وثمانين أميراً ؛ وهم عنبر مقدم المماليك،وخشكلدى الشريفى وتبك الناصرى وأسنباى من برسباى وقراكز الشريفى وجانى باى من يشبك وبكتمر من ولى الدين وسنقر العلاى وقلج السيفى قانصوه خمسمائة، وجانم السيفى قايتباى، وأسنباى من قروس، وطقطمش السيفى إينال،وسيباى الأبو بكرى ، وإينال من جانم، وقانصوه الإبراهيمى وسودون من حيـدر، ويوسف من مصطفى، وعلان من ولى الدين، وأقبردى الحسنى وقنبك الشريفى وبهادر من قرقماس، وأزدمر من عبد الرحيم وبيبردى من جانبلاط وبرد بك الشريفى، وبيبردى من كسباى وأركماس السيفى قانصوه وبكباى من قراجا وطهاى باى من مصطفى، وأقبردى الشريفى وإينال باى من مصطفى وخاير بك من قجماس،وجانى بك من مهدى وأقباى السيفى يشبك وطوبى الناصرى وبرسباى من برد بك وبكبلاط المحمدى، وأزدمر من تمر باى وتانق من بخشاى ونوروز من يلباى وشـاهين الجمالى يوسف ناظر الخاص وجانم السيفى قايتباى ونوروز السيفى قانى باى وقنبـك السيفى يونس ودولات باى الإبراهيمى ، وجانى باى الحسنى وسـنطباى المحمـدى وتغرى بردى الشرفى ودولات باى السيفى يشبك وجانى بك من جانبلاط وأزدمر السيفى أينال وقانم من تاتق وقنبك من قانى باى أمير جندا ، وقصروه من قانصوه ، وتغرى بردى الترجمان،وقرقماس المحمدى، وجان بردى من ولى الدين وتغرى بردى الحسنى، وأزدمر المهنمندار ، وأزبك النصرانى أمير شـكار، وقانصـوه من أبى يزيد، وقنصوه الناصرى ، وأبرك السيفى لاجين ، وبلباى من على باى، وأبو يزيد من قانصوه ، ومغلباى من أياس ودولات باى المحمدى وقانصوه من جانم وتانق من أنت ، وتبك من أزرم، وقطلو باى من عبدالرحيم، وقانى باى من أزرم وقرقماس الإبراهيمى،وأزبك من قانصوه، وماماى من قبيد، وجانم من قجماس، وقانصوه العلاى، وقلج الشريفى،وعلى باى من صدقة، ونكبلاط من قانصوه

وإياس المحمدى وقانصوه من يشبك، وبرسباى من جانى بك، وقانصوه من عبدالرحيم، وطراباى السيفى أزبك، ونوروز العلاى وملاج من برد بك، وبرسباى السيفى يشبك، وجانى باى الحسنى وكريم بردى من قروس، وأزبك من مصطفى وقانصوه من جابلاط، وقرقماس الشريفى وتمر من ولى الدين ودولات باى من أزبك وأزبك الشريفى، وكان بلا من مغلباى، وبكباى السيفى أزبك، وتغرى بردى المحمدى، وتبك المحمدى، وبرد بك السيفى، وقانى باى، وبيبرس من قرقماس وأركماس الإبراهيمى، وأركماس السيفى أزبك ويوسف البدى كاشف البحيرة وهو الوزير الآن، وبيبرس من يشبك وخاير بك العلاى، وأقبـاى من يشبك وتبك من أياس، وجانم من يشبك، وقانصوه من جانم ومصرباى من لاجين وخايربك الشريفى وجانم المحمدى وعلى باى السيفى خشكلدى وجانى بك الناصرى كاشـف منفلوط وجابلاط الشريفى قوان بردى الشريفى وأزبك الإبراهيمى وقانم من كرتباى وتغرى برمش السيفى كسـباى وأبرك الشريفى وجانم من مصطفى وأقبردى من قلج وأقطوه من قانصوه ويوسف من مصطفى وقانصوه من عبدالرحيم وتمرباى من حكم وبيسق اليوسف وأقطوه من يشبك وبرسباى من قراجا وجان بردى من مصطفى وتنم من قانى باى واقبردى المحمدى أيضاً وبرمش من بيبردى وبرد بك من أيدكى وأسنباى من برد بك وقطلو باى من تمر وقاينباى من طوبرزه، وكرتباى السيفى يشبك، وقان بردى من قجماس وأركماس السيفى قانصوه وتنم السيفى أرغون شاه، وقراكز السيفى جكم، وبكبلاط الأبريـكى ونوروز من الماس وبرد بك السيفى يشبك وأينال السـيفى أزبك وقانصوه من درويش وتمراز من إينال باى وخشكلدى من أركماس، وقيت من حيدر، وقانى باى الرمضانى، وجانى بك من ولى الدين، والماس من قردمش وتمر باى السيفى أزبك، وجان بلاط من جانم، ومغلباى من قيت وتمراز من أقباى وقرقماس السيفى برد بك ومامش المحمـدى وعلى باش السيفى إينال، وبرد بك الإبراهيمى، وسودون من درويش، ومغلباى اليوسفى وأيدكى الشريف وشاد بك من قانصوه وسيباى من جانى بك، وجانى باى المحمدى، وقانصوه من قانى باى، وقانصوه من ولى الدين أيضا، وطراباى من قانصوه، وبيبرس من قانصوه، وخدا بردى الشريف، وشاهين معلم الدبوس، انتهى العدد من ذلك .

واجتمع فى هذه السنة من الخاصكية ثمان مائة خاصكى على ما قيل ثم تزايد عدد الخاصكية فيما بعد حتى صاروا ألف ومائتى خاصكى .

أما النواب بالبلاد الشامية، فكان ممن قرر بها من أوائل هذه السنة ، وهم قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى نائب الشام ، وسيباى المعروف بنائب سيس قرر فى نيابة حلب ، وقرر جانم فى نيابة حماة ، وقرر دولات باى قرابة العادل فى نيابة طرابلس، وكان قبـل ذلك نائب الشام ، وفر ثم عاد وقرر فى نيابة طرابلس ، وقرر سودون الدوادارى فى نيابة صفد ، وقرر فى نيابة غزة قانصوه قرا ويعرف بقانصوه الجمل ، وكان العادل قرره فى نيابة حلب وما تم ذلك، وهو الان مقدم ألف بمصر ، وقرر ملاج فى نيابة القدس، وقرر أيدكى فى نيابة قطية ، ونائب الإسكندرية قانصوه خمسمائة السيفى يشبك الدوادار ، ونائب دمياط شخص من الأتراك يسمى فارس المنصورى عثمان ، فهذا كان حكم النواب بالبلاد الشامية فى أوائل هذه السنة ، ثم تغيرت الأحوال من بعد ذلك، وانتقلت النيابات إلى آخرين من الأمراء يأتى الكلام عليهم .

وأما أرباب الوظائف من المتعممين ، وهم القاضى بدر الدين محمود بن أجا الحلبى الحنفى كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، والقاضى شهاب الدين أحمد ابن الجمالى يوسف ناظر الجيوش المنصورة ، والقاضى صلاح الدين بن الجيعان مستوفى ديوان الجيش وناظر الخزائن الشريفة ، والقاضى يحيى الدين عبدالقادر القصروى ناظر الجيش كان، وهو الآن ناظر الكسوة الشريفة وناظر الجوالى ، والشهابى أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ، وشمس الدين محمد بن مزاحم ناظر الإسطبل الشريف ، ومتحدثاً فى جهات الخاص يومئذ ، من حين توفى ناصر الدين الصفدى ، ثم فى عقيب ذلك تولى نظارة الخاص علاى الدين بن الإمام، وهذه ثانى ولاية، وقد راج أمره فى هذه المرة إلى الغاية ، وكان يومئذ القاضى فخر الدين بن العفيف كاتب المماليك السلطانية ، وموفق الدين بن القمص الأسلمى ناظر الذخيرة والمتحدث على أوقاف الزمامية ، وعبد الباسط ابن تقى الدين ناظر الزردخاناه ، والشرفى يونس النابلسى ناظر الديوان المفرد ، ومحمد بن يوسف ناظر الأوقاف ، وصاحب ديوان الأحباس شمس الدين بن العبسى ، وصاحب ديوان جيش الشام بدر الدين بن الإنبابى، وشريكه يوسف

ابن السيرجى . أما الوظائف التى غير هؤلاء فكان ، نقيب الجيش يومئذ الشرفى يونس بن الأقرع ، ومعلم المعلمين يومئذ البدرى حسن بن الطولونى . انتهى ذلك .

فهذا كان ترتيب دولة الغورى فى أوائل سنة ثمان وتسعمائة ، ثم انتقلت من بعد ذلك الإمريات والوظائف إلى جماعة كثيرة من الأمراء والمباشرين ، يأتى الكلام عليها فى موضعه من ولاية وعزل .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن مضى الخامس عشر من المحرم ولم يعلم للحجاج خبر ، ولا حضر المبشر ، فكثر القيل والقال بسبب ذلك . فلما كان يوم الأحد تاسع عشره حضر هجان ، وأخبر أن أحوال الحاج مضطربة إلى الغاية ، وإن الجازانى ابن أمير مكة قد أظهر العصيان ، وخرج عن الطاعة ، والتف عليه يحي بن سبع أمير الينبع ومالك بن رومى أمير خليص ، وطائفة من عرب الحجاز يقال لهم بنى إبراهيم ، قد خرجوا على ركب الحاج الشامى فى رابغ ، قبل أن يدخلوا إلى الينبع ، فنهبوا الركب عن آخره وقتلوا الرجال ، وأسروا النساء ، وفعلوا مالا فعله تمرلنك لما دخل إلى الشام .

فلما جاءت هذه الأخبار إلى القاهرة اضطربت أحوال الناس لهذه الأخبار ثم انقطعت أخبار الحاج مدد طويلة لم يأت من عندهم خبر .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه الموافق لرابع مسرى زاد الله فى النيل المبارك عشرين أصبعا ، ثم أوفى فى يوم الأحد ثامن مسرى ، وزاد عن الوفاء أحد عشر أصبعا ، فكان فتح السد فى يوم الاثنين تاسع الموافق لسابع عشرين المحرم وهو سابق على النيل الماضى بيوم واحد ، والفضل سبعة عشر أصبعا عن النيل الماضى . فلما أوفى توجه الأتابكى قيت الرجبى ، وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

وفى صفر فى مستهله نزل الحاج إلى البركة على حين غفلة ، ثم فى يوم السبت ثانيه دخل المحمل إلى القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل أصطمر من ولى الدين أمير مجلس ، وبالركب الأول الناصرى محمد بن خاص

بك ، ودخل الحاج وهو فى غاية النكد ،بسبب ماجرى على الناس فى طريق الحجاز .

وكان من ملخص واقعة الحجاج،وهوماستفاض بين الناس،أن أصطمر أمير الحجاج لما وصل إلى بطن مرو قبل أن يدخل إلى مكة، لاقاه الجازانى من هناك ، فأحضر إليه أصطمر خلعة وقال له أكنت تستقر أمير مكة احمل للسلطان خمسين ألف دينار ، فقال الجازانى نعم أنا احمل للسلطان هذا القدر ، فألبسه الخلعة حتى طمنه ، وقد أظهر العصيان من قبل ذلك،وجرى منه أمور شتى ثم إن اصطمر أرسل فى الدس مكاتبة للشريف بركات اخى الجازانى بأن يجمع العربان ويلاقيه حتى يقبض على الجازانى ، فلما أحس الجازانى بذلك تسحب تحت الليل من بطن مرو ، وكان اصطمر أرشل قليل الدربة ، فلما تسحب الجازانى لاقى الركب الشامى فى رابغ،وجرى منهم ماتقدم ذكره من قتل ونهب وأسر النساء ، فلما دخل الحاج إلى مكة وبلغه ذلك اضطربت الأحوال إلى الغاية ،ووقف الحاج بالجبل،وهم على وجل من الجازانى وعرب بنى إبراهيم ، فلما انتهى الوقوف بالجبل وخرج الحاج من مكة قال اصطمر للشريف بركات أخرج معنا ولاقى الجازانى ، فلما خرج الشريف بركات صحبه الحاج ووصل إلى مكان يسمى الدهنة،فلاقاه أخوه الجازانى فى جمع كثير من عرب بنى إبراهيم ، فأرسل الجازانى يقول لأصطمر:لاتدخل بينى وبين أخى ودعنا نقتتل فى بعضنا،وخذ أنت الحاج وامض ، فلم يسمع أصطمر منه ذلك، ثم حضر يحيى بن سبع أمير الينبع ،وصار عونة مع الجازانى ، فاتفقوا مع الشريف بركات ، ودخل أصطمر بينهم،ونادى فى الركب بأن من كان معه سلاح يحضر عونة على قتال الجازانى . فاجتمع الجم الغفير من الجمالة العكام والضوية،فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصى،وآل الأمر إلى كسرة أصطمر أمير ركب المحمل ، وقتل ممن كان معه من المماليك السلطانية نحو من مائة مملوك، غير الغلمان والطفش . وتمت الكسرة على من كان بركب المحمل فى ذلك اليوم ونهب كل مافيه حتى عروا النساء من أثوابهن، وأخذوا عصايبهن من على رؤوسهن ، وقاسين من الشدة مالا خير منه ، وتخلف غالب الحاج بالينبع،وصاروا ينزلون فى مراكب من البحر الملح ويدخلون إلى القاهرة بعدمدة طويلة وهم فى

أنحس حال . وقاسوا فى هذه السنة غاية المشقة ، وجرى عليهم كل سوء . — وقيل إن الجازانى لم يفحش فى حق من بالركب الأول، كما فعل بمن فى ركب المحمل وقد راعى الناصرى محمد ابن خاص بك دون أصطمر، وكان متأثرا من أصطمر . فلما جرى ذلك رجع الشريف بركات إلى مكة وهو مهزوم من أخيه الجازانى ، فلما رجع من بقى من الحجاج إلى الأزنم وجدوا الآبار قد ردمت بالحجارة ، فمات من الحجاج جماعة كثيرة بالعطش. فلما وصلو بالحجاج إلى العقبة لاقاهم جماعة من عربان بنى لام، فعوقوهم عن طلوع العقبة. وأفردوا عليهم ثلاثة آلاف دينار. فجبى أمير الحاج ذلك من الحجاج ودفعها للعرب حتى مكنوهم من طلوع العقبة ، ودخلوا إلى بركة الحاج وهم فى أسوأ حال ، فلما طلع الأمير أصطمر والناصرى محمد بن خاص بك إلى القلعة، ووقفوا بين يدى السلطان وبخهما بالكلام بسبب ما جرى على الحجاج من الجازانى وابن سبع ، ثم رسم بادخال اصطمر إلى قاعة البحرة ورسم أيضاً على الناصرى محمد بن خاص بك ووكل به، ثم أرسل بالقبض على قاضى القضاة الحنفى عبدالبر بن الشحنة ووكل به، وقد وشى به عند السلطان بأنه كاتب يحيى بن سبع وأيقظه بأن السلطان يقصد القبض عليه فأوسع خياله حتى عصاه على ماقيل . وكذلك قبض السلطان على أزدمر المهمندار. قيل أن يحيى بن سبع كاتبه ولم يعلم السلطان بذلك ، فصار لكل واحد منهم ذنب. واستمر الحال على ذلك .

وفى الثلاثاء خامس صفر توفى جان بلاط المحمدى أحد مقدمى الألوف ، وهو أخو قانصوه البرجى نائب الشام ، فلما مات دفن فى تربة أخيه خاير بك التى أنشأها بباب الوزير ، وكانت مدته فى التقدمة يسيرة ومات عقيب ذلك .

وفى تاسع صفر رسم السلطان بإخراج أصطمر منفياً إلى ثغر دمياط ، فنزل من القلعة بعد العشاء وتوجهوا به إلى البحر؛ وسار فى مركب إلى دمياط، وهو مقيد بقيد ثقيل .

وأما قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة، فرسم السلطان بنفيه إلى قوص ، وكان ببيت نقيب الجيش هو وأزدمر المهمندار، فشفع فيهما الأتابكى قيت الرجبى، ثم بعد أيام أخلع السلطان على القاضى عبد البر، وأعاده إلى القضاء على عادته ،

وشفع فى أزدمر المهمندار أيضاً ـ وأما الناصرى محمد بن خاص بك فإنه أقام فى التوكل مدة أيام،وقرر عليه السلطان عشرين ألف دينار ، واستمر على ذلك حتى ضمنه الأمير قرقماس أمير سلاح،وتسلمه من السلطان وشفع فيه حتى حط عنه خمس آلاف دينار. واستمر الناصرى عند قرقماس فى الترسيم نحوا من ثلاثة أشهر حتى غلق ما قرر عليه من المال وأتى إلى بيته وحصل له غاية الضرر.

المقتبس الثانى

أخبار أعمال البرتغاليين

فى المداخل الجنوبية للبحر الأحمر

وفيه حضر مبشر الحاج ، وأخبر بأن العسكر لما انتصر على يحي بن سبع توجه إلى مكة ووقف بالجبل ، وأخبر بأن العيد كان هناك يوم الجمعة ، وإن مكة مغلية .

وأخبر أيضاً أن الفرنج كثر تعبثهم ببحر الهند،وإن حسين باش العسكر المتوجه إلى هناك يشرع فى بناء أبراج على ساحل جدة وسور ، وقد جهزوا المراكب إلى الخروج إلى عدن ، فسر السلطان لهذا الخبر ، لكن تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد،وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركبا ، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ، ويقطعون عليهم الطريق فى الأماكن المخيفة ، ويأخذون مامعهم من البضائع حتى عز وجود الشاشات والأزُر من مصر وغيرها من البلاد .

وسبب هذه الحادثة أن الفرنج تحيلوا حتى فتحوا السد الذى صنعه الإسكندر بن فليس الرومى ، وكان هذا نقبا فى جبل بين بحر الصين وبحر الروم ، فلازالوا الفرنج يعبثون فى ذلك النقب مدة سنين حتى انفتح،وصارت تدخل منه المراكب إلى بحر الحجاز ، وكان هذا من أكبر أسباب الفساد .

وفى أواخر هذه السنة ظهر الطاعون ببلاد الصعيد ، ولم يقع بها فى سنة عشر وتسعمائة لما ظهر بالقاهرة.

وفى هذه السنة طلع إلى السلطان شخص يسمى أبو المرافع ، وقال له أنا ألتزم لك بمائتى وخمسين ألف دينار أستخلصها لك ممن أعرفه ولا، تنتطح فى ذاك شاتان . فمال السلطان إلى كلامه، وقصد أن يخلع عليه،وشرع فى ذلك ، فاجتمع بعض الأمراء بالسلطان ورجعه عن ذلك،فرجع ولله الحمد .

المقتبس الثالث

وصف هزيمة الجيوش المملوكية فى مرج دابق

وفى يوم السبت سادس شعبان أشيعت هذه الكاينة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ، وما ذاك أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة ، ثم حضر كتاب على يد ساع مطرد من عند الأمير علان الدوادار الثانى أحد الأمراء المقدمين ، فذكر فيه أن السلطان كان يكذّب فى أمر سليم شاه بن عثمان ويصدّق إلى أن حضر مغلباى دوادار سكين،وهو فى حال النحس ، بزمط أقرع على رأسه ،وهو لابس كبر عتيق دنس ، وراكب على إكديش هزيل ، وقد نهب بركه وأخذت خيوله وقماشه ، وأخبر أن ابن عثمان أبى من الصلح ، وقال له : قل لأستاذك يلاقينى على مرج دابق ، وأخبر أنه وضعه فى الحديد ،وقصد أن يحلق لحيته وقدمه إلى المشنقة عدة مرار حتى شفع فيه بعض وزرائه ، وحمله الزبل من تحت خيله فى قفة على رأسه، وقاسى منه من البهدلة مالاخير فيه . فلماسمع السلطان ذلك تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان ، فقيل إنه أنعم على مغلباى بألف دينار وخيول وقماش وبرك فى نظير ماذهب له .

والذى استفاض بين الناس من أخبار السلطان أنه صلى الظهر ، وركب وخرج من ميدان حلب : يوم الثلاثاء فى العشرين من رجب ، وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة ، وكان تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب ، فخرجوا بأطلاب حربية وطبول وزمور ونفوط حتى رجت لهم حلب ، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلى حيلان ، فبات بها .

فلما أصبح يوم الأربعاء حادى عشرين رجب ،رحل السلطان من حيلان وتوجه إلى مرج دابق ، فأقام به إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب ، وهو يوم نحس مستمر ، فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان . فصلّى السلطان صلاة الصبح، ثم ركب وتوجه إلى زغزغين وتل الفار ، وقيل هناك مشهد نبي الله داود عليه السلام. فركب السلطان وهو بتخفيفة صغيرة،وملوطة بيضاء وعلى كتفه طبر،وصار يرتب العسكر بنفسه. فكان أمير المؤمنين عن ميمنته وهو بتخفيفة وملوطة ، وعلى كتفه طبر مثل السلطان . وعلى رأسه الصنجق الخليفتى . وكان حول السلطان أربعون مصحفا فى أكياس حرير أصفر على رءوس جماعة أشراف . وفيهم مصحف بخط الإمام عثمان ابن عفان رضى الله عنه . وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم :خليفة سيدى أحمد البدوى ومعه أعلام حمر ، والسادة الأشراف القادية ومعهم أعلام خضر ، وخليفة سيدى أحمد بن الرفاعى ومعه أعلام خليفتى ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنا بأعلام سود . وكان الصبى قاسم بك بن أحمد بك ابن عثمان المقدم ذكره واقفاً بإزاء الخليفة،وعلى رأسه صنجق حرير أحمر . وكان الصنجق السلطانى واقفا خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعا ، وتحته مقدم المماليك سنبل العثمانى والسادة القضاة،والأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين. وكان ميمنة العسكر سيباى نائب الشام ، وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب .

فقيل أول من برز إلى القتال الأتابكى سودون العجمى وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالا شديدا هم وجماعة من النواب، فهزموا عسكر ابن عثمان، وكسروهم كسرة مهولة، وأخذوا منهم سبعة صناجق ، وأخذوا المكاحل التى على العجل ورماة البندق . فهمّ ابن عثمان بالهروب، أو بطلب الأمان ، وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان ، وكان النصرة لعسكر مصر أولا ، ويا ليت لو تم ذلك .

ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان : لا تقاتلوا شيء وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم ، فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال . فبينما هم على ذلك وإذا بالاتابكى سودون العجمى قد قتل فى المعركة ، وقتل ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، فانهزم من فى الميمنة من العسكر . ثم إن

خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة . وأسر الأمير قانصوه بن سلطان جركس، وقيل قتل . ويقال أن خاير بك نائب حلب كان موالساعلى السلطان فى الباطن ، وهو مع ابن عثمان على السلطان ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد ، فكان أول من هرب هو قبل العسكر قاطبة .

وكان ذلك خذلاناً من الله تعالى لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر ، فصار السلطان واقفا تحت الصنجق فى نفر قليل من المماليك ، فشرع يستغيث للعسكر : ياأغوات هذا وقت المروة ، قاتلوا وعلىّ رضاكم ، فلم يسمع له أحد قولا ،وصاروا ينسحبون من حوله شيئا بعد شىء ، فالتفت للفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم : ادعوا إلى الله تعالى بالنصر. فهذا وقت دعاكم ، وصار مايجد له من معين ولا ناصر ، فانطلق فى قلبه جمرة نار لاتطفى . وكان ذلك اليوم شديد الحر ، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صار لايرى بعضهم بعضا ، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر ، وغلت أيديهم عن القتال .

فلما اضطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ، فخاف الأمير تمر الزردكاش على الصنجق ،فأنزله وطواه وأخفاه ، ثم تقدم إلى السلطان وقال له : يا مولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا ،فانج بنفسك، واهرب إلى حلب . فلما تحقق السلطان ذلك نزل عليه فى الحال خلط فالج ابطل شقته وأرخى حنكه ،فطلب ماء فأتوه بما فى طاسة ذهب ،فشرب منه قليلا ، وألفت فرسه على أنه يهرب ، فمشى خطوتين وانقلب من على الفرس إلى الأرض ، فأقام نحو درجة وخرجت روحه .ومات من شدة قهره ، وقيل فقعت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر . وقيل إنه لما رأى الكسرة عليه ابتلع فص ماس كان معه ، فلما نزل جوفه غاب عن الوجود .وسقط عن فرسه ،ومات من وقته ، على ما قيل من هذه الإشاعة .

فلما أشيع بموته زحف عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان ، فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين قريب السلطان ، والأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى أحد المقدمين ، وقتلوا جماعة من الخاصكية ومن غلمان السلطان ممن كان حوله .

وأما السلطان فمن حين مات لم يعلم له خبر ، ولا وقف له أحد على أثر ، ولا ظهرت جثته بين القتلاء ، فكأن الارض قد انشقت وابتلعته فى الحال ، وفى ذلك عبرة لمن اعتبر . فد اسوا العثمانية المصاحف التى كانت حول السلطان بأرجل الخيول ، وفقد المصحف العثمانى وأعلام الفقراء وصناجق الأمراء ، ووقع النهب فى عسكر مصر ، وزال ملك الأشرف الغورى على لمح البصر ، فكأنه لم يكن ، فسبحان من لايزول ملكه ولا يتغيير ، بعد ماتصرف فى ملك مصر وأعمالها والبلاد الشامية والحلبية وأعمالها ، فكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما ، فإنه ولى ملك مصر فى مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ، وتوفى فى الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فكانت الناس معه فى هذه المدة فى غاية الضنك .

وقد أقامت هذه الواقعة من طلوع الشمس إلى بعد الظهر ، وانتهى الحال على أمر قدره الله تعالى ، فقتل فى تلك الساعة من عسكر ابن عثمان ومن عسكر مصر مالا يحصى عدده ، فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة ، وهم الأتابكى سودون العجمى وبيبرس قريب السلطان وأقباى الطويل ، وأسر قانصوه بن سلطان جركس ، وقتل سيباى نائب الشام وتمراز نائب طرابلس وطراباى نائب صفد وأصلان نائب حمص ، وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء دمشق وأمراء حلب وطرابلس ، وقتل من أمراء مصر جماعة كثيرة من أمراء طلبخانات وعشرات وخاصكية وأكثر من قتل من عسكر المماليك القرانصة ، ولم يقتل من المماليك الجلبان إلا القليل ، فإنهم لم يقاتلوا فى هذه الوقعة شيئاً ، ولا ظهر لهم فروسية ، فكأنهم خشب مسندة وقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى ضبطه ، وقتل من أمراء مصر ومن دمشق وحلب فوق الأربعين أميراً . وقتل فى ذلك اليوم القاضى ناظر الجيش عبد القادر القصروى ، وجماعة كثيرة من الجند يأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، فكانت ساعة يشيب منها الوليد ، ويذوب لسطوتها الحديد ، فصار فى مرج دابق جثث مرمية ، وأبدان بلا رءوس ووجوه معفرة فى التراب قد تغيرت محاسنها . وصار فى ذلك المكان خيول مرمية موتى بسروج مغرق وسيوف مسقطة بذهب وبركستوانات فولاذ ، وخوذ وزرديات وبقج قماش فلم يلتفت إليها أحد ، وكل من العسكرين اشتغل بما هو أهم من ذلك .

المقتبس الرابع

السلطان قانصوه الغورى

فى تقدير المؤرخ محمد أحمد بن إياس

ومن هنا نرجع إلى أخبار الأشرف الغورى ، فإنه خرج من القاهرة يوم السبت خامس عشر ربيع الآخر من هذه السنة ، واستمر نافذ الكلمة وافر الحرمة إلى أن دخل حلب وأقام بها ، وأرسل إليه ابن عثمان عدة قصاد، وهو تارة يظهر الصلح وتارة يأبى ، والسلطان مسلوب الاختيار معه فى جميع مايرسل يقوله له ، ويخلع على قصاده الخلع السنية، وينعم عليهم بالعطايا الجزيلة ، إلى أن حضر مغلباى دوادار سكين الذى كان أرسله إلى ابن عثمان ، فلما رجع من عنده، وهو فى غاية البهدلة كما تقدم ، وكان السلطان أرسل مغلباى هذا إلى ابن عثمان وهو لابس آلة الحرب واللبس الكامل ، فشق ذلك على ابن عثمان وبهدله . فلما حضر إلى عند السلطان، وأعلمه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح ، فلما تحقق السلطان أن ابن عثمان قد أوصل إليه ، فنادى للعسكر بالرحيل والخروج من حلب ، فخرج العسكر قاطبة ، وهم كالنجوم الزاهرة، من آلة السلاح والخيول الغابرة، وكل فارس مقوّم بألف راجل من عسكر ابن عثمان . فتوجهوا إلى مرج دابق، ونزلوا به ، فأقام السلطان بمرج دابق إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب من هذه السنة .

فلما بلغه أن عسكر ابن عثمان قد وصل إلى تل الفار ، ركب صبيحة يوم الأحد المذكور، وهو يوم نحس مستمر ، فبرز فيه إلى قتال ابن عثمان، فكانت الكسرة أولا على عسكر ابن عثمان ، ثم بدل الله تعالى هذا الأمر وعادت الكسرة على عسكر مصر .

فلما رأى السلطان عين الغلب من عسكره أراد أن يرجع إلى حلب ، فلما ألفت فرسه ليهرب وينجو بنفسه ، فاعتراه سارقة من الرجفة ، فأغمى عليه ، فسقط من على ظهر فرسه إلى الأرض ، فطلعت روحه فى تلك الساعة ، وهو

ملقى على الأرض ، فرجعت عليه عساكر ابن عثمان ، ففر من كان حوله من الغلمان والسلحدارية والمماليك،وتركوا جثته على الأرض ، فكان آخر العهد به، ولم يُرد له جثة ولا رأس،ولا يعرف له مكان فكأنما ابتلعته الأرض،ولم يقف له أحد من الناس على خبر .

ومن العجائب أنه لم يدفن فى مدرسته التى صرف عليها نحو مائة ألف دينار، فصار مرمياً فى البرارى، وقد تناهشته الذئاب والنمورة ، فمات وله من العمر نحو ثمانى وسبعين سنة. ومن العجائب والغرائب، أن الطواشى مختص ، الذى كان بنى أساس مدرسة الغورى أولا وأخذها منه (الغورى) غصباً فى المصادرة، سأل الغورى أن يجعل له فى المدرسة مكاناً يدفن فيه إذا مات ، فمنعه الغورى من ذلك ، فمنع الله تعالى الغورى من الدفن فى مدرسته ، وصار لا يعرف له مكان قبر، فعدّ ذلك من العبر ، انتهى .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشر سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، فكانت هذه المدة على الناس كل يوم منها كألف سنة مما تعدون .

وكانت صفته طويل القامة،غليظ الجسد،ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهورى الصوت مستدير اللحية ، ولم يظهر بلحيته الشيب إلا قليلا .

وكان ملكاً مهاباً جليلاً مبجلاً فى المواكب ،ملء العيون فى المنظر ، ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية وحبه لجمع الأموال ،لكان خيار ملوك الجراكسة،بل وخيار ملوك مصر قاطبة .

وكان يركب يوم الاثنين والخميس بالحوش السلطانى ، ويوم السبت والثلاثاء بالميدان ، فينزل من السبع حدرات، وقدامه طوالتان خيل، بسروج ذهب وكنابيش ومياتر زركش .

وكان يكثر فى الأسفار من ركوب الحجورة بالسروج البداوى والركب العراض .

وكان يشد فى وسطه حياصة ذهب، عوضاً عن الشد البعلبكى . وكان يلبس فى أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر ، والفيروز والزمرد والماس وعين الهر . وكان مولعاً بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور ، وكان ترفا فى مأكله ومشربه وملبسه ، ويحب رؤية الأزهار والفواكه ، ويميل إلى أبناء العجم ، وربما كان يميل إلى مذهب النسيمية من ميله إلى معاشرة الأعاجم . وكان مولعاً بغرس الأشجار ، وحب الرياضات ، وسماع الأطيار المغردة ، ونشق الأزاهر المعطرة والبخور . وكان يستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء ، وكان يستعمل الأشياء المفرحة ، وكان نهما فى الأكل ، وكان يغوى طيور المسموع ، وكان يعرف بقانصوه من بيبردى الغورى .

واستمر يرتع فى ملك مصر على ما ذكرناه من التنعم والرفاهية ، وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة، والأمراء والنواب والعسكر فى قبضة يده، لم يختلف عليه اثنان، إلى أن وقعت الوحشة بينه وبين سليم شاه بن عثمان ملك الروم، فخرج إليه، وجرى له هذه الكاينة العظمى التى لم تقع قط لملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك . وكان ذلك فى الكتاب مسطوراً .

وأما ما عد من مساوئه ، فإنها كثيرة لا تحصى ، منها أنه أحدث فى أيام دولته من المظالم ما لا حدثت فى سائر الدول من قبله . ومنها أن معاملته فى الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات، جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز فى ملة من الملل . ومنها ما قرره على الحسبة فى كل شهر، وهو مبلغ ألفين وسبعمائة دينار ، فكانت السوقة تبيع البضائع بما تختاره من الأثمان، ولا يقدر أحد يكلمهم ، فيقولون : علينا مال السلطان ، فكانت سائر البضائع فى أيامه غالية بسبب ذلك . وقرر على دار الضرب ما لا له صورة فى كل شهر فكانوا يصنعون فى الذهب والفضة والنحاس والرصاص جهاراً ، فكان الأشرفى الذهب إذا صفوه يظهر فيه ذهب يساوى اثنا عشر نصفا . وقد سلم السلطان دار الضرب إلى شخص يسمى جمال الدين، فلعب فى أموال المسلمين، وأتلف المعاملة، وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منهم لا دينار ولا درهم . فلما شنق جمال الدين قرر فى دار الضرب المعلم يعقوب اليهودى فمشى على طريقة جمال الدين ، وقد استباح أموال المسلمين ،

فكان النصف الفضة ينكشف فى ليلته، ويصير من جملة الفلوس الحمر . فاستمر الغش فى معاملته فى مدة دولته إلى أن مات ، وقد ورد فى الحديث الشريف من غشنا فليس منا .

ومن مساوئه أنه كان سجن الريس كمال الدين بن شمس المزين بالمقشرة ، وأقام بها أياما ، وكان من المقربين عنده .

ومن مساوئه أنه كان يضع يده على أموال التركات الأهلية ، ويأخذ مال الأيتام ظلماً ، ولو كان للميت أولاد ذكور وأناث، فيمنعهم من ميراثهم ، ويخالف أمر الشرع الشريف .

ومنها أنه كان يولى الكشاف ومشايخ العربان على البلاد ، يقرر عليهم الأموال الجزيلة، فتفرده الكشاف ومشايخ على بلاد المقطعين والأوقاف وفيأخذ كل منهم المثل أمثال فضعف أمر الجند من يومئذ، وتلاشى حال البلاد .

وكان يولى النواب على أعمال جهات البلاد الشامية والحلبية ، ويقرر عليهم الأموال الجزيلة فى كل سنة بقدر معلوم ، فيأخذونه من الرعية بالظلم والعسف ، فكان كل أحد منهم يتمنى الرحيل من بلاده إلى غيرها من عظم الظلم الذى يصيبهم من النواب ، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذى أفرده عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة ، فما حصل على أهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير .

وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة، وآل أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات من مصر والأزر والأنطاع ، وأخرب البندر .

وكذلك بندر الإسكندرية وبندر دمياط ، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم ، وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الفرنج .

وكان كل أحد من الأراذل يتقرب إلى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم ، فقرر على بيع الغلال قدراً معلوماً يؤخذ على كل أردب ، وهى ثلاثة أنصاف من البائع والمشترى ، وكذلك على البطيخ والرمان ، حتى خرج على

بيع الملح ، وجدد فى أيامه عدة مكوس من هذا النمط ما لا فعله هناد فى زمانه .

ولم يفته من أعيان التجار أحد حتى صادره وأخذ أمواله ، ولا سيما ما جرى على الشيرازى والحلبى التاجر وغيره من التجار ، وصادر حتى أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وأخذ منه مالا له صورة ، ودخل فى جملة ديوان حتى أورد ما قرر عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال ، منهم القاضى بدرالدين بن مزهر كاتب السر كان ، ومنهم شمس الدين بن عوض ، ومعين الدين بن شمس ، وعلم الدين كاتب الخزانة ، وجماعة كثيرة من المباشرين والعمال ، ماتوا فى سجنه بسبب المال والمصادرات .

ومن أفعاله الشنيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج أقاطيعهم ورزقهم من غير سبب ، وأعطى ذلك إلى مماليكه الجلبان .

ومنها قطع جوامك الأيتام من الرجال والنساء والصغار ، فحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك .

ومنها أنه أرسل فك رخام قاعة ناظر الخاص يوسف التى تسمى نصف الدنيا ، فوضع ذلك الرخام فى قاعة البيسرية التى بالقلعة .

ومنها أنه قطع الممتدات التى كانت تسامح بها الناس من الديوان المفرد من تقادم السنين ، وجدد أخذ الحمايات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل وتزرع الأراضى ، فكانت المقطعون تقاسى من البهدلة ما لا خير فيه .

ثم تزايد شحه حتى صار يحاسب السواقين الذين فى سواقى القلعة ، والخولة الذين فى سواقى الميدان ، بجلة روث الأبقار وما يتحصل من ذلك كل يوم ، وقرر عليهم بيعها بمبلغ يردونه للذخيرة .

وكان أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه فى غاية الضنك لا يغفل عنهم من المصادرات ساعة واحدة ، وصادر حتى المغانى النساء من الرؤساء .

وكان من حين توفى الأمير خاير بك الخازندار يباشر أمر ضبط الخزانة

بنفسه ، ما يدخل إليها وما يخرج منها ، ويعرضون عليه الأمور فى ذلك جميعه من الوصولات بما يصرف من الخزائن فى كل يوم . فكانت هذه الأموال العظيمة التى تدخل إليه يصرفها فى عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويزخرف به الحيطان بالذهب والسقوف ، وهذا عين الإسراف لبيت مال المسلمين .

وكان يهرب من المحاكمات ، كما يهرب الصغير من الكتاب ، وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرض ، بل على أمور مستقبحة . وكان يتغافل عن أمور القتلاء ، ويدفع الأخصام إلى الشرع ، ويضيع حقوق الناس عليهم .

وكان يكسل عن علامة المراسيم ، فلا يعلم على المراسيم إلا قليلا ، فيوقف أشغال الناس بسبب ذلك كله . حتى كانت تشترى العلامة العتيقة بأشرفى حتى تلصق على المرسوم لأجل قضاء الحوايج . ولو شرحنا مساوئه كلها لطال الشرح فى ذلك . انتهى .

المقتبس الخامس

اسماء بعض المنقولين من القاهرة إلى إسطنبول

بأمر السلطان سليم الأول العثمانى

انتهى ما أوردناه من حوادث سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، وقد خرجت هذه السنة ومضت على خير ، وكانت سنة صعبة شديدة على الناس ، كثيرة الحوادث والفتن ، جرى فيها أمور شنيعة لم تجر فى سالف الأزمان .

وقتل فيها جماعة من الأمراء والعسكر والمماليك السلطانية فى فتنة ابن عثمان ، وقتل فيها من أهل مصر ممن ليس له ذنب ، فراح ظلما ، فقتل من الناس مالايحصى عددهم ، ولعب السيف فى أهل مصر سبعة أيام .

وقتل فيها ثلاثة سلاطين ، وهم الأشرف الغورى ، والأشرف طومان باى ، والظاهر قانصوه ، قتل فى البرج بثغر الإسكندرية . وتغيرت فيها ثلاث دول

وخرب فيها دور كثيرة ، ونهب فيها أموال وقماش مالا يحصى قدره ، وتيتم فيها أطفال ، وترمل فيها نسوان ، وجرت فيها مفاسد كثير ما لا يسمع بمثلها .

ولم تقاس أهل مصر شدة أعظم من هذه إلا فى زمن البخت نصر البابلى ، فإنه أخرب مصر وأحرقها حتى أقامت أربعين سنة خرابا ، فكان النيل يطلع وينطبط وينفرش على الأرض فلا تجد من يزرع أراضى مصر عليه ، وهذا كله كان بتقدير الله تعالى فيما جرى على أهل مصر ، ونسأل الله حسن الخاتمة ورد العاقبة إلى خير .

وقد وقفت على كتاب من تأليف الشيخ جلال الدين الأسيوطى رحمة الله عليه ، ذكر فيه أن فى هذا القرن يبدو الخراب فى مصر من سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ثم يتزايد الأمر إلى سنة خمسين وتسعمائة ، فيقع فيها فناء عظيم ، حتى يفنى من أهل مصر نحو النصف ، وقد ظهرت علامة ذلك فى هذه السنة .

ومن أعظم مساوىء سليم شاه ابن عثمان خروج أعيان رؤساء الديار المصرية ، وتفيهم إلى إسطنبول ، ونحن نذكر منهم ماتيسر ذكره .

ذكر من توجه فى هذه السنة إلى القسطنطينية

من أعيان رؤساء الديار المصرية ، وهم مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن المستمسك بالله يعقوب ، وأولاد ابن عمه سيدى خليل وهما أبو بكر وأحمد ، والمقر العلاى على بن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال .

ومن أولاد الأمراء الجناب الشرفى يونس بن الأتابكى سودون العجمى ، والجناب الناصرى محمد بن العلاى على بن خاص بك صهر الأشرف قايتباى .

ومن الأمراء بيبردى من كسباى الذى كان باش المجاورين أحد الأمراء العشرات ، وقراكز الجكمى أحد العشرات محتسب مكة ، وقانصوه القيم باش المدينة الشريفة ، وجماعة من المماليك السلطانية الذين كانوا مجاورين بمكة ، وجانى بك دواذار الأمير طراباى .

ومن أولاد الناس الشهابى أحمد بن البدرى حسن بن الطولونى معلم

المعلمين ، ويوسف بن أبى الفرج الذى كان نقيب الجيش ، ويحي بن نوكار الذى كان دوادار الوالى .

ومن نواب السادة الشافعية الشيخ زين العابدين بن قاضى القضاة كمال الدين الطويل ، والشيخ شرف الدين بن روق ، والشيخ شمس الدين الحليبى ، والشيخ شمس الدين بن وحيش ، والشيخ كمال الدين بن مظفر ، والشيخ بدر الدين البلقينى ، والشيخ برهان الدين الأنباسى ، والشيخ شمس الدين الحجازى ، والشيخ شمس الدين ابن الآدمى الدمياطى ، والقاضى شمس الدين المقسمى العزيزى ، والسيد الشريف الحجار ، والقاضى ولى الدين البتنونى بن الشارمساحى ، والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الأتميدى .

ومن نواب السادة الحنفية الشيخ زين الدين الشرنقاشى ، والسيد الشريف البرديني ، والشيخ بدر الدين بن الوقاد السعودى ، والشيخ بدر الدين محمد ابن الرومى .

ومن نواب السادة المالكية الشيخ شهاب الدين أحمد الفيشى ، والشيخ شهاب الدين الأبشادى .

ومن نواب السادة الحنابلة الشيخ شهاب الدين الهيتمى ، والشيخ جلال الدين الطنيدى ، والقاضى جمال الدين الحنبلى .

وأما من توجه إلى إسطنبول من السادة المباشرين السلطانية ، وهم المقر الشهابى أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص يوسف ، وابن أخيه بدر الدين بن كمال الدين ، والجناب الشمس محمد بن القاضى ، وصلاح الدين بن الجيعان ، والقاضى عبد الكريم أخو الشهابى أحمد بن الجيعان كاتب الخزائن الشريفة ، والقاضى زين الدين عبد القادر ابن الملكى مستوفى ديوان الجيوش المنصورة ، والشمس محمد بن البارزى ، والقاضى ابو البقا السيرجى من ديوان جيش الشام .

ومن كتاب المماليك : شمس الدين محمد بن فخر الدين كاتب المماليك ، وسعد الدين ، وفرج ، وكريم الدين وفتح الدين من أولاد ابن فخبرة وابن أبى المنصور ، ومحمد بن عبد العظيم ، ومحيى الدين بن بهاء الدين ، وشمس الدين محمد بن إبراهيم الشرايبشى ناظر أوقاف الزمامية ، وشمس الدين

محمد من أولاد ابن البقرى ، وأولاده ، وأبو الحسن بن الرقيق ، وعبد العظيم بن أبى غالب ، ويحيى بن الطنساوى ، وشهاب الدين بن عبد العظيم ، وعبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخاناه ، وولده زين ، وتاج الدين ، وعلى المرجوشى ، وأخو يونس الأستادار ، وابن الزكى ، ومحمد بن على كاتب الخزانة ، وأبو السعادات ، وأفضل الدين المنوفى ، وناصر الدين الغزى الموقع ، وأمجد بن قريميط ، وعبد القادر بن قريميط ، وولى الدين ناظر المواريث وعامل المواريث ، وسعد الدين أخو علاى الدين ناظر الخاص ، وبركات المنوفى ، وسعد الدين المنوفى أيضاً ، ومحمد بن الكويز ، وأحمد بن حشو الطن ، وابن نصر الله ، وكريم الدين صهر عبدالفتاح ، ومحمد بن أبى غالب ، وصفى الدين ، وابن الهيصم ، وتاج الدين بن البقرى ، وشقيقه ، وبركات بن سلما ، وكمال الدين الناصرى ، وحامل المزرة زين ، وعبد الرحمن مباشر أمير آخور كبير ، وبدر الدين بن خازوقة ورفيقه ، وأبو الفضل مباشر أمير آخور كبير ، وآخرون من المباشرين مايحضرنى اسماؤهم الآن .

ومن أعيان الناس المهتار محمد النجولى مهتار السلطان الغورى ، والمهتار سليمان ، ومحمد بن يوسف الدين كان ناظر الأوقاف ، وعلم الدين جلبى السلطان الغورى ، وعلى مقدم الدولة .

ومن الزردكاشية يحيى بن يونس ، ومحمد العادلى الشهير بابن البدوية ، وزين العابدين بن محمود الأعور ، وجماعة من السيوفية الصياقلة والسباكين والحدادين .

ومن تجار الباسطية شهاب الدين الخطيب الأسمر ، وأحمد الديروطى وأولاد ابن نفيس .

ومن تجار الوراقين ناصر الدين الماوردى ، ومحمد المسكى الأسود ، وعلى بن خشيم .

ومن تجار سوق مرجوش ابن الشقيرة ، وأبو الفوز بن الحمصانى ، وبدر الدين الغزولى شيخ سوق الغزل .

ومن تجار المغاربة الشيخ سالم ، وسعيد التاجورى ، وسعيد اللبدى ،

وأبو سعيدة، وآخرون لم يحضرنى أسماؤهم من التجار بأسواق القاهرة وغيرها من التجار الذين توجهوا إلى إسطنبول .

ومن الخدام مقدم المماليك سنبل العثمانى ، ونائبه جوهر الرومى ، وقيل إن جوهر توجه إلى القدس بطالا ، وآخرون من الخدام والسقاة .

ومن البردداربة كمال الدين بردار أمير كبير ، وعبد القادر ، وابن المنقار ، وشهاب الدين أحمد الجارحى قيل مات من الرجفة قبل سفره بأيام ، وابن الشيخ ، ومحمد بن رسلان ، وناصر الدين إسماعيل ، ومحمد الكاتب ، وأبو بكر ، وابن السميني ويحيى بن يحيى ، وبركات ابن المبيض ، ومحمد بن الجبان ، وبركات النائب ، وسعد الدين البحلاق ، ويحيى مقدم الخاص ، وحسن نائب البرماوى ، والسوهاجى ، ومحمد قطاره ، ومحمد بن فرو شيخ جهات المطرية ، وآخرون مايحضرنى اسماؤهم الآن .

ومن رءوس النواب فرج بن البريدى رأس نوبة حجاب الحجاب ، وآخرون من رؤس النوب ، ومقدمين السقايين ، عبيد ، وأبو الخير ، وابن فريخ الفار .

وتوجه إلى إسطنبول جماعة من البنائين والنجارين والحدادين ، والمرخمين والمبلطين والخراطين ، والمهندسين والحجارين والفعلة جماعة كثيرة مايحضرنى اسماؤهم الآن . وزعموا أن الخندكار ابن عثمان يقصد أن ينشىء له مدرسة فى اسطنبول ، مثل مدرسة السلطان الغورى التى فى الشرابشيين .

وتوجه إلى إسطنبول جماعة من طائفة اليهود والسامرة ، ومن طائفة النصارى بانوب الكاتب فى الخزائن الشريفة ، وأبو سعيد ، وأمين الدولة ، ويوحنا الصغير ، ويوسف بن هبول ، وشيخ المكين السكندرى وولده ، وآخرون من النصارى واليهود مايحضرنى اسماؤهم .

فيقال إن مجموع من خرج من أهل مصر وتوجه إلى أسطنبول دون آلاف إنسان ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، وفيهم نسوان أيضاً وأولادهم صغر رضع ، وشىء كبار .

ولم تقاس أهل مصر شدة من قديم الزمان أعظم من هذه الشدة ، ولا سمعت

بمثلها فى التواريخ القديمة ، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا : ففارقت الناس أوطانها وأولادها وأهاليها وتغربوا من بلدهم إلى بلد لم يطوؤها قط ، وخالطوا أقواما غير جنسهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وكانت سنة مشؤومة على أناس ، ومباركة على أناس ، وسعدت فيها أناس ، وتعست فيها أناس . وكانت سنة مباركة على المباشرين الذين بمصر ، وصاروا هم الملوك يتصرفون فى المملكة بما يختارونه من الأمور ، ولا سيما مافعلوه فى جهات الشرقية والغربية وجهات الصعيد . ووضعوا أيديهم على رزق الناس والإقطاعات ، ثم استدرجوا إلى أخذ أموال الأوقاف ، وصار ليس على يدهم يد يفعلون مايشاؤن من هذا النمط ، فغنموا فى هذه السنة أموالا جزيلة من البلاد مما أخذوه من خراج الناس ، فكان مجىء ابن عثمان إلى مصر رحمة فى حق المباشرين وغيرها من الناس ممن أودعوا عندهم الأمراء والعسكر الأموال والقماش وقتلوا فى الوقعة . فقعدوا على تلك الودائع ، وراحت على من راح . فكان كما يقال فى المعنى : مصائب قوم عند قوم فوائد . انتهى ذلك .

المقتبس السادس

اسماء بعض العائدين

وفى هذا الشهر قدم جماعة كثيرة من اسطنبول ، ممن كان قد نفى إليها من إعيان الديار المصرية . منهم ، كمال الدين بن معين الموقع ، وابن نصر الله . مرعى الذى كان من جماعة الأتابكى سودون العجمى ، وأحمد الصيروتى .

وحضر محمد بن فرو شيخ جهات الأميرية ، وحضر محمد بن قطارة الذى كان من جماعة المحتسب ، وحضر محمد بن إبراهيم الذى كان متحدثا على الزمامية . وحضر محمد بن القاضى فخر الدين ابن العمريطى ، وحسام الدين بواب الدهيشة ، وآخرون منهم لم يحضرنى اسماؤهم الآن ، والكل فروا من أسطنبول من غير إذن من الخندكار ابن عثمان .

وحضر جماعة من السيوفية والحدادين والنجارين والبنائين والمرخمين ، وغير ذلك ممن كان توجه اسطنبول . فحضروا الكل هاربين من غير علم الخند كار .

فلما حضروا اشيع بموت ابن شقيرة التاجر الذى من سوق مرجوش ، وأشيع بموت جماعة كثيرة هناك من أعيان أهل مصر .

وقبل ذلك قدمت الأخبار بوفاة جانى بك داوادار الأمير طراباى ، وكان من وسائط السوء ، ومحمد بن يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وكان من وسائط السوء أيضا . وتوفى محمد المسكى الذى كان من سوق الورّاقين . وتوفى هناك جماعة كثيرة ما يحضرنى اسماؤهم الآن .

د . محمد مصطفى زيادة